مِيزَانُ ٱلْبَيَانِ: ٱلنَّشْأَةُ ٱلْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ

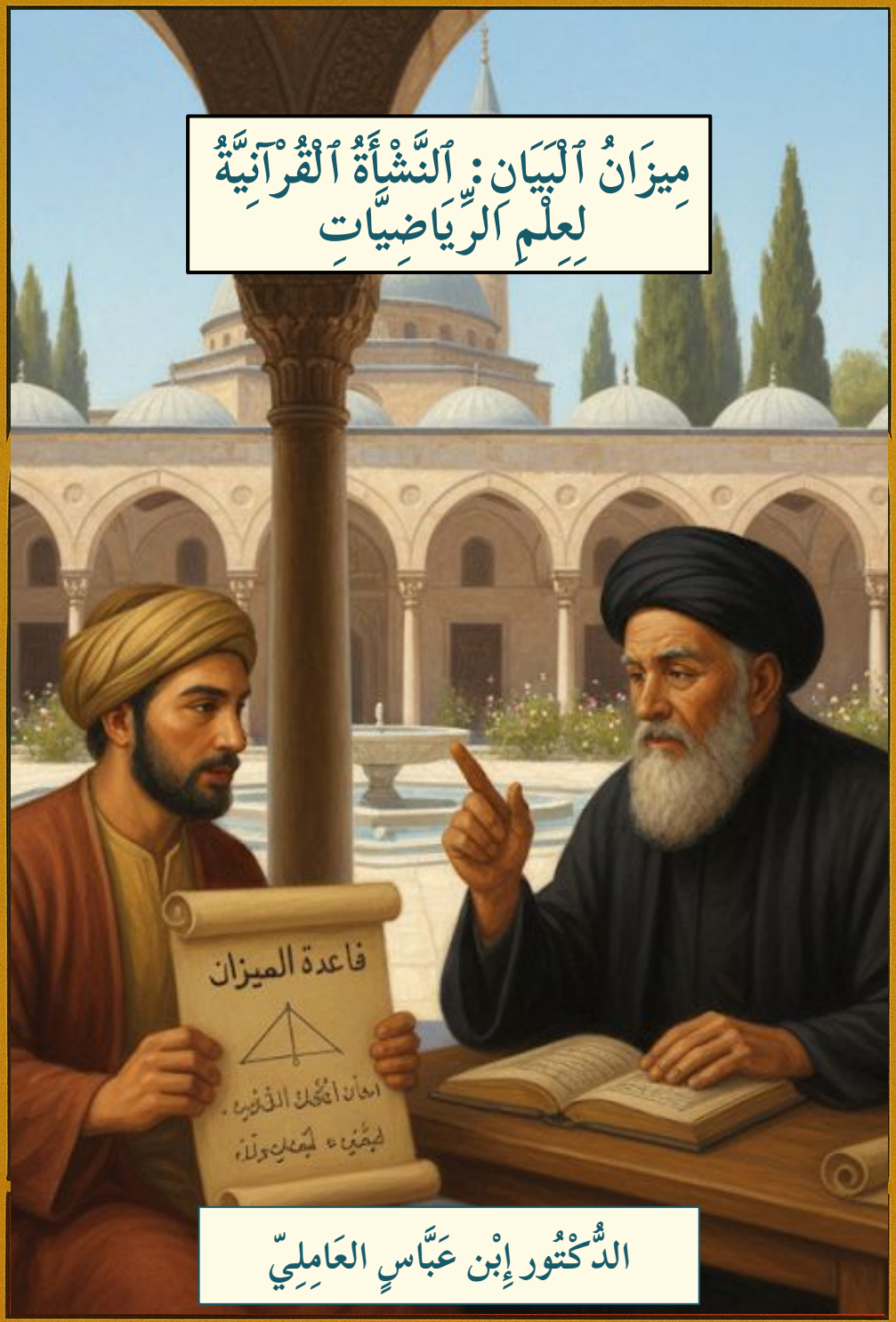

الدُّكْتُور إِبْن عَبَّاسٍ العَامِلِيّ

مُقَدِّمَاتٌ فِي مِيزَانِ البَيَانِ

مِيزَانُ ٱلْبَيَانِ: ٱلنَّشْأَةُ ٱلْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ الرِّيَاضِيَّاتِ

الخُوَارِزْمِيُّ وَلِيدُ ٱلْقُرْآنِ

رِوَايَّةُ ٱلْخُوَارِزْمِيِّ وَنَشْأَةِ ٱلْجَبْرِ
وَٱلْخَوَارِزْمِيَّةِ والعِلْمِ الحَدِيثِ

حِبْكَةٌ خَيَالِيَّةٌ فِي حِوَارِ الإِمَامِ وَالخُوَارِزْمِيِّ
عَنْ أُصُولِ الرِّيَاضِيَّاتِ فِي مِيزَانِ البَيَانِ
القُرْآنِيِّ

الدُّكْتُور إِبْن عَبَّاسٍ العَامِلِيّ

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

(طه: 25-27)

حُقُوقُ ٱلطَّبْعِ وَٱلنَّشْرِ مَحْفُوظَةٌ ©

ٱلْمُؤَلِّفُ: إِبْنُ عَبَّاسٍ ٱلْعَامِلِيُّ – ٢٠٢٥م

جَمِيعُ حُقُوقِ ٱلطَّبْعِ وَٱلنَّشْرِ مَحْفُوظَةٌ. لَا يَجُوزُ إِعَادَةُ طَبْعِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ، أَوْ أَيِّ جُزْءٍ مِنْهُ، أَوْ نَقْلُهُ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ مِنَ ٱلْوَسَائِلِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ إِلِكْتُرُونِيَّةً أَمْ مِيكَانِيكِيَّةً أَمْ ضَوْئِيَّةً أَمْ صَوْتِيَّةً، أَوْ بِأَيِّ طَرِيقَةٍ أُخْرَى، دُونَ إِذْنٍ خَطِّيٍّ مُسْبَقٍ مِنَ ٱلْمُؤَلِّفِ أَوِ ٱلنَّاشِرِ. يُسْتَثْنَى مِنْ ذٰلِكَ ٱلِاقْتِبَاسُ ٱلْقَصِيرُ لِغَرَضِ ٱلْبَحْثِ أَوِ ٱلنَّقْدِ، وَذٰلِكَ فِي حُدُودِ مَا تَسْمَحُ بِهِ قَوَانِينُ حُقُوقِ ٱلطَّبْعِ وَٱلنَّشْرِ ٱلْمُعْمُولُ بِهَا.

تَرْخِيصٌ أَكَادِيمِيٌّ مُحَدَّدٌ

تَمَّ تَخْصِيصُ نُسَخٍ مَحْدُودَةٍ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ لِلتَّوْزِيعِ ٱلأَكَادِيمِيِّ وَٱلْبَحْثِيِّ، وَذٰلِكَ لِفَائِدَةِ ٱلطُّلَّابِ وَٱلْمَرَاكِزِ ٱلْعِلْمِيَّةِ وَٱلْبَحْثِيَّةِ. وَيَخْضَعُ ٱسْتِعْمَالُ هٰذِهِ ٱلنُّسَخِ لِلشُّرُوطِ ٱلتَّالِيَةِ:

- أَلَّا يُسْتَعْمَلَ ٱلْمُصَنَّفُ فِي أَيِّ ٱسْتِغْلَالٍ تِجَارِيٍّ.
- أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَصْدَرُ وَٱلْمُؤَلِّفُ ذِكْرًا وَافِيًا فِي أَيِّ ٱسْتِشْهَادٍ أَوْ نَقْلٍ.

- أَلَّا تُجْرَى عَلَيْهِ تَغْيِيرَاتٌ تَمَسُّ مَضَامِينَهُ ٱلْعِلْمِيَّةَ أَوْ تَحْرِيفَاتٌ تَضُرُّ بِٱلسِّيَاقِ ٱلْمَقْصُودِ.

للتواصل مع المؤلف: IbnAbbasAlamili@gmail.com

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

(هود: 88)

نُسْخَةٌ مَحْدُودَةٌ قَبْلَ النَّشْرِ

يُقَدِّمُ هٰذَا ٱلْعَمَلُ ٱلسَّرْدِيُّ «رِوَايَةُ ٱلْخُوَارِزْمِيِّ وَنَشْأَةِ عِلْمِ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ وَمِيزَانِ ٱلْحِسَابِ» مَشْهَدًا فِكْرِيًّا مُرَكَّبًا يَنْسِجُ حِوَارًا تَخْيِيلِيًّا بَيْنَ ٱلْإِمَامِ وَٱلْخُوَارِزْمِيِّ لِٱسْتِكْنَاهِ أُصُولِ ٱلتَّعْدِيدِ وَٱلتَّمْوْضُعِ ٱلرَّقْمِيِّ وَقَوَاعِدِ ٱلْجَبْرِ وَٱلْمُقَابَلَةِ فِي ضَوْءِ «مِيزَانِ ٱلْبَيَانِ» ٱلْمُسْتَقَى مِنَ ٱلْوَحْيِ؛ فَيُزَاوِجُ بَيْنَ ٱلْخَيَالِ ٱلْأَدَبِيِّ وَٱلتَّأْسِيسِ ٱلْمَنْهَجِيِّ لِمَبَادِئِ ٱلتَّرْتِيبِ وَٱلتَّفْرِيعِ وَٱلتَّكْرَارِ وَمِيزَانِ ٱلِاخْتِبَارِ لِصِحَّةِ ٱلْحُسْبَانِ، وَيُظْهِرُ كَيْفَ تَتَآزَرُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ وَٱلصِّنَاعَاتُ ٱلتَّطْبِيقِيَّةُ فِي فَسِيحِ ٱلْمَسْجِدِ وَٱلدَّارِ لِتَشْكِيلِ عَقْلٍ عَدَدِيٍّ رَاشِدٍ يَطْلُبُ ٱلْبُرْهَانَ وَيَزِنُ ٱلْأَقْوَالَ وَٱلْمَسَائِلَ بِٱلشَّوَاهِدِ وَٱلْحُلُولِ. وَتَرْسُمُ ٱلرِّوَايَةُ بِنْيَةً مَعْرِفِيَّةً تُوَحِّدُ مِقْيَاسَ «ٱلْمَعْنَى» وَمِقْيَاسَ «ٱلْعَدَدِ» فِي سِيَاقٍ تَعْلِيمِيٍّ مُنْضَبِطٍ يُفْصِحُ عَنْ جُسُورِ ٱلْوَصْلِ بَيْنَ مَعَاجِمِ ٱلْمَفَاهِيمِ وَخُوَارِزْمِيَّاتِ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّرْتِيبِ وَٱلتَّحْسِيبِ، فَتُعِيدُ ٱقْتِرَاحَ قِرَاءَةٍ حَيَّةٍ لِلتُّرَاثِ ٱلرِّيَاضِيِّ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَتُفَكِّرُ فِي مَوْقِعِهِ مِنْ خَرِيطَةِ ٱلْعِلْمِ ٱلْمُعَاصِرِ مَعَ تَشْدِيدٍ عَلَى أَخْلَقَةِ ٱلْحِسَابِ وَحُدُودِ ٱلْمَعْرِفَةِ وَتَوَازُنِ ٱلْأَدَاةِ وَٱلْغَايَةِ فِي ٱلْمُعَامَلَاتِ وَٱلْعُمْرَانِ.

فَوْقَ ذٰلِكَ فَهِيَ رِوَايَةٌ تَعْلِيمِيَّةٌ تَرْبَوِيَّةٌ مُوَجَّهَةٌ لِلطُّلَّابِ فِي ٱلْمَرَاحِلِ

ٱلثَّانَوِيَّةِ وَٱلْجَامِعِيَّةِ وَلِمُؤَسَّسَاتِ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْإِسْلَامِيِّ، تَهْدِفُ إِلَى تَوْأَمَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْفِطْرَةِ، وَإِلَى تَنْشِئَةِ بَاحِثٍ يَزِنُ ٱلْأَدَاةَ بِٱلْغَايَةِ وَيَصِلُ بَيْنَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَٱلْقِيمِ.

تَنْوِيهٌ: حُدُودُ الفَهْمِ وَإِمْكَانَاتُ التَّأْوِيلِ

إِنَّ هٰذِهِ الرِوَايَةُ البَيَانِيَّةُ الخَيَالِيَّةُ المُسْتَوْحَاةُ مِنْ سِيرَةِ الْخُوَارِزْمِيِّ، وَمَا تُقَدِّمُهُ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَأَمُّلٍ فِي الإِسْلَامِ وَمَنْطِقِ البَيَانِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ وَالحَوْسَبَةِ وَالذَّكَاءِ الْإِصْطِنَاعِيِّ، لَيْسَ سِوَى مُحَاوَلَةٍ بَشَرِيَّةٍ لِاسْتِكْشَافِ الوَاقِعِ وَاسْتِجْلَاءِ مَعَانِي النُّصُوصِ فِي سِيَاقِ التَّجْرِبَةِ الإِنْسَانِيَّةِ المُعَاصِرَةِ. إِنَّ أَيَّ فَهْمٍ يُطْرَحُ هُنَا، سَوَاءٌ تَعَلَّقَ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ أَوْ بِالإِسْلَامِ عَامَّةً، إِنَّمَا يُعَبِّرُ عَنْ إِدْرَاكِ القَارِئِ وَسَعْيِهِ المُخْلِصِ لِلاقْتِرَابِ مِنَ الحَقِيقَةِ، بِقَدْرِ مَا تَسْمَحُ بِهِ أَدَوَاتُهُ العَقْلِيَّةُ وَمَعْطَيَاتُهُ المَعْرِفِيَّةُ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَدَّعِي، بِأَيِّ حَالٍ، أَنَّهُ الفَهْمُ النِّهَائِيُّ أَوِ المُطْلَقُ لِمَا أَرَادَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَسُولُهُ (ص)، فَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِالمُرَادِ الحَقِّ مِنْ كَلَامِهِ وَسُنَّتِهِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الفِكْرِ البَشَرِيِّ تَقْتَضِي البَحْثَ وَالسُّؤَالَ وَإِعَادَةَ النَّظَرِ، وَمَعْرِفَةَ الإِنْسَانِ تَظَلُّ مَحْدُودَةً بِحُدُودِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ وَالمَقْدِرَةِ العَقْلِيَّةِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ أَيَّ تَأْوِيلٍ أَوْ تَحْلِيلٍ يَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ فِي إِطَارِهِ كَبَشَرٍ يَسْعَى لِلتَّقَرُّبِ إِلَى الحَقِيقَةِ، لَا كَمَوْقِفٍ قَطْعِيٍّ يُلْزِمُ الآخَرِينَ أَوْ يَدَّعِي العِصْمَةَ مِنَ الخَطَإِ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مُحْكَمِ القُرْآنِ الكَرِيمِ:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإِسْرَاء: ٨٥)،

وَنُرَدِّدُ فِي دُعَائِنَا: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طَه: ١١٤).

قَائِمَةُ المُحْتَوَيَاتِ

قَائِمَةُ المُحْتَوَيَاتِ 10

الإِهْدَاءُ الأوّل 14

الإِهْدَاءُ الثّاني 15

الإِهْدَاءُ الثّالِثُ 16

كَلِمَةُ المُؤَلِّفِ 17

التَّمْهِيدُ 21

المِحْوَرُ الأَوَّلُ: ثَوْرَةُ الحِسَابِ 22

البَابُ الأَوَّلُ: مَا قَبْلَ الحِسَابِ المِنْهَجِيِّ 25

الدَّرْسُ ١: نُورٌ مِنَ المَشْرِقِ 31

الدَّرْسُ ٢: لُغْزُ العَمُودِ الفَارِغِ وَوَحْيُ الصِّفْرِ 36

البَابُ الثَّانِي: بُزُوغُ الْحِسَابِ الْمَنْهَجِيِّ (الخُوَارِزْمِيَّاتِ) **42**

الدَّرْسُ ٣: خُوَارِزْمِيَّةُ الْجَمْعِ 45

الدَّرْسُ ٤: خُوَارِزْمِيَّةُ الطَّرْحِ 50

الدَّرْسُ ٥: خُوَارِزْمِيَّتَا الضَّرْبِ وَالقِسْمَةِ 57

الدَّرْسُ ٦: ثَوْرَةُ الحِسَابِ الهَادِئَةِ 68

البَابُ الثَّالِثُ: البِنَاءُ الْمَنْهَجِيِّ - أَرْكَانُ الخُوَارِزْمِيَّاتِ الأَرْبَعَةُ **75**

الدَّرْسُ ٧: خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّرْتِيبِ وَالتَّسَلْسُلِ 78

الْدَّرْسُ ٨: خُوَارِزْمِيَّاتُ الشَّرْطِ وَالتَّفَرُّعِ 85

الْدَّرْسُ ٩: خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّكْرَارِ وَالدَّوَرَانِ 91

الدَّرْسُ ١٠: خُوَارِزْمِيَّاتُ البِنْيَةِ وَالتَّنَاظُرِ 98

البَابُ الرَّابِعُ: التَّنَاظُرُ البَيَانِيُّ **104**

الدَّرْسُ ١١: مِعْمَارِيَّةُ المَعَانِي فِي القُرْآنِ 106

الدَّرْسُ ١٢: أَنْوَاعُ التَّنَاظُرِ الكُبْرَى 113

الدَّرْسُ ١٣: أَدَوَاتُ التَّنَاظُرِ 118

البَابُ الخَامِسُ: التَّحَقُّقُ وَالبُرْهَانُ - بِنَاءُ الإِطْمِئْنَانِ **122**

الدَّرْسُ ١٤: أَدَوَاتُ الإِسْتِدْلَالِ 124

الدَّرْسُ ١٥: أَدَوَاتُ البُرْهَانِ 140

الدَّرْسُ ١٦: أَدَوَاتُ إِتْمَامُ العِدَّةِ 153

المِحْوَرُ الثَّانِي: ثَوْرَةُ الجَبْرِ والمُقَابَلَةِ **160**

البَابُ السَّادِسُ: أَدَاةُ الْمُعَادَلَةِ **165**

الدَّرْسُ ١٧: مَنْطِقُ المُعَادَلَةِ 170

البَابُ السَّابِعُ: أَدَوَاتُ الجَبْرِ الثَّلَاثَةُ **181**

الدَّرْسُ ١٨: مِيزَانُ ٱلْبَيَانِ 184

الدَّرْسُ ١٩: مِيزَانُ الجَبْرِ 198

الدَّرْسُ ٢٠: مِيزَانُ المُقَابَلَةُ 210

الخَاتِمَةُ: حِينَ يَنْطِقُ الخُوَارِزْمِيُّ فِي زَمَانِنَا؟ 220

الْمَلَاحِقُ **223**

المُلْحَقُ الأَوَّلُ: الْأَدِلَّةُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى ثَوْرَةِ الْحِسَابِ	225
الْمُلْحَقُ الثَّانِيُ: الخُوَارِزْمِيَّاتِ التَّسَلْسُلِيَّةِ	229
الْمُلْحَقُ الثَّالِثُ: خُوَارِزْمِيَّاتُ الشَّرْطِ وَالتَّفَرُّعِ	239
الْمُلْحَقُ الرَابِعُ: خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّكْرَارِ وَالدَّوَرَانِ	244
الْمُلْحَقُ الخَامِسُ: أَنْوَاعِ التَّنَاظُرِ البَيَانِيِّ وَأَدَوَاتِ المُقَارَنَةِ وَالمُقَابَلَةِ	249

الإِهْدَاءُ الأوّل

إِلَى رُوحَي وَالِدَيَّ الطَّاهِرَتَيْنِ،

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَتَقَبَّلَ هٰذَا العَمَلَ، وَيَجْعَلَهُ صَدَقَةً جَارِيَةً فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكُمَا، وَأَنْ يَرْفَعَ دَرَجَتَكُمَا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إِبْرَاهِيم: ٤١)

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإِسْرَاء: ٢٤)

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ، وَارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، وَاجْزِهِمَا بِالإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسَّيِّئَاتِ عَفْوًا وَغُفْرَانًا.

رَحِمَكُمَا اللهُ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ، وَأَسْكَنَكُمَا الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى.

المُؤَلِّفُ

الإِهْدَاءُ الثّاني

إِلَى زَوْجَتِي الْحَبِيبَةِ، وَرَفِيقَةِ دَرْبِي مُنْذُ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ عَامًا، أُمِّ أَوْلَادِي السَّبْعَةِ، وَعِشْقِي الْخَالِدِ، وَصَدِيقَتِي وَمُلْهَمَتِي.

إِلَيْكِ أُهْدِي هٰذَا الْعَمَلَ، أَنْتِ الَّتِي كُنْتِ قَبْلَ أَنْ تَصِيرِي أُسْتَاذَةً جَامِعِيَّةً، الْمُرَبِّيَةَ الْأُولَى فِي بَيْتِنَا؛ فَرَبَّيْتِ أَوْلَادَنَا السَّبْعَةَ وَعَلَّمْتِهِمْ فِي الْمَدْرَسَةِ الْبَيْتِيَّةِ، فَتَفَوَّقُوا بِفَضْلِ اللهِ فِي الْعِلْمِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالدِّينِ.

ثُمَّ انْطَلَقْتِ بَعْدَ ذٰلِكَ تُعَلِّمِينَ فِي الْجَامِعَةِ بِرِسَالَةٍ نَبِيلَةٍ، تَفْتَحِينَ لِلْجِيلِ الْجَدِيدِ أَبْوَابَ الْحَيَاةِ، وَتُرْشِدِينَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ.

فَكُنْتِ فكنتِ نِعْمَ الزَّوْجَةَ، ونِعْمَ الأُمَّ، ونِعْمَ المُعَلِّمَةَ، ونِعْمَ الحَبِيبَةَ، جَعَلَكِ اللهُ لِي وَلِأَوْلَادِنَا ذُخْرًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

الإِهْدَاءُ الثَّالِثُ

إِلَى ابْنَتِي الْعَزِيزَةِ سُكَيْنَةَ، رَاوِيَةً مُلْهَمَةً، وَأَدِيبَةً بَلِيغَةً، كُنْتِ نُورًا فِي طَرِيقِ الْكَلِمَةِ، وَإِلْهَامًا فِي صِيَاغَةِ هٰذِهِ الرِّوَايَةِ. أُهْدِيكِ هٰذَا الْعَمَلَ كَمَا يُهْدِي الْوَالِدُ لِابْنَتِهِ قَلْبًا مَمْلُوءًا حُبًّا وَفَخْرًا. جَعَلَكِ اللّٰهُ يَا سُكَيْنَةُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، وَمَصْدَرًا لِلْإِلْهَامِ، وَحَامِلَةً لِرَايَةِ الْقَلَمِ الصَّادِقِ، تُنِيرِينَ بِهِ الْعُقُولَ، وَتُحَرِّكِينَ بِهِ الْقُلُوبَ، فَتَكُونِينَ جِسْرًا بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالْوَحْيِ، وَبَيْنَ الْإِبْدَاعِ وَالْإِيمَانِ.

كَلِمَةُ المُؤَلِّفِ

تُقَدَّمُ هٰذِهِ الرِّوَايَةُ إِحْدَى مُقَدِّمَاتِ «مِيزَانِ الْبَيَانِ»؛ مَدْخَلًا أَدَبِيًّا مُيَسَّرًا لِمَشْرُوعٍ مَعْرِفِيٍّ يَسْتَنْبِتُ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عِلْمًا جَدِيدًا لِتَنْظِيمِ الْفِكْرِ وَتَهْذِيبِ التَّعْبِيرِ وَتَأْسِيسِ الْمُحَاجَّةِ الْحَقَّةِ. فَ «مِيزَانُ الْبَيَانِ» لَيْسَ تَرْقِيعًا لِمَفَاهِيمَ مُتَفَرِّقَةٍ، وَلَا تَحْشِيَةً لِمَعَارِفَ مُتَنَاثِرَةٍ؛ بَلْ هُوَ نِظَامٌ مَعْرِفِيٌّ مُؤَسِّسٌ يَسْتَقِيمُ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ: قَاعِدَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَقَاعِدَةُ الْهُدَى الَّذِي يَشُقُّ لِلْعَقْلِ سَبِيلَهُ: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

يَتَعَلَّمُ «مِيزَانُ الْبَيَانِ» مِنَ الْقُرْآنِ كَيْفَ تُنَظَّمُ الْفِكْرَةُ فِي سِلْسِلَةٍ بَيِّنَةٍ، وَكَيْفَ تُصَاغُ فِي لَفْظٍ مُحْكَمٍ، وَكَيْفَ تُدَافِعُ عَنْ حَقِّهَا بِالْبُرْهَانِ الصَّادِقِ وَالْقِيَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَهُوَ، مِنْ ثَمَّ، بَدِيلٌ مَنْهَجِيٌّ لِمَسَالِكِ عُلُومِ «الْمَنْطِقِ» مِنْ أُصُولِهَا الْيُونَانِيَّةِ إِلَى صِيَغِهَا الْحَدِيثَةِ؛ لَا لِرَفْضِ مَا فِيهَا مِنْ مَكَاسِبَ مُحَقَّقَةٍ، بَلْ لِإِعَادَةِ وُضْعِ «الْوَزْنِ» فِي مَوْضِعِهِ: لُغَةً وَمَعْنًى وَمَقْصِدًا وَبُرْهَانًا، عَلَى مَا يُوَافِقُ الْفِطْرَةَ وَيَهْتَدِي بِنُورِ الْوَحْيِ.

وَيَجْمَعُ «مِيزَانُ الْبَيَانِ» بَيْنَ «مَوَازِينِ الْكَلَامِ» (دَلَالَةً وَبَلَاغَةً وَتَرْكِيبًا) وَبَيْنَ الرِّيَاضِيَّاتِ (نِسَبًا وَهَيْكَلًا وَاحْتِمَالًا) وَ«عِلْمِ التَّجْرِبَةِ» (فَرْضًا وَاخْتِبَارًا وَتَكْذِيبًا) وَالْحَوْسَبَةِ وَالذَّكَاءِ الِاصْطِنَاعِيِّ (نَمْذَجَةً وَمُحَاكَاةً وَتَعَلُّمًا) وَالْعُلُومِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ (مُشَاهَدَةً وَمَسْحًا وَتَأْوِيلًا). إِنَّهُ جِسْرٌ لِتَوْحِيدِ مَقَايِيسِ «الْمَعْنَى» وَ«الْعَدَدِ» وَ«التَّجْرِبَةِ» فِي مِعْيَارٍ وَاحِدٍ: مِيزَانٌ يَزِنُ الْفِكْرَ قَبْلَ الْعِبَارَةِ، وَيَزِنُ الْعِبَارَةَ قَبْلَ الْحُجَّةِ، وَيَزِنُ الْحُجَّةَ قَبْلَ الْحُكْمِ.

وَتَهْدِفُ هٰذِهِ الرِّوَايَةُ، فِي إِطَارِهَا التَّعْلِيمِيِّ، إِلَى تَوْلِيدِ «تَشَابُكٍ كَمِّيٍّ»، فِي الْمَعْنَى الْمَعْرِفِيِّ الِاسْتِعَارِيِّ، بَيْنَ «تَعَقُّلِ» الْإِنْسَانِ الْمَبْنِيِّ عَلَى «الْفِطْرَةِ» وَ«عِلْمِ الْبَيَانِ» الَّذِي امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرَّحْمنُ ٤)؛ أَيْ بِنَاءَ لُحْمَةٍ حَيَّةٍ بَيْنَ السَّلِيقَةِ الْمُهْتَدِيَةِ وَالنِّظَامِ الْمَعْرِفِيِّ الْمُهَنْدَسِ، لِتَنْشَأَ «عَادَاتُ فِكْرٍ» جَدِيدَةٌ تُتَرْجِمُ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ إِلَى لَفْظٍ مُحْكَمٍ، وَتُتَرْجِمُ اللَّفْظَ الْمُحْكَمَ إِلَى بُرْهَانٍ مُجَرَّبٍ، وَتُتَرْجِمُ الْبُرْهَانَ إِلَى فِعْلٍ عَادِلٍ فِي الْمُجْتَمَعِ.

وَلَا تَقِفُ غَايَةُ «مِيزَانِ الْبَيَانِ» عِنْدَ التَّقْرِيرِ النَّظَرِيِّ؛ بَلْ هُوَ مَشْغُولٌ بِصِنَاعَةِ «أَدَوَاتٍ» لِلتَّطْبِيقِ: مَعَاجِمُ لِلْمَفَاهِيمِ الْمِفْتَاحِيَّةِ، وَخَوَارِزْمِيَّاتٌ لِتَتَبُّعِ التَّعْلِيلِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَنَمَاذِجُ لِلتَّجَارِبِ وَمُحَاكَاتُهَا، وَمَقَايِيسُ لِجَوْدَةِ التَّبْلِيغِ وَعَدَالَةِ الْأَثَرِ الِاجْتِمَاعِيِّ. هٰكَذَا يُرِيدُ هٰذَا الْمَشْرُوعُ أَنْ يُحَوِّلَ «الْبَيَانَ» مِنْ مَجَالٍ

لِلْجَمَالِ وَحَسْبُ إِلَى «مِيزَانٍ» لِلْحَقِّ وَالْعَمَلِ.

وَإِنِّي، وَأَنَا أُقَدِّمُ هٰذِهِ الرِّوَايَةَ، أَرَى فِيهَا مِفْتَاحًا تَرْبَوِيًّا لِإِصْلَاحِ عِلَاقَتِنَا بِاللُّغَةِ وَالْقُرْآنِ وَالْعَقْلِ؛ فَهِيَ نَصٌّ تَطْبِيقِيٌّ يَسْتَدْعِي الْقَارِئَ، طَالِبًا وَمُعَلِّمًا وَبَاحِثًا، إِلَى الْمُمَارَسَةِ: أَنْ يَسْمَعَ، وَيَسْتَقْرِئَ، وَيَسْتَدِلَّ، وَيُحَاجَّ، وَيُجَرِّبَ. لَا نَبْغِي مَعَ هٰذَا أَنْ نَنْقُضَ مَا سَبَقَ مِنْ تَرَاثِ التَّفْكِيرِ الْبَشَرِيِّ، وَلَا أَنْ نَنْعَزِلَ عَنْ مَكَاسِبِ الْعِلْمِ، وَلَكِنَّا نَبْغِي أَنْ «نُزَنَ» كُلَّ ذٰلِكَ بِمِيزَانٍ يُصْلِحُ مَوَاضِعَ الْقُوَّةِ وَيُقَوِّمُ أَوْهَامَ الْمَنْهَجِ.

إِنَّ الْهَدَفَ الْأَسْمَى لِنَشْأَةِ «عِلْمِ مَوَازِينِ الْبَيَانِ» وَتَطْوِيرِهِ هُوَ صِنَاعَةُ «حَضَارَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ حَدِيثَةٍ» تَقُومُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ، بَدِيلًا رَاشِدًا لِأَنْسَاقٍ غَالِبَةٍ تَتَهَالَكُ بِأَزْمَاتِهَا الْبِنْيَوِيَّةِ وَالْبِيئِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، وَحَلًّا مُتَدَرِّجًا لِمُشْكِلَاتِ الْإِنْسَانِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ. فَإِذَا لَمْ يَعُدِ «التَّقَدُّمُ» مَقِيسًا بِسُرْعَةِ الْأَدَاةِ فَحَسْبُ، بَلْ بِمِيزَانِ الْمَعْنَى وَعَدَالَةِ الْأَثَرِ وَسَعَةِ الْمُشْتَرَكِ الْإِنْسَانِيِّ، آنَئِذٍ يَسْتَوِي الْعِلْمُ قِيَمًا، وَتَسْتَقِيمُ الْقِيَمُ عِلْمًا.

هٰكَذَا أُرِيدُ لِهٰذِهِ الرِّوَايَةِ أَنْ تَكُونَ: نَقْرَةَ الْبِذْرَةِ فِي تُرَابِ النَّفْسِ، تُوقِظُ فِيهَا «الْفِطْرَةَ» وَ«الْبَيَانَ»، وَتَفْتَحُ فِي الذِّهْنِ «مَخْبَرًا» يَلْتَقِي فِيهِ اللَّفْظُ وَالْعَدَدُ وَالتَّجْرِبَةُ وَالْعَدْلُ. فَإِنْ خَرَجَ الْقَارِئُ مِنْهَا بِسُؤَالٍ أَجْلَى، وَمِيزَانٍ أَدَقَّ، وَعَادَةِ

تَفْكِيرٍ أَصْلَبَ، فَقَدْ بَلَغَتِ الرِّوَايَةُ غَايَتَهَا الْأُولَى، وَبَلَغَ «مِيزَانُ الْبَيَانِ» بَابًا مِنْ أَبْوَابِهِ.

وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلانُ.

والله وليّ التوفيق.

الْمُؤَلِّفُ

التَّمْهِيدُ

تَسْعَى هٰذِهِ الرِّوَايَةُ إِلَى جَمْعِ كُلِّ أَطْرَافِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَالْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ فِي سُلَّمٍ وَاحِدٍ، وَتَجْعَلُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مَنْبَعًا وَمَنْهَجًا وَمِيزَانًا. فَفِي ثَنَايَاهَا يَتَجَلَّى كَيْفَ انْبَثَقَتْ مِنْ رُوحِ الْوَحْيِ نُطْقَةُ الْحِسَابِ وَأُصُولُ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ، وَكَيْفَ وُلِدَتِ الْمَنْهَجِيَّةُ الْخُوَارِزْمِيَّةُ الَّتِي غَيَّرَتْ وَجْهَ التَّارِيخِ وَصَارَتْ عِمَادًا لِلْعُلُومِ التَّجْرِيبِيَّةِ وَالتِّقَانَةِ وَالْحَوْسَبَةِ وَالذَّكَاءِ الِاصْطِنَاعِيِّ، وَالْعَمُودَ الْفَقَرِيَّ لِمُجْتَمَعِ الْحَدَاثَةِ.

وَمِنْ خِلَالِ حِبْكَةٍ خَيَالِيَّةٍ مُسْتَوْحَاةٍ مِنْ سِيرَةِ الْخُوَارِزْمِيِّ، يَجْلِسُ الْعُلَمَاءُ فِي حَلْقَةِ الْإِمَامِ، فَيَكْشِفُونَ كَيْفَ يَتَفَتَّحُ الْقُرْآنُ بِنُورِ الْوَحْيِ وَالْحِكْمَةِ لِيُوقِظَ الْابْتِكَارَ وَيُلْهِمَ الْعُقُولَ بِحُلُولٍ لَا تَنْفَدُ. هُنَاكَ يَتَحَوَّلُ الْمَجْلِسُ إِلَى جِسْرٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَبَيْنَ الْوَحْيِ الْإِلٰهِيِّ وَالْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ، فِي رِحْلَةٍ تَتَّجِهُ نَحْوَ الْكَمَالِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، كَأَنَّهَا دَعْوَةٌ لِإِعَادَةِ اكْتِشَافِ الْعِلْمِ فِي ضِيَاءِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ.

المِحْوَرُ الأَوَّلُ: ثَوْرَةُ الحِسَابِ

كَانَ الْمَجْلِسُ يَغْلِي بِحَمَاسَةِ الْكَلِمَاتِ كَأَنَّهُ بَحْرٌ يَتَمَوَّجُ بِالْحِكْمَةِ، وَالطُّلَّابُ جُلُوسٌ فِي حَلْقَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ تَحُفُّهَا رَائِحَةُ الْمَحَابِرِ وَصَفَحَاتُ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ. وَقَدْ بَدَأَ الْإِمَامُ يَرْسُمُ بِكَلِمَاتِهِ مَعَالِمَ طَرِيقٍ جَدِيدٍ، طَرِيقٍ يَجْمَعُ بَيْنَ نُورِ الْوَحْيِ وَدِقَّةِ الْحِسَابِ، كَأَنَّهُ يَبْنِي جِسْرًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْعَقْلِ.

قَالَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَقَارَ الْمَعْرِفَةِ:

"إِنَّ الْحِسَابَ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ لِلْمُتَجِرِ أَوْ لِلْقَانُونِ، بَلْ هُوَ لُغَةٌ إِلَهِيَّةٌ زَرَعَهَا الْقُرْآنُ فِي نُفُوسِنَا، فَبِهَا نَتَعَلَّمُ كَيْفَ نُحْصِي كُلَّ شَيْءٍ، وَكَيْفَ نُقِيمُ الْمِيزَانَ، وَكَيْفَ نَجْعَلُ الْعَدْلَ قَانُونًا يَحْكُمُ الْحَيَاةَ كَمَا يَحْكُمُ الْفَلَكَ".

ثُمَّ تَلَا بِخُشُوعٍ يَخْرُقُ الْقُلُوبَ:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (النَّبَأُ: ٢٩).

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَدْرَكَ الْجَمِيعُ أَنَّ الْحِسَابَ الَّذِي كَانُوا يَعُدُّونَهُ أَدَاةً صَغِيرَةً، إِنَّمَا هُوَ ثَوْرَةٌ مَعْرِفِيَّةٌ تُوَحِّدُ الْكَوْنَ وَالتَّارِيخَ وَالْإِنْسَانَ فِي قَانُونٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الَّذِي أَطْلَقَ هٰذِهِ الثَّوْرَةَ وَجَعَلَهَا أَسَاسًا لِكُلِّ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ.

فَرَفَعَ يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ) يَدَهُ وَقَالَ بِتَأَمُّلٍ:

"يَا سَيِّدِي، هَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْحِسَابَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ نِظَامٌ يَكْشِفُ التَّعَادُلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ كَمَا يَكْشِفُ الْمِيزَانُ عَنْ دِقَّةِ الْوَزْنِ؟".

ابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ:

"نَعَمْ يَا يَعْقُوبُ، فَالْقُرْآنُ لَمْ يَذْكُرِ الْحِسَابَ إِلَّا مَقْرُونًا بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ. وَإِذَا تَعَلَّمْتُمُ الْحِسَابَ عَلَى أُصُولِ الْقُرْآنِ، رَأَيْتُمُ الْمُعَادَلَةَ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ كَأَنَّهَا مِرْآةٌ لِعَدْلِ اللهِ فِي الْكَوْنِ".

فَقَالَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) وَهُوَ يَفْرُكُ يَدَيْهِ كَمَنْ يَتَذَكَّرُ صَفْقَاتِهِ:

"إِذَنْ يَا سَيِّدِي، مَا كُنْتُ أَعُدُّهُ جَدَاوِلَ وَأَرْقَامًا فِي دَكَّانِي، هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ جُزْءٌ مِنْ عَدْلِ اللهِ وَمِيزَانِهِ؟".

فَأَجَابَ الْإِمَامُ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ كَنُورِ فَجْرٍ:

"بَلْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّهُ مَفْتَاحٌ لِفَهْمِ الْكَوْنِ، وَدَرَجَةٌ فِي سُلَّمِ الْطُمَأْنِينَةِ، وَسَبِيلٌ إِلَى الْعَدْلِ الَّذِي يَسْتَمِدُّ أُسُسَهُ مِنَ السَّمَاءِ".

البَابُ الأَوَّلُ: مَا قَبْلَ الحِسَابِ المِنْهَجِيِّ

عَالَمٌ يَغْرَقُ فِي الفَوْضَى

(المَشْهَدُ: سُوقُ الْوَرَّاقِينَ فِي بَغْدَادَ - ظَهِيرَةُ يَوْمٍ حَارٍّ)

كَانَتِ الشَّمْسُ تُلْهِبُ حِجَارَةَ بَغْدَادَ كَفِرْنٍ مُحْتَرِقٍ، وَالْهَوَاءُ ثَقِيلٌ كَالرَّصَاصِ، مَشْبُوعٌ بِرَائِحَةِ الْحِبْرِ الْجَافِّ وَالْجُلُودِ الْمُعَالَجَةِ وَالْعُطُورِ الشَّرْقِيَّةِ الَّتِي تَنْبَعِثُ مِنْ كُلِّ زَاوِيَةٍ فِي سُوقِ الْوَرَّاقِينَ. الضَّجِيجُ يَعْلُو كَمَوْجٍ مُتَلَاطِمٍ: صُرَاخُ التُّجَّارِ، طَقْطَقَةُ الْخَرَزِ، وَهَمَسُ الْأَقْلَامِ عَلَى الْأَلْوَاحِ. وَسْطَ هَذَا الْغَلَيَانِ، جَلَسَ إِسْمَاعِيلُ، التَّاجِرُ الشَّابُّ ذُو الْعَيْنَيْنِ الْحَادَّتَيْنِ، دَاخِلَ خَانِهِ الصَّغِيرِ، وَعَرَقُهُ يَتَصَبَّبُ كَأَنَّهُ نَهْرٌ صَغِيرٌ – لَيْسَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَحَسْبُ، بَلْ مِنْ حَرَارَةِ الصَّفْقَةِ الَّتِي تَعْلَقُ بِهَا ثَرْوَتُهُ.

أَمَامَهُ، جَلَسَ تَاجِرٌ سَمَرْقَنْدِيٌّ صَارِمُ الْمَلَامِحِ، عَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ كَسِكِّينَيْنِ مَصْقُولَيْنِ، وَبِجَانِبِهِ مُحَاسِبٌ يُونَانِيٌّ عَجُوزٌ، بِشَعْرٍ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ، يُقَلِّبُ خَرَزَاتِ

"مِعْدَادِهِ" (الْأَبَاكُوسِ) بِسُرْعَةٍ تُصْدِرُ طَقْطَقَةً مُتَوَتِّرَةً تَزِيدُ مِنْ ضَغْطِ الْجَوِّ. الصَّفْقَةُ كَانَتْ عَقْدَةً مُعَقَّدَةً: ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا مِنْ حَرِيرٍ صِينِيٍّ أَزْرَقَ نَاعِمٍ كَالْحَرِيرِ الْمَائِيِّ، بِسِعْرِ "اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا وَثُلُثَيْ دِرْهَمٍ" لِلذِّرَاعِ الْوَاحِدِ، مَخْصُومٌ مِنْهَا نِصْفُ دِرْهَمٍ عَنْ كُلِّ عَشَرَةِ أَذْرُعٍ كَهَدِيَّةٍ تَجَارِيَّةٍ، ثُمَّ يَجِبُ اقْتِطَاعُ حِصَّةِ صَاحِبِ الْقَافِلَةِ – "سُبُعُ الرِّبْحِ الصَّافِي" – وَالَّذِي يَتَطَلَّبُ حِسَابًا إِضَافِيًّا يُثِيرُ الدَّوَّارَ.

حَاوَلَ إِسْمَاعِيلُ أَنْ يَحْسِبَ الْمَبْلَغَ بِالطَّرِيقَةِ الْعَرَبِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، فَأَمْسَكَ بِقَلَمِهِ الْمُبَلَّلِ بِالْعَرَقِ وَبَدَأَ يَكْتُبُ الْأَرْقَامَ بِكَلِمَاتٍ طَوِيلَةٍ مُتَشَابِكَةٍ وَمُتَشَابِهَةٍ: "نَضْرِبُ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ وَثُلُثَيْنِ...". الْكَلِمَاتُ تَلْتَفُّ كَأَفْعَى، الْجُمَلُ تَطُولُ كَطَرِيقٍ بِلَا نِهَايَةٍ، وَيَضِيعُ التَّرْكِيزُ بَعْدَ سَطْرَيْنِ فَقَطْ، تَارِكًا إِيَّاهُ يَغْرَقُ فِي بَحْرٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمُتَدَاخِلَةِ.

مَسَحَ اللَّوْحَ بِعُصْبِيَّةٍ تَكَادُ تَكْسِرُ الْقَلَمَ، وَجَرَّبَ الطَّرِيقَةَ الثَّانِيَةَ: حِسَابَ الْجُمَّلِ، النِّظَامُ الْقَدِيمُ الَّذِي يُحَوِّلُ الْحُرُوفَ إِلَى أَرْقَامٍ (أ=١، ب=٢، ج=٣، د=٤... ي=١٠، ك=٢٠، ل=٣٠، م=٤٠...). حَوَّلَ الْأَرْقَامَ إِلَى حُرُوفٍ، فَصَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَضْرِبَ (م ج) فِي (ي ب). كَانَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ سَاحِرَةً لِتَأْرِيخِ الشِّعْرِ أَوْ صِيَاغَةِ الْأَلْغَازِ، لَكِنْ لِعَمَلِيَّةِ ضَرْبٍ مُعَقَّدَةٍ؟ كَانَتْ عَذَابًا يَفُوقُ الْوَصْفَ. يَجِبُ

تَفْكِيكُ الْحُرُوفِ إِلَى قِيَمِهَا فِي الذِّهْنِ، ضَرْبُ الْآحَادِ فِي الْآحَادِ، الْآحَادِ فِي الْعَشَرَاتِ، جَمْعُ النَّوَاتِجِ... شَعَرَ كَأَنَّهُ يَبْنِي قَصْرًا رَمْلِيًّا بِأَعْوَادِ ثِقَابٍ تَتَسَاقَطُ وَاحِدَةً تِلْوَ الْأُخْرَى.

فِي غَمْرَةِ هَذَا الْعَنَاءِ، صَاحَ الْمُحَاسِبُ الْيُونَانِيُّ بِغَطْرَسَةٍ تَكَادُ تَذِيبُ الْحَرَّ: "لَقَدْ وَصَلْتُ إِلَى النَّاتِجِ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ!" وَعَرَضَ لَوْحَهُ الْمَلِيءَ بِالرُّمُوزِ الرُّومَانِيَّةِ الْمُلْتَوِيَةِ. نَظَرَ إِسْمَاعِيلُ إِلَى اللَّوْحِ فَتَاهَ فِي غَابَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الْخُطُوطِ وَالْعِصِيِّ: XLIII لِلثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعِينَ، XII لِلِاثْنَيْ عَشَرَ. كَانَ يَعْرِفُ صُعُوبَةَ هَذَا النِّظَامِ الْقَدِيمِ، الَّذِي يَفْتَقِرُ إِلَى "صِفْرٍ" لِحِفْظِ الْخَانَاتِ، وَتَتَغَيَّرُ قِيمَةُ الرَّمْزِ بِحَسَبِ مَوْقِعِهِ (I قَبْلَ V يَعْنِي طَرْحًا IV=٤، وَبَعْدَهُ جَمْعًا VI=٦). أَمَّا إِجْرَاءُ ضَرْبٍ أَوْ قِسْمَةٍ بِهَذِهِ الطَّلَاسِمِ الْمُلْتَبِسَةِ، فَكَانَ فَنًّا يَتَقَنَاهُ قِلَّةٌ مِنَ الْخُبَرَاءِ، وَيَتَطَلَّبُ سَاعَاتٍ مِنَ الْعَنَاءِ.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْحَرِجَةِ، دَخَلَ يَعْقُوبُ، الصَّدِيقُ الْمُنْشَغِلُ دَائِمًا بِعَالَمِ الْفَلْسَفَةِ الْمُجَرَّدِ، وَنَظَرَ إِلَى الْمَشْهَدِ بِازْدِرَاءٍ خَفِيفٍ يَخْفِي تَعَالِيًا فِكْرِيًّا: "لِمَ تُتْعِبُونَ أَنْفُسَكُمْ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْحَقِيرَةِ، يَا قَوْمِي؟ إِنَّ الْفَلَاسِفَةَ الْعِظَامَ كَأَرِسْطُو وَإِقْلِيدِسَ كَانُوا يَعْتَبِرُونَ هَذَا 'عِلْمَ الْعَامَّةِ' الْوَضِيعَ. الْجَمَالُ الْحَقِيقِيُّ لَا يَكْمُنُ فِي فَوْضَى حِسَابَاتِ السُّوقِ الْمُزْدَحِمَةِ، بَلْ فِي نَقَاءِ الْبُرْهَانِ الْهَنْدَسِيِّ

وَصَفَاءِ الْمَنْطِقِ الْمُجَرَّدِ، الَّذِي يَرْتَقِي بِالرُّوحِ فَوْقَ الْمَادَّةِ".

انْفَجَرَ إِسْمَاعِيلُ غَضَبًا، وَهُوَ يَضْرِبُ اللَّوْحَ بِيَدِهِ: "قُلْ هَذَا الْكَلَامَ الْجَمِيلَ لِصَاحِبِ الْقَافِلَةِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَمْوَالَهُ لِيُطْعِمَ أَهْلَهُ! حِكْمَتُكَ الْمُجَرَّدَةُ لَنْ تُطْعِمَ جَائِعًا أَوْ تُعْمِرَ بَيْتًا. نَحْنُ نَحْتَاجُ إِلَى طَرِيقَةٍ وَاضِحَةٍ، سَرِيعَةٍ، عَادِلَةٍ – لَا فَلْسَفَةٍ عَقِيمَةٍ تَطِيرُ فِي السَّمَاءِ وَتَتْرُكُنَا نَغْرَقُ فِي الْأَرْضِ!".

كَانَ الْخُوَارِزْمِيُّ وَاقِفًا عِنْدَ مَدْخَلِ الْخَانِ، يَسْتَمِعُ بِصَمْتٍ وَيُشَاهِدُ الْمَشْهَدَ بِعَيْنَيْنِ مُتَأَمِّلَتَيْنِ، وَقَلْبُهُ يَعْتَصِرُ أَلَمًا. أَحَسَّ بِإِحْبَاطِ إِسْمَاعِيلَ الْعَمَلِيِّ، وَفَهِمَ كِبْرِيَاءَ يَعْقُوبَ الْفَلْسَفِيَّ، وَلَكِنَّ صَوْتًا دَاخِلِيًّا كَانَ يَهْمِسُ لَهُ بِأَنَّ كِلَيْهِمَا عَلَى خَطَأٍ جُزْئِيٍّ. فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ مُنْفَصِلًا عَنْ حَيَاةِ النَّاسِ وَحَاجَاتِهِمْ الْيَوْمِيَّةِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ حَيَاةُ النَّاسِ مُنْفَصِلَةً عَنِ الْجَمَالِ وَالْمَنْطِقِ الَّذِي يَرْتَقِي بِالرُّوحِ.

خَرَجَ الْخُوَارِزْمِيُّ مِنْ ضَجِيجِ السُّوقِ، وَلَكِنَّ ضَجِيجَ أَفْكَارِهِ الْمُتَلَاطِمَةِ كَانَ أَعْلَى وَأَشَدَّ. مَشَى بِلَا هُدًى وَاسِعَ الْخُطَى، وَهُوَ يَتَذَكَّرُ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنِ الْحِسَابِ بِسُهُولَةٍ وَسُرْعَةٍ وَدِقَّةٍ مُطْلَقَةٍ، كَأَنَّهَا نَغَمٌ يَخْتَرِقُ فَوْضَى الْعَالَمِ. تَذَكَّرَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿...وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة: ٢٠٢)، وَسَأَلَ نَفْسَهُ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ: "كَيْفَ؟ كَيْفَ يَكُونُ حِسَابُ اللهِ سَرِيعًا وَحِسَابُنَا

هَكَذَا مُعَقَّدًا وَبَطِيئًا، يَغْرَقُ فِي الْفَوْضَى وَيَسْتَنْزِفُ الرُّوحَ؟ لَا بُدَّ أَنَّ الْخَلَلَ لَيْسَ فِي الْحِسَابِ نَفْسِهِ، بَلْ فِي الطَّرَائِقِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي نَتَّبِعُهَا، وَالَّتِي تَرْكُنُنَا نَتَخَبَّطُ كَالْعُمْيَانِ فِي ظَلَامٍ".

ثُمَّ تَذَكَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥)، وَقَوْلَهُ: ﴿...وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن: ٢٨). أَحْصَى... عَدَّا... الْحِسَابُ... سَرِيعُ... لَقَدْ أَصْبَحَ الْأَمْرُ وَاضِحًا لَهُ الْآنَ كَالشَّمْسِ الْمُشْرِقَةِ فِي سَمَاءٍ صَافِيَةٍ. إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَتَحَدَّثُ عَنْ مُجَرَّدِ أَرْقَامٍ عَشْوَائِيَّةٍ، بَلْ يَكْشِفُ عَنْ "نِظَامٍ حِسَابِيٍّ" مُتَكَامِلٍ، يَتَّصِفُ بِالسُّرْعَةِ الْفَائِقَةِ، وَالدِّقَّةِ الْمُطْلَقَةِ، وَالشُّمُولِيَّةِ الَّتِي تَغْطِي كُلَّ شَيْءٍ، وَالْيُسْرِ الَّذِي يَجْعَلُ الْحَيَاةَ أَكْثَرَ عَدْلًا.

"إِذًا"، هَمَسَ الْخُوَارِزْمِيُّ لِنَفْسِهِ بِعَزِيمَةٍ تَتَدَفَّقُ كَنَهْرٍ جَارٍ، "مُهِمَّتِي هِيَ اكْتِشَافُ ظِلَالِ هَذَا النِّظَامِ الْإِلَهِيِّ فِي عَالَمِ الْأَرْقَامِ وَالْحِسَابَاتِ. لَا بُدَّ أَنَّ مِفْتَاحَ تِلْكَ اللُّغَةِ الرِّيَاضِيَّةِ الْبَسِيطَةِ وَالْعَادِلَةِ الَّتِي أَبْحَثُ عَنْهَا مَوْجُودٌ فِي أُصُولِ كِتَابِ اللهِ، الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْجَمَالِ وَالْعَدْلِ!".

لَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بِثِقَلِ الْمُهِمَّةِ الَّذِي كَانَ يُثْقِلُ كَاهِلَهُ، بَلْ بِشَرَفِهَا الَّذِي يَرْفَعُ الرُّوحَ إِلَى عُلْيَاءَ. وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي بَغْدَادَ كُلِّهَا – بِمَكْتَبَاتِهَا الْعَامِرَةِ وَعُلَمَائِهَا الْأَفْذَاذِ – مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ هَذَا الْبَابَ الْمَغْلَقَ سِوَى رَجُلٍ

وَاحِدٍ، مُعَلِّمُهُ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ. فَانْطَلَقَ بِخُطًى وَاثِقَةٍ كَخُطَى مَنْ وَجَدَ طَرِيقَهُ، وَقَلْبٍ مُشْتَاقٍ كَعَاشِقٍ يَلْقَى حَبِيبَهُ، نَحْوَ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، قَاصِدًا حَلْقَةَ أُسْتَاذِهِ وَمُعَلِّمِهِ الْإِمَامِ.

الدَّرْسُ ١: نُورٌ مِنَ المَشْرِقِ

التَّخَلُّصُ مِنْ سِجْنِ الكَلِمَاتِ

(المَشْهَدُ: حَلْقَةُ الْإِمَامِ، بَيْنَ الْأَعْمِدَةِ الْعَالِيَةِ وَالْأَفْكَارِ الْمُتَدَفِّقَةِ)

كَانَتْ حَلْقَةُ الْإِمَامِ تَجْتَمِعُ فِي رُكْنٍ هَادِئٍ مِنَ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، حَيْثُ تَنْفُذُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الْمُتَسَلِّلَةُ مِنَ الْمَشَارِبِيَّةِ، تَرْسُمُ أَشْكَالًا ذَهَبِيَّةً عَلَى الْأَرْضِيَّةِ الْمُبَلَّطَةِ بِالْفُسَيْفِسَاءِ الْمُزَخْرَفَةِ. رَائِحَةُ الْبَخُورِ الْعَرَبِيِّ الْخَفِيفَةِ تَمْلَأُ الْمَكَانَ، مُخْتَلِطَةً بِهَمَسِ الصَّفَحَاتِ الْقَدِيمَةِ وَصَوْتِ الْفُوَّارَةِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي تُضْفِي إِيقَاعًا هَادِئًا عَلَى الْجَوِّ. جَلَسَ الْخُوَارِزْمِيُّ فِي وَسَطِ الْحَلْقَةِ، وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ إِرْهَاقُ اللَّيْلِ الْمَاضِي الَّذِي قَضَاهُ يُصَارِعُ أَرْقَامًا مُتَشَابِكَةً، عَيْنَاهُ حَمْرَاوَانِ وَكَأَنَّهُمَا تَحْمِلَانِ وَزْنَ الْفَوْضَى الَّتِي رَآهَا فِي السُّوقِ.

قَالَ بِصَوْتٍ مُثْقَلٍ بِالْيَأْسِ: "يَا سَيِّدِي، لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ كَيْفَ تَغْرَقُ حِسَابَاتُ النَّاسِ فِي الْفَوْضَى الْمُظْلِمَةِ. نَحْنُ نَكْتُبُ الْأَرْقَامَ بِكَلِمَاتٍ طَوِيلَةٍ

مُتَشَابِكَةٍ، أَوْ نُحَوِّلُهَا إِلَى حُرُوفٍ مُبْهَمَةٍ كَالْأَلْغَازِ الْقَدِيمَةِ. كِلَا الطَّرِيقَتَيْنِ صَعْبَةٌ وَبَطِيئَةٌ كَالسَّيْرِ فِي رَمْلٍ مُتَحَرِّكٍ. فَأَيْنَ هُوَ الْيُسْرُ الَّذِي وَعَدَنَا بِهِ الْقُرْآنُ، وَالَّذِي يَجْعَلُ الْحَيَاةَ أَكْثَرَ عَدْلًا وَسُرْعَةً؟".

أَخَذَ الْإِمَامُ حَصَاةً صَغِيرَةً بَيْنَ أَصَابِعِهِ الْمُتَجَعِّدَةِ، وَرَسَمَ عَلَى الْأَرْضِ شَكْلَ تُفَّاحَةٍ بَسِيطًا، مُنْحَنِيًا كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الْأَرْضِ. ثُمَّ كَتَبَ بِجَانِبِهَا كَلِمَةَ "تُفَّاحَةٍ" بِخَطٍّ أَنِيقٍ يَعْكِسُ حِكْمَةَ السِّنِينَ. سَأَلَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ دَعْوَةً لِلتَّأَمُّلِ: "مَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَيْنِ الشَّكْلَيْنِ، يَا أَبْنَائِي؟".

قَالَ يَعْقُوبُ الْمَنْطِقِيُّ، وَهُوَ يُقَلِّبُ كِتَابًا قَدِيمًا بَيْنَ يَدَيْهِ: "الْأَوَّلُ رَسْمٌ مَحْسُوسٌ يُشَاهَدُ بِالْعَيْنِ، وَالثَّانِي رَمْزٌ لُغَوِيٌّ مُجَرَّدٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالْعَقْلِ".

أَحْسَنَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ بِابْتِسَامَةٍ دَافِئَةٍ، وَقَالَ: "أَحْسَنْتَ يَا يَعْقُوبُ. وَلَكِنَّ الرَّمْزَ اللُّغَوِيَّ طَوِيلٌ وَمُعَقَّدٌ كَشَجَرَةٍ مُتَشَابِكَةِ الْأَغْصَانِ. تَخَيَّلْ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَصِفَ 'ثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسَةً وَسَبْعِينَ' تُفَّاحَةً – كَمْ مِنَ الْوَقْتِ وَالْحِبْرِ سَنَحْتَاجُ، وَكَمْ مِنَ الْفَوْضَى سَتَحْدُثُ؟ إِنَّ سِرَّ السُّرْعَةِ وَالْوُضُوحِ يَكْمُنُ فِي الِاخْتِصَارِ، كَالنُّورِ الَّذِي يَخْتَصِرُ الظَّلَامَ بِشُعَاعٍ وَاحِدٍ".

أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْسُمُ رُمُوزًا بَسِيطَةً بِالْحَصَاةِ: "لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ عِنْدَ أَهْلِ

الْهِنْدِ طَرِيقَةً عَجِيبَةً تَفُوقُ الْخَيَالَ. إِنَّهُمْ لَا يَسْتَخْدِمُونَ الْكَلِمَاتِ الطَّوِيلَةَ، بَلْ يَسْتَخْدِمُونَ تِسْعَةَ رُمُوزٍ بَسِيطَةٍ فَقَطْ – ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩ – لِلتَّعْبِيرِ عَنْ أَيِّ رَقْمٍ مَهْمَا كَانَ عَظِيمًا. إِنَّهُمْ يَخْتَصِرُونَ الْكَلِمَاتِ الْمُتَشَابِكَةَ فِي أَشْكَالٍ قَصِيرَةٍ وَاضِحَةٍ كَالْبَلُّورِ، تَجْعَلُ الْحِسَابَ سَرِيعًا كَالْبَرْقِ".

صَاحَ إِسْمَاعِيلُ التَّاجِرُ بِحَمَاسٍ يَكَادُ يَقْفِزُ مِنْ مَكَانِهِ: "هَذَا رَائِعٌ يَا سَيِّدِي! هَذَا سَيُوَفِّرُ عَلَيْنَا نِصْفَ الْوَقْتِ وَيُنْقِذُنَا مِنْ الْفَوْضَى الْيَوْمِيَّةِ!".

وَلَكِنَّ يَعْقُوبَ قَالَ بِتَحَفُّظٍ وَاضِحٍ، وَهُوَ يَرْفَعُ حَاجِبَهُ: "وَلَكِنْ يَا سَيِّدِي، هَذِهِ رُمُوزُ قَوْمٍ آخَرِينَ، غَرِيبَةٌ عَنْ لُغَتِنَا. أَنَتْرُكُ لُغَتَنَا الْعَرَبِيَّةَ، لُغَةَ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ، لِنَتَّبِعَ رُمُوزَ الْهُنُودِ الَّتِي قَدْ تَحْمِلُ أَسْرَارًا غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ؟".

أَجَابَ الْإِمَامُ بِحِكْمَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ هَادِئٍ، وَهُوَ يَنْظُرُ فِي عَيْنَيْ يَعْقُوبَ مُبَاشَرَةً بِنَظْرَةٍ تَخْتَرِقُ الْقَلْبَ: "يَا يَعْقُوبُ، الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، أَنَّى وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا، كَالْغَنِيمَةِ الَّتِي يَجْمَعُهَا الْمُسَافِرُ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ. وَهَلْ نَسِيتَ وَصِيَّةَ جَدِّنَا رَسُولِ اللّٰهِ (ص) حِينَ قَالَ: 'اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ فِي الصِّينِ'؟ وَهُوَ بِالطَّبْعِ لَمْ يَقْصِدْ دِينَنَا الْكَامِلَ الَّذِي أَكْمَلَهُ اللّٰهُ هُنَا فِي أَرْضِ الْعَرَبِ، بَلْ كَانَ يَقْصِدُ عُلُومَ الدُّنْيَا النَّافِعَةَ الَّتِي كَشَفَهَا اللّٰهُ لِعِبَادِهِ أَيْنَمَا كَانُوا، لِيَسْتَفِيدَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا فِي بِنَاءِ حَضَارَتِهِمْ".

أَضَافَ الْإِمَامُ وَقَدْ ازْدَادَ صَوْتُهُ عُمْقًا وَإِيقَاعًا كَأَنَّهُ يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ سَمَاوِيٍّ: "بَلْ تَأَمَّلْ فِي أَصْلِ الْخَلْقَةِ يَا بُنَيَّ، وَاسْأَلْ نَفْسَكَ: لِمَاذَا جَعَلَنَا اللهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ مُخْتَلِفَةً، مُتَنَوِّعَةً فِي الْأَلْوَانِ وَاللُّغَاتِ وَالْخِبْرَاتِ؟ أَلَمْ يَقُلْ فِي كِتَابِهِ الْمُحْكَمِ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الْحُجُرَاتُ: ١٣)

إِنَّ هَذَا التَّعَارُفَ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَبَادُلٍ لِلتَّحِيَّاتِ وَالْأَخْبَارِ السَّطْحِيَّةِ، بَلْ هُوَ تَبَادُلٌ عَمِيقٌ لِلْخِبْرَاتِ وَالْحِكَمِ وَأَدَوَاتِ النَّفْعِ الَّتِي تُعْمِرُ الْأَرْضَ وَتُيَسِّرُ الْحَيَاةَ. فَالصِّينِيُّ يُعَلِّمُنَا صِنَاعَةَ الْوَرَقِ الَّذِي يَحْمِلُ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ، وَالْفَارِسِيُّ يُعَلِّمُنَا فَنَّ الْإِدَارَةِ الَّذِي يُنَظِّمُ دَوْلَتَنَا، وَالْهِنْدِيُّ يُقَدِّمُ لَنَا هَذِهِ الرُّمُوزَ الْعَبْقَرِيَّةَ الَّتِي تُخْرِجُنَا مِنْ سِجْنِ الْكَلِمَاتِ الطَّوِيلَةِ. فَالْعِبْرَةُ لَيْسَتْ فِي عُلُومِ الْبَشَرِ ذَاتِهَا، وَإِنَّمَا فِي اسْتِعْمَالِهَا مَعَ تَقْوَى اللهِ، لِئَلَّا تُصْبِحَ غُرُورًا يُفْسِدُ أَوْ فَسَادًا يَهْدِمُ. أَمَّا الْعِلْمُ مَعَ التَّقْوَى، فَهُوَ نُورٌ يُضِيءُ الدُّرُوبَ وَعِمَارَةٌ تَبْنِي الْحَضَارَةَ".

أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَقَدْ عَادَ صَوْتُهُ إِلَى هُدُوئِهِ الْمُعْتَادِ، وَكَأَنَّهُ يَخْتَتِمُ سِرًّا عَظِيمًا: "نَحْنُ لَا نَأْخُذُ دِينَهُمْ يَا بُنَيَّ، بَلْ نَأْخُذُ أَدَاةً مُفِيدَةً تُوَافِقُ مَبْدَأَ الْيُسْرِ

وَالْبَيَانِ فِي دِينِنَا الَّذِي يَقُولُ:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١٨٥).

مُهِمَّتُكَ يَا مُحَمَّدُ"، قَالَ الْإِمَامُ مُوَجِّهًا كَلَامَهُ لِلْخُوَارِزْمِيِّ بِنَظْرَةٍ تَحْمِلُ أَمَلَ الْأُمَّةِ كُلِّهَا، "أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الرُّمُوزَ الْبَسِيطَةَ، وَتَصْقُلَهَا كَالْجَوْهَرَةِ، وَتَبْنِيَ بِهَا نِظَامًا عَظِيمًا يَخْدُمُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِمْ فِي عَادَاتِهِمْ وَتِجَارَاتِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ الْيَوْمِيَّةِ، لِتَكُونَ شَاهِدًا عَلَى عَظَمَةِ دِينِنَا الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ".

الدَّرْسُ ٢: لُغْزُ العَمُودِ الفَارِغِ وَوَحْيُ الصِّفْرِ

(المَشْهَدُ: حَلْقَةُ الْإِمَامِ بَعْدَ أُسْبُوعٍ، بَيْنَ الظِّلَالِ الْمُتَمَدِّدَةِ وَالْأَفْكَارِ الْمُتَوَهِّجَةِ)

كَانَ أُسْبُوعًا قَدْ مَرَّ كَالْبَرْقِ، وَالْحَلْقَةُ تَجْتَمِعُ مُجَدَّدًا فِي رُكْنِ الْمَسْجِدِ الْهَادِئِ، حَيْثُ تَتَسَلَّلُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنْ خِلَالِ الْمَشَارِبِيَّةِ، تَرْسُمُ أَشْكَالًا ذَهَبِيَّةً عَلَى الْأَرْضِيَّةِ كَأَنَّهَا رُمُوزٌ إِلَهِيَّةٌ تَنْتَظِرُ الْفَكَّ. عَادَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيُّ إِلَى الْحَلْقَةِ، وَوَجْهُهُ يَشِعُّ بِنُورِ الِاكْتِشَافِ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ لَيْلٍ طَوِيلٍ، وَلَوْحُهُ الْمُغْطَى بِأَرْقَامٍ غَرِيبَةٍ يَحْمِلُهُ كَكَنْزٍ ثَمِينٍ.

وَضَعَ اللَّوْحَ أَمَامَ الْجَمِيعِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَتَرَدَّدُ فِيهِ الْفَرَحُ الْمُكْتَشَفُ: "يَا سَيِّدِي، هَذِهِ الرُّمُوزُ الْهِنْدِيَّةُ رَائِعَةٌ بَعْدَ أَنْ جَرَّبْتُهَا! أُنْظُرُوا، بَدَلًا مِنْ كِتَابَةِ 'مِئَتَيْنِ وَأَرْبَعَةٍ وَثَلَاثِينَ' بِكَلِمَاتٍ تَطُولُ كَطَرِيقِ الْحَرِيرِ، أَكْتُبُ الْآنَ ٢٣٤ فَقَطْ! إِنَّهَا سَرِيعَةٌ وَأَنِيقَةٌ كَالرِّيحِ الَّتِي تَحْمِلُ أَخْبَارَ الْمَطَرِ".

ابْتَسَمَ إِسْمَاعِيلُ التَّاجِرُ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِأَمَلِ الرِّبْحِ الْقَرِيبِ: "هَذَا مَا كُنَّا نَحْتَاجُهُ تَمَامًا يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! هَذَا سَيُغَيِّرُ كُلَّ شَيْءٍ فِي السُّوقِ، وَيُنْقِذُنَا مِنْ لَيَالٍ

سَاهِرَةٍ نَحْسِبُ فِيهَا الدَّرَاهِمَ كَالْحَصَى!".

وَلَكِنَّ أَبَا عَبْدِ اللهِ أَضَافَ بِقَلَقٍ يَظْهَرُ فِي تَجْعِيدَةِ جَبِينِهِ: "لَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ ذَلِكَ، حَتَّى اصْطَدَمْتُ بِجَبَلٍ يَحْجُبُ الطَّرِيقَ كُلَّهُ!".

سَأَلَهُ الْإِمَامُ بِهُدُوءٍ يَحْمِلُ دَعْوَةً لِلْكَشْفِ: "وَأَيُّ جَبَلٍ هَذَا يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟ أَخْبِرْنَا لِنَفْتَحَ طَرِيقًا مِنْ خِلَالِهِ".

أَمْسَكَ الْخُوَارِزْمِيُّ قَلَمَهُ وَكَتَبَ بِالْكَلِمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ: "ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسَبْعَةً". ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ الْحَيْرَةَ: "كَيْفَ أَكْتُبُ هَذَا بِالرُّمُوزِ الْجَدِيدَةِ؟ سَأَضَعُ ٣ فِي خَانَةِ الْمِئَاتِ، وَ٧ فِي خَانَةِ الْآحَادِ. وَلَكِنْ... مَاذَا سَأَضَعُ فِي خَانَةِ الْعَشَرَاتِ؟ إِنَّهَا فَارِغَةٌ تَمَامًا كَبِئْرٍ جَافَّةٍ!".

أَكْمَلَ وَهُوَ يَرْسُمُ الْفَرَاغَ بِإِصْبَعِهِ: "إِذَا كَتَبْتُ ٣٧، فَهَذَا يَعْنِي 'سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ' فَقَطْ. وَإِذَا تَرَكْتُ فَرَاغًا بَيْنَهُمَا هَكَذَا ٣ ٧، فَقَدْ يَظُنُّهَا النَّاسُ رَقْمَيْنِ مُنْفَصِلَيْنِ كَجَزِيرَتَيْنِ مُتَبَاعِدَتَيْنِ. إِنَّ النِّظَامَ يَنْهَارُ تَمَامًا عِنْدَمَا يَكُونُ هُنَاكَ 'لَا شَيْءَ' فِي إِحْدَى الْخَانَاتِ، وَيَتَحَوَّلُ إِلَى فَوْضَى تَبْلَعُ الْمَعْنَى!".

وَضَعَ يَعْقُوبُ يَدَهُ عَلَى ذَقْنِهِ وَقَالَ بِجِدِّيَّةٍ تَكَادُ تَكُونُ فَلْسَفِيَّةً: "هَذِهِ بِالْفِعْلِ مُعْضِلَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ عَمِيقَةٌ كَبِئْرٍ بِلَا قَعْرٍ. كَيْفَ يُمْكِنُ لِنِظَامٍ مِنَ الرُّمُوزِ أَنْ يُعَبِّرَ

عَنْ شَيْءٍ غَيْرِ مَوْجُودٍ أَصْلًا؟ إِنَّهُ تَنَاقُضٌ يَهْزُّ أَسَاسَ الْمَنْطِقِ نَفْسِهِ!".

صَاحَ إِسْمَاعِيلُ بِإِحْبَاطٍ يَكَادُ يَبْكِي: "إِذًا، لَا فَائِدَةَ مِنْهَا أَصْلًا! لَقَدْ عُدْنَا مُجَدَّدًا إِلَى الْمِعْدَادِ الْخَشَبِيِّ الْقَدِيمِ! فَهُوَ عَلَى الْأَقَلِّ يَمْلِكُ أَعْمِدَةً فَارِغَةً يُمْكِنُ رُؤْيَتُهَا، وَلَا يَخْدَعُنَا بِفَرَاغٍ خَفِيٍّ!".

سَادَ الصَّمْتُ عَلَى الْحَلْقَةِ كَغَيْمَةٍ ثَقِيلَةٍ، وَشَعَرَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِأَنَّ حُلُمَهُ يَتَبَخَّرُ كَدُخَانِ الْبَخُورِ الَّذِي يَمْلَأُ الْمَكَانَ. هُنَا، تَدَخَّلَ الْإِمَامُ بِصَوْتٍ هَادِئٍ وَعَمِيقٍ كَأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ أَعْمَاقِ الْأَرْضِ، وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِنُورِ الْوَحْيِ: "الْمُشْكِلَةُ لَيْسَتْ فِي النِّظَامِ يَا أَبْنَائِي، بَلْ فِي فَهْمِنَا لِمَعْنَى 'اللَّا شَيْءِ' الَّذِي يَخَافُهُ الْعَقْلُ وَيَحْتَاجُهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ".

نَظَرَ إِلَيْهِمْ بِابْتِسَامَةٍ تَفِيضُ حِكْمَةً، وَأَكْمَلَ: "أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى الْخَانَةِ الْفَارِغَةِ عَلَى أَنَّهَا 'عَدَمٌ' سَلْبِيٌّ يُخِيفُ، وَلِهَذَا تَخَافُونَ مِنْهَا كَمِنْ ظِلٍّ فِي لَيْلٍ دَامِسٍ. وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يُعَلِّمُنَا أَنَّ لِـ'لَا شَيْءٍ' قِيمَةً وَمَعْنًى عَظِيمًا يَفُوقُ الْخَيَالَ. أَلَمْ يَقُلِ اللهُ تَعَالَى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ (الْإِنْسَانُ: ١) وَ

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطُّورُ: ٣٥)

فَقَبْلَ وُجُودِنَا، كُنَّا 'لَا شَيْءَ'، وَهَذِهِ الْحَالَةُ هِيَ الْمَرْجِعُ الَّذِي نَفْهَمُ بِهِ قِيمَةَ الْوُجُودِ وَجَمَالَهُ".

ضَرَبَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ عَقْلَ الْخُوَارِزْمِيِّ كَالصَّاعِقَةِ الَّتِي تُضِيءُ الظَّلَامَ، فَفَهِمَ فِكْرَةً عَمِيقَةً تَفُوقُ الْأَرْقَامَ: إِنَّ "الْعَدَمَ" أَوْ "اللَّا شَيْءَ" لَيْسَ مُجَرَّدَ فَرَاغٍ يُخِيفُ، بَلْ هُوَ حَالَةٌ لَهَا وُجُودٌ مَفْهُومِيٌّ وَأَهَمِّيَّةٌ قُصْوَى، فَالْخَلْقُ كُلُّهُ انْبَثَقَ مِنْهَا كَزَهْرَةٍ تَنْبُتُ مِنْ تُرَابٍ جَافٍّ.

ثُمَّ أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ قَلِيلًا كَأَنَّهُ يَكْشِفُ كَنْزًا مَدْفُونًا: "وَكَذَلِكَ الْأَرْقَامُ يَا أَبْنَائِي. لَقَدْ أَخْبَرَنِي تَاجِرٌ هِنْدِيٌّ أَنَّ عُلَمَاءَهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ رَمْزًا عَلَى شَكْلِ دَائِرَةٍ صَغِيرَةٍ (٠) لِيَمْلَؤُوا بِهِ الْفَرَاغَ، وَيُسَمُّونَهُ 'شُونْيَا' أَيْ الْفَرَاغَ أَوْ اللَّا شَيْءَ. وَعِنْدَنَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، نَحْنُ لَا نَقُولُ 'فَرَاغٌ' فَحَسْبُ، بَلْ نَقُولُ 'صِفْرٌ'، كَمَا فِي 'بَيْتٌ صِفْرٌ' أَيْ بَيْتٌ خَالٍ، أَوْ 'إِنَاءٌ صِفْرٌ' أَيْ إِنَاءٌ فَارِغٌ. فَلِمَاذَا لَا نُعْطِي لِهَذَا 'الصِّفْرِ' رَمْزًا وَقِيمَةً يَسْتَحِقُّهَا، لِيَكُونَ الْحَارِسَ الْأَمِينَ لِلْخَانَاتِ؟".

أَمْسَكَ الْإِمَامُ قَلَمًا وَكَتَبَ عَلَى اللَّوْحِ: ٣ ٧. ثُمَّ قَالَ: "هَذَا هُوَ مَأْزِقُكُمْ، يَا أَبْنَائِي، الْفَرَاغُ الَّذِي يُخِيفُ وَيُفْسِدُ. أَمَّا الْآنَ، فَسَأَضَعُ بَيْنَهُمَا رَمْزَ الصِّفْرِ

(٠)". وَكَتَبَ بِيَدٍ ثَابِتَةٍ: ٣٠٧.

"انْظُرُوا الْآنَ!"، قَالَ الْإِمَامُ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِنُورِ الْكَشْفِ الْعَظِيمِ. "هَذَا الصِّفْرُ بِنَفْسِهِ لَا قِيمَةَ لَهُ، إِنَّهُ 'لَا شَيْءٌ' يَقِفُ وَحْدَهُ. وَلَكِنْ، انْظُرُوا إِلَى الْقُوَّةِ الَّتِي أَعْطَاهَا لِجِيرَانِهِ كَالْجَيْشِ الَّذِي يَحْمِي الْمَلِكَ! لِأَنَّهُ مَوْجُودٌ هُنَا، أَصْبَحَتِ الثَّلَاثَةُ فِي خَانَةِ الْمِئَاتِ (ثَلَاثَ مِائَةٍ)، وَبَقِيَتِ السَّبْعَةُ فِي خَانَةِ الْآحَادِ دُونَ اضْطِرَابٍ. إِنَّهُ 'لَا شَيْءٌ' يَحْفَظُ قِيمَةَ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَجْعَلُ النِّظَامَ كَامِلًا كَالْكَوْنِ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ مِنَ الْعَدَمِ!".

كَانَتِ اللَّحْظَةُ أَشْبَهَ بِوَحْيٍ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، فَصَاحَ الْخُوَارِزْمِيُّ وَهُوَ يَقْفِزُ مِنْ مَكَانِهِ: "اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهُ الْبَطَلُ الْمَجْهُولُ فِي عَالَمِ الْأَرْقَامِ، الْحَارِسُ الَّذِي يَحْمِي الْخَانَاتِ وَيَجْعَلُ الْفَرَاغَ قُوَّةً!".

هَمَسَ يَعْقُوبُ وَهُوَ يَحُكُّ ذَقْنَهُ بِتَأَمُّلٍ: "إِنَّهَا فَلْسَفَةٌ كَامِلَةٌ تَفُوقُ الْمَنْطِقَ الْيُونَانِيَّ! كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْعَدَمِ أَنْ يَكُونَ سَبَبَ النِّظَامِ وَالْقُوَّةِ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ؟ إِنَّهُ تَنَاقُضٌ يَحْمِلُ حِكْمَةً إِلَهِيَّةً".

أَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَضَحِكَ بِصَوْتٍ عَالٍ يَمْلَأُ الْمَكَانَ، وَهُوَ يَصْفِقُ بِيَدَيْهِ: "الْآنَ فَقَطْ، اكْتَمَلَ النِّظَامُ وَأَصْبَحَ سَيْفًا فِي يَدِي! الْآنَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْتُبَ أَيَّ

رَقْمٍ فِي الْعَالَمِ بِلَا خَوْفٍ مِنَ الْفَوْضَى، وَأَحْسِبَ الصَّفْقَاتِ بِسُرْعَةِ الرِّيحِ!".

بِإِضَافَةِ الصِّفْرِ، لَمْ يَعُدِ النِّظَامُ نَاقِصًا كَشَجَرَةٍ بِلَا جُذُورٍ. لَقَدْ وُلِدَتْ لُغَةٌ رِيَاضِيَّةٌ كَامِلَةٌ، بِعَشَرَةِ رُمُوزٍ فَقَطْ (٠، ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩)، يُمْكِنُهَا أَنْ تَصِفَ أَيَّ عَدَدٍ مَهْمَا كَبُرَ أَوْ صَغُرَ، بِسُهُولَةٍ تَجْعَلُ الْحَيَاةَ أَكْثَرَ يُسْرًا، وَدِقَّةٍ تُشْبِهُ الْعَدْلَ الْإِلَهِيَّ، وَجَمَالٍ يَفُوقُ الْوَصْفَ كَالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ بَيَانًا لِلْعَالَمِينَ.

البَابُ الثَّانِي: بُزُوغُ الْحِسَابِ الْمَنْهَجِيِّ (الخُوَارِزْمِيَّاتِ)

اِبْتِكَارُ عَمَلِيَّاتِ الحِسَابِ

تَمْهِيدٌ

الْآنَ وَقَدِ اكْتَمَلَتِ الْأَدَوَاتُ الْعَشْرَةُ السَّاحِرَةُ (مِنَ الصِّفْرِ إِلَى التِّسْعَةِ)، حَانَ الْوَقْتُ لِبِنَاءِ "الْمُحَرِّكِ" الَّذِي سَيُحَرِّكُهَا وَيُحَوِّلُهَا مِنْ رُمُوزٍ سَاكِنَةٍ إِلَى قُوَّةٍ تُغَيِّرُ الْعَالَمَ. سَنُفَصِّلُ الْآنَ فِي هَذَا الدَّرْسِ الْأَهَمِّ كَيْفِيَّةَ وِلَادَةِ عَمَلِيَّاتِ الْحِسَابِ (الْخُوَارِزْمِيَّاتِ) الَّتِي نَسْتَخْدِمُهَا جَمِيعًا الْيَوْمَ، وَالَّتِي كَانَتْ بَذْرَةً فِي عَقْلِ وَاحِدٍ لِتُثْمِرَ حَضَارَةً بِأَكْمَلِهَا.

(المَشْهَدُ: وَرْشَةُ عَمَلٍ فِي حَلْقَةِ الْإِمَامِ، بَيْنَ الْأَلْوَاحِ الْمُغْبَرَّةِ وَالْأَعْيُنِ الْمُتَوَقِّدَةِ)

كَانَ أُسْبُوعًا قَدْ مَرَّ كَالْعَاصِفَةِ، وَالْحَلْقَةُ تَجْتَمِعُ مُجَدَّدًا فِي رُكْنِ الْمَسْجِدِ الْهَادِئِ، وَلَكِنَّ الْجَوَّ الْيَوْمَ يَغْلِي بِحَمَاسَةِ الِانْتِظَارِ كَقِدْرٍ تَغْلِي عَلَى نَارٍ هَادِئَةٍ. أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الْمُتَأَخِّرَةِ تَنْفُذُ مِنَ الْمَشَارِبِيَّةِ، تُلْقِي ظِلَالًا طَوِيلَةً عَلَى

الْأَلْوَاحِ الْمُغْطَاةِ بِأَرْقَامٍ غَرِيبَةٍ وَرُمُوزٍ تَلْمَعُ كَالْجَوَاهِرِ. الْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الْحِبْرِ الْجَدِيدِ وَالْوَرَقِ الْمُبَلَّلِ، وَالطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَقَارِبَةٍ، أَعْيُنُهُمْ تَلْمَعُ بِشَوْقِ الْمُغَامِرِينَ الَّذِينَ يَقْتَرِبُونَ مِنْ كَنْزٍ مَدْفُونٍ.

دَخَلَ إِسْمَاعِيلُ التَّاجِرُ بِخُطًى سَرِيعَةٍ، وَجْهُهُ يَعْكِسُ لَيَالِيَ سَاهِرَةً قَضَاهَا يَحْسِبُ صَفْقَاتِهِ بِالرُّمُوزِ الْجَدِيدَةِ، وَقَالَ بِفَارِغِ الصَّبْرِ الَّذِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ: "يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَقَدْ أَصْبَحَتْ لَدَيْنَا الْآنَ أَدَوَاتٌ كَامِلَةٌ، عَشَرَةُ رُمُوزٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصِفَ أَيَّ عَدَدٍ مَهْمَا كَبُرَ أَوْ صَغُرَ! وَلَكِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يُؤَرِّقُنِي: كَيْفَ سَنَسْتَخْدِمُهَا فِي الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ؟ كَيْفَ سَنَجْمَعُ وَنَطْرَحُ وَنَضْرِبُ بِهَا أَرْقَامًا كَبِيرَةً بِسُهُولَةٍ دُونَ أَنْ نَغْرَقَ فِي الْفَوْضَى؟".

تَدَخَّلَ يَعْقُوبُ الْمَنْطِقِيُّ بِصَوْتٍ هَادِئٍ وَلَكِنَّهُ حَادٌّ كَسَيْفٍ: "إِنَّ الْأَهَمَّ يَا إِسْمَاعِيلُ هُوَ أَنْ تَكُونَ الطَّرِيقَةُ مَنْطِقِيَّةً وَلَهَا قَوَاعِدُ ثَابِتَةٌ كَالْقَوَانِينِ الْكَوْنِيَّةِ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ حِيَلٍ وَاخْتِصَارَاتٍ عَشْوَائِيَّةٍ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ الْمُحَاسِبِينَ الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى الْحَدْسِ دُونَ أَسَاسٍ".

هُنَا تَدَخَّلَ الْإِمَامُ بِابْتِسَامَةٍ تَفِيضُ حِكْمَةً، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا كَأَبٍ يَجْمَعُ أَبْنَاءَهُ: "لَقَدْ لَخَّصْتُمَا الْأَمْرَ بِدِقَّةٍ يَا أَبْنَائِي. نَحْنُ نُرِيدُ طَرِيقَةً تَجْمَعُ بَيْنَ الْيُسْرِ الَّذِي يَطْلُبُهُ إِسْمَاعِيلُ لِحَيَاتِهِ الْعَمَلِيَّةِ، وَالْمَنْطِقِ الَّذِي يَنْشُدُهُ يَعْقُوبُ لِيَكُونَ ثَابِتًا

كَالْجِبَالِ. وَهَذَا هُوَ دَرْسُنَا الْيَوْمَ. يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، إِنَّ الْقُرْآنَ يُعَلِّمُنَا مَبْدَأَ التَّفْصِيلِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ، كَالْبِنَاءِ الَّذِي يَبْدَأُ بِخَطَّةٍ عَامَّةٍ ثُمَّ يَتَفَصَّلُ إِلَى آجُرَّةً آجُرَّةً. فَهُوَ يَأْمُرُنَا بِأَمْرٍ عَامٍّ كَـ ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ثُمَّ تَأْتِي السُّنَّةُ لِتُفَصِّلَ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى خُطُوَاتٍ وَاضِحَةٍ: رُكُوعٌ وَسُجُودٌ وَقِرَاءَةٌ وَتَسْبِيحٌ. مُهِمَّتُكَ الْآنَ هِيَ أَنْ تُفَصِّلَ لَنَا عَمَلِيَّاتِ الْحِسَابِ الْكُبْرَى إِلَى خُطُوَاتٍ صَغِيرَةٍ وَبَسِيطَةٍ يُمْكِنُ لِأَيِّ شَخْصٍ أَنْ يَتَّبِعَهَا كَطَرِيقٍ مُضِيءٍ".

اِبْتِكَارُ عَمَلِيَّاتِ الْحِسَابِ - سِرُّ الْأَعْمِدَةِ وَالْخُطُوَاتِ الْمُتَسَلْسِلَةِ

أَمْسَكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لَوْحَهُ بِيَدَيْنِ مُتَرَدِّدَتَيْنِ أَوَّلَ الْأَمْرِ، ثُمَّ اِزْدَادَ ثِقَةً كَأَنَّ وَحْيًا يَنْزِلُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: "الْمُشْكِلَةُ فِي الطُّرُقِ الْقَدِيمَةِ هِيَ أَنَّنَا كُنَّا نُحَاوِلُ أَنْ نَجْمَعَ الرَّقْمَ كُلَّهُ دُفْعَةً وَاحِدَةً كَمَنْ يَحْمِلُ جَبَلًا عَلَى كَتِفِهِ. وَلَكِنْ، مَاذَا لَوْ فَكَّكْنَا الْأَرْقَامَ إِلَى خَانَاتِهَا كَفَكِّ الْغُصْنِ إِلَى أَوْرَاقِهِ؟ آحَادٌ وَعَشَرَاتٌ وَمِئَاتٌ – كُلُّ وَاحِدَةٍ قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ يَسْهُلُ الْعَمَلُ عَلَيْهَا؟".

(رَاجِعْ المُلْحَقُ الأَوَّلُ: الْأَدِلَّةُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى ثَوْرَةِ الْحِسَابِ)

الدَّرْسُ ٣: خُوَارِزْمِيَّةُ الْجَمْعِ

(المَشْهَدُ: وَرْشَةُ العَمَلِ فِي حَلْقَةِ الإِمَامِ، بَيْنَ الْأَلْوَاحِ الْمُغْبَرَّةِ وَالأَنْفَاسِ الْمُتَرَقِّبَةِ)

كَانَ الْجَوُّ يَغْلِي بِالتَّوَقُّعِ، وَالطَّلَبَةُ يَنْتَظِرُونَ وَجْهَ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيِّ كَمَنْ يَنْتَظِرُ بُزُوغَ الْفَجْرِ بَعْدَ لَيْلٍ طَوِيلٍ. جَلَسَ الْجَمِيعُ فِي دَائِرَةٍ مُتَقَارِبَةٍ، وَأَمَامَهُمْ أَلْوَاحٌ تَغْبَرُّ بِآثَارِ الأَرْقَامِ وَالمُحَاوَلَاتِ، كَأَنَّهَا سَاحَةُ مَعْرَكَةٍ طَوِيلَةٍ مَعَ الْفَوْضَى.

تَقَدَّمَ إِسْمَاعِيلُ التَّاجِرُ بِوَجْهٍ مُتَعَبٍ وَعَيْنَيْنِ تَحْتَرِقَانِ بِالشَّكْوَى، وَوَضَعَ أَمَامَ الْحَلْقَةِ لَوْحًا كَبِيرًا مُمْتَلِئًا بِالْحِسَابَاتِ: جُمَلٌ طَوِيلَةٌ مُرْهِقَةٌ كَتَفَافَةِ الرِّمَالِ، تَتَشَابَكُ فِيهَا الأَرْقَامُ وَتَتَخَبَّطُ كَالْجَنُودِ فِي سَاحَةٍ بِلَا قَائِدٍ.

صَاحَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ غُصَّةَ العَجْزِ:

"يَا سَيِّدِي، لَقَدْ قَضَيْتُ لَيْلًا طَوِيلًا أُحَاوِلُ جَمْعَ هَذِهِ الأَرْقَامِ الْمُبَاعَدَةِ، وَكُلَّمَا بَلَغْتُ آخِرَهَا، ضَاعَ مِنِّي أَوَّلُهَا! إِنَّهُ كَمَنْ يَسِيرُ فِي صَحْرَاءَ بِلَا مَعَالِمَ، يَتُوهُ

فِي كُلِّ خُطْوَةٍ وَيَعُودُ مِنْ حَيْثُ بَدَأَ".

هَزَّ يَعْقُوبُ الْمَنْطِقِيُّ رَأْسَهُ بِتَأَمُّلٍ، وَقَالَ:

"إِنَّ الطَّرِيقَةَ الْقَدِيمَةَ فِي الْجَمْعِ تَفْتَقِرُ إِلَى نِظَامٍ مَنْهَجِيٍّ، فَهِيَ تُشْبِهُ مَنْ يُرِيدُ بِنَاءَ قَصْرٍ بِأَحْجَارٍ مُتَنَاثِرَةٍ بِلَا مِيزَانٍ أَوْ خُطَّةٍ. لَا بُدَّ مِنْ قَوَاعِدَ ثَابِتَةٍ تُرَتِّبُ الْعَمَلَ كَالنُّجُومِ الَّتِي تَهْدِي السَّائِرَ فِي الظَّلَامِ".

فَالتَفَتَ الْجَمِيعُ إِلَى الْخُوَارِزْمِيِّ، وَقُلُوبُهُمْ تَنْتَظِرُ جَوَابًا يَنْقُذُهُمْ مِنْ حَيْرَتِهِمْ. أَخَذَ أَبُو عَبْدِ اللهِ نَفَسًا عَمِيقًا، ثُمَّ رَسَمَ عَلَى لَوْحِهِ مَسْأَلَةً تَبْدُو بَسِيطَةً وَلَكِنَّهَا كَانَتْ بَذْرَةَ ثَوْرَةٍ:

١٣٥ + ٤٨٢

ثُمَّ تَوَقَّفَ لَحْظَةً، وَنَظَرَ فِي وُجُوهِهِمْ، ثُمَّ فَعَلَ أَمْرًا بَدَا صَغِيرًا وَلَكِنَّهُ كَانَ عَظِيمًا: كَتَبَهَا عَمُودِيًّا، وَرَتَّبَ الآحَادَ تَحْتَ الآحَادِ، وَالْعَشَرَاتِ تَحْتَ الْعَشَرَاتِ، وَالْمِئَاتِ تَحْتَ الْمِئَاتِ، كَمَنْ يَبْنِي جِسْرًا مُحْكَمًا مِنْ أَحْجَارٍ مُتَسَاوِيَةٍ:

١٣٥

٤٨٢+

"الآنَ"، قَالَ وَهُوَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِحَمَاسٍ يَتَزَايَدُ كَالنَّارِ الَّتِي تَجِدُ الْحَطَبَ،

"لَمْ تَعُدِ الْمَسْأَلَةُ كَجَبَلٍ يُرْهِقُنَا حَمْلُهُ! إِنَّهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ صَغِيرَةٍ يَسْهُلُ عَلَيْنَا التَّعَامُلُ مَعَهَا كَلُعْبَةِ أَطْفَالٍ:

عَمُودُ الآحَادِ: ٥ + ٢ = ٧ (نَكْتُبُ ٧ أَسْفَلَ الْخَطِّ).

عَمُودُ العَشَرَاتِ: ٣ + ٨ = ١١ (نَكْتُبُ ١ وَنَحْمِلُ الْوَاحِدَ إِلَى الْمِئَاتِ).

عَمُودُ المِئَاتِ: ١ + ٤ + ١ = ٦ (نَكْتُبُ ٦ أَسْفَلَ الْخَطِّ).

إِذَنْ النَّاتِجُ هُوَ: ٦١٧".

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، شَعَرَ الْجَمِيعُ أَنَّهُمْ شَاهِدُوا مِيلَادَ مَنْهَجٍ جَدِيدٍ،

فَصَاحَ إِسْمَاعِيلُ مُتَحَمِّسًا:

"يَا لَلْعَجَبِ! لَقَدْ كَانَ الْجَمْعُ يَسْتَنْزِفُ أَيَّامَنَا وَيُضَيِّعُ تِجَارَتَنَا، فَإِذَا بِكَ تُحَوِّلُهُ إِلَى طَرِيقٍ وَاضِحٍ كَشُعَاعِ نُورٍ! هَذَا سَيُنْقِذُنِي فِي السُّوقِ وَيَجْعَلُنِي أَغْنَى التُّجَّارِ!".

وَأَمَّا يَعْقُوبُ فَجَلَسَ مُتَفَكِّرًا كَمَنْ يُحَلِّلُ مَبَادِئَ الْكَوْنِ، وَقَالَ:

"إِنَّهُ مَنْهَجٌ مَنْطِقِيٌّ جَبَّارٌ. لَقَدْ جَعَلْتَ الْكَبِيرَ صَغِيرًا، وَفَكَّكْتَ الْمُعَقَّدَ إِلَى بَسِيطٍ. إِنَّهَا فَلْسَفَةٌ عَمَلِيَّةٌ تُضَاهِي مَنْطِقَ الْقُرْآنِ حِينَ يُجْمِلُ ثُمَّ يُفَصِّلُ".

حِينَئِذٍ تَدَخَّلَ الإِمَامُ، وَوَجْهُهُ يُشِعُّ فَخْرًا وَمَحَبَّةً، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ التَّارِيخِ:

"يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ النَّافِعِ، الَّذِي يُيَسِّرُ عَلَى النَّاسِ أَعْمَالَهُمْ، وَيُقَرِّبُ الْعَدْلَ مِنْ حَيَاتِهِمْ. وَتَكْرِيمًا لِهَذَا الْفَتْحِ، وَحِفْظًا لِاسْمِكَ فِي تَارِيخِ الْمَعْرِفَةِ، فَإِنَّنِي أُطْلِقُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ اسْمَ: الخُوَارِزْمِيَّةُ، نِسْبَةً إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ بْنَ مُوسَى".

فَكَانَتْ تِلْكَ اللَّحْظَةُ فَجْرًا جَدِيدًا فِي الْعِلْمِ، وُلِدَتْ فِيهَا كَلِمَةٌ سَتَغْدُو

عَلَمًا يُضِيءُ الدُّنْيَا، كَبَذْرَةٍ نَمَتْ لِتُصْبِحَ شَجَرَةً وَارِفَةَ الظِّلِّ تُثْمِرُ عَلَى مَرِّ الأَزْمَانِ.

الدَّرْسُ ٤: خُوَارِزْمِيَّةُ الطَّرْحِ

مَفَاهِيمُ النَّقْصِ وَالِاسْتِلَافِ

تَمْهِيدٌ

بَعْدَ أَنْ أَضَاءَ الصِّفْرُ الطَّرِيقَ وَأَكْمَلَ النِّظَامَ، وَبَعْدَ أَنْ وُلِدَتْ خُوَارِزْمِيَّةُ الْجَمْعِ كَشَمْسٍ تُطِلُّ عَلَى عَالَمٍ جَدِيدٍ، جَاءَ الْوَقْتُ لِلْغَوْصِ فِي ظِلَالِ النَّقْصِ وَأَسْرَارِ الْفَقْدِ. فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ زِيَادَةً دَائِمًا، بَلْ نُقْصَانٌ يَعْلِّمُ وَيُطَهِّرُ، وَالطَّرْحُ هُوَ الْمِفْتَاحُ الَّذِي يَكْشِفُ مَنْطِقَهُ وَيُظْهِرُ سِرَّ التَّكَافُلِ بَيْنَ الْأَعْمِدَةِ كَمَا بَيْنَ الْبَشَرِ.

(الْمَشْهَدُ: تَوَابِعُ اكْتِشَافِ الْجَمْعِ، بَيْنَ الْأَلْوَاحِ الْمُغْبَرَّةِ وَالْأَعْيُنِ الْمُتَوَقِّدَةِ)

كَانَ الْيَوْمُ التَّالِي لِكُشُوفِ الْجَمْعِ يَحْمِلُ نَسِيمًا بَارِدًا يَدْخُلُ مِنْ شُقُوقِ الْأَبْوَابِ، يُهَدِّئُ مِنْ حَرَارَةِ الْحَمَاسِ الَّذِي مَا زَالَ يَغْلِي فِي قُلُوبِ الطَّلَبَةِ. اجْتَمَعُوا فِي رُكْنِ الْمَسْجِدِ، وَالأَلْوَاحُ أَمَامَهُمْ مُمْتَلِئَةٌ بِخُطُوطٍ وَأَرْقَامٍ تُشْهِدُ عَلَى لَيْلَةٍ سَاهِرَةٍ جَرَّبُوا فِيهَا الْجَمْعَ الْجَدِيدَ.

إِسْمَاعِيلُ يَجْلِسُ وَيَدَاهُ تَرْتَعِشَانِ مِنَ الْإِثَارَةِ، وَيَعْقُوبُ يُقَلِّبُ كِتَابَهُ الْفَلْسَفِيَّ بِتَأَمُّلٍ، وَفَتًى صَغِيرٌ عَلَى الطَّرَفِ يُحَاوِلُ الطَّرْحَ فَيَخْطِئُ ثُمَّ يَحْمَرُّ وَجْهُهُ. الْإِمَامُ يُرَاقِبُ الْمَشْهَدَ كَمُرَبٍّ يَنْتَظِرُ أَنْ تَتَفَتَّحَ الزُّهُورُ فِي أَوَانِهَا.

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ كَغَيْمَةٍ مُثْقَلَةٍ بِالْمَطَرِ:

"هَذَا عَظِيمٌ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ لِحِسَابِ مَا نَمْلِكُهُ وَنَزِيدُهُ، وَلَكِنَّ التِّجَارَةَ لَيْسَتْ دَائِمًا رِبْحًا وَجَمْعًا يَمْلَأُ الصُّنْدُوقَ. أَكْثَرُ مَا يُؤَرِّقُنِي وَيُسْهِرُنِي هُوَ حِسَابُ النَّقْصِ: الْمَصْرُوفَاتُ الَّتِي تَأْكُلُ الْمَالَ، وَالدُّيُونُ الَّتِي تَثْقُلُ الْكَاهِلَ، وَالْخَسَائِرُ الَّتِي تُفْرِغُ الْجُيُوبَ. فَهَلْ لِلطَّرْحِ خُوَارِزْمِيَّةٌ بَسِيطَةٌ كَهَذِهِ، تُخْرِجُنَا مِنْ ظَلَامِ الْفَقْدِ إِلَى نُورِ الْوُضُوحِ؟".

أَضَافَ يَعْقُوبُ بِنَظْرَتِهِ الْفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي تَغُوصُ كَغَوَّاصٍ فِي بَحْرِ الْأَفْكَارِ:

"سُؤَالٌ وَجِيهٌ يَا إِسْمَاعِيلُ، يَمَسُّ جَوْهَرَ الْوُجُودِ نَفْسِهِ. فَالْجَمْعُ هُوَ مَنْطِقُ الزِّيَادَةِ وَالْوُجُودِ الَّذِي يَمْلَأُ الْكَوْنَ، أَمَّا الطَّرْحُ فَهُوَ مَنْطِقُ النُّقْصَانِ وَالْفَقْدِ الَّذِي يُذَكِّرُنَا بِفَنَاءِ الدُّنْيَا. هَلْ هُوَ مُجَرَّدُ عَمَلِيَّةٍ مُعَاكِسَةٍ لِلْجَمْعِ، أَمْ أَنَّ لَهُ قَوَانِينَ خَاصَّةً تَكْشِفُ أَسْرَارَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ؟".

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ حِكْمَةً كَبِئْرٍ عَذْبَةٍ: "لِكُلِّ

شَيْءٍ فِي خَلْقِ اللهِ مِيزَانٌ يَعْكِسُ الْحَقِيقَةَ. وَكَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ يُحَدِّثُنَا عَنِ الزِّيَادَةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي تَمْلَأُ الْقُلُوبَ، فَهُوَ يُحَدِّثُنَا أَيْضًا عَنِ النَّقْصِ وَالِابْتِلَاءِ الَّذِي يُطَهِّرُهَا.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١٥٥).

فَالنَّقْصُ جُزْءٌ أَصِيلٌ مِنْ نِظَامِ الْوُجُودِ، يُعَلِّمُ الصَّبْرَ وَيَكْشِفُ الْقُوَّةَ الْخَفِيَّةَ، وَلَا بُدَّ لِلْعِلْمِ أَنْ يَجِدَ طَرِيقَةً لِحِسَابِهِ وَفَهْمِهِ كَمَا يَفْهَمُ الزِّيَادَةَ. تَفَكَّرْ فِي الْأَمْرِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَأَخْرِجْ لَنَا خُوَارِزْمِيَّةً تُنِيرُ ظَلَامَ النَّقْصِ".

اِبْتِكَارُ خُوَارِزْمِيَّةِ الطَّرْحِ - سِرُّ "الِاسْتِلَافِ" وَمَفْهُومُ التَّكَافُلِ

أَمْسَكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لَوْحَهُ بِيَدَيْنِ مُتَوَتِّرَتَيْنِ أَوَّلَ الْأَمْرِ، ثُمَّ اِسْتَرْخَى كَأَنَّ وَحْيًا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَاقِ الْفِكْرِ، وَقَالَ: "سَنَسْتَخْدِمُ نَفْسَ سِرِّ الْأَعْمِدَةِ الَّذِي أَنْقَذَنَا فِي الْجَمْعِ، لِأَنَّ الطَّرْحَ هُوَ ظِلُّ الْجَمْعِ، وَلَهُ قُوَّتُهُ الْخَاصَّةُ". وَكَتَبَ مَسْأَلَةً بَسِيطَةً لِلْبِدَايَةِ: ٦٥٨ - ١٢٣.

٦٥٨

١٢٣ -

"الْأَمْرُ سَهْلٌ هُنَا كَالسَّيْرِ فِي طَرِيقٍ مُسْتَوٍ"، قَالَ وَهُوَ يَرْسُمُ الْخَطَّ الْأُفُقِيَّ كَحَاجِزٍ بَيْنَ الْعُلْوِ وَالسُّفْلِ. "نَطْرَحُ كُلَّ عَمُودٍ عَلَى حِدَةٍ، بِدَايَةً مِنَ الْيَمِينِ كَعَادَتِنَا":

- عَمُودُ الْآحَادِ: ٨ - ٣ = ٥ (نَكْتُبُهُ أَسْفَلَ الْخَطِّ كَبِذْرَةٍ تَنْبُتُ).

- عَمُودُ الْعَشَرَاتِ: ٥ - ٢ = ٣ (نَكْتُبُهُ وَهُوَ يَتَمَاسَكُ).

- عَمُودُ الْمِئَاتِ: ٦ - ١ = ٥ (نَكْتُبُهُ كَقِمَّةٍ تَكْمُلُ الْبِنَاءَ).

"النَّاتِجُ هُوَ ٥٣٥!"، قَالَ بِابْتِسَامَةٍ تَعْكِسُ يُسْرَ الْأَمْرِ.

وَلَكِنَّ يَعْقُوبَ قَاطَعَهُ بِذَكَاءٍ يَكَادُ يَقْطَعُ الصَّمْتَ كَسَيْفٍ: "وَمَاذَا لَوْ كَانَ الرَّقْمُ الْأَعْلَى أَصْغَرَ مِنَ الْأَسْفَلِ فِي أَحَدِ الْأَعْمِدَةِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟ مَاذَا لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَطْرَحَ ١٤٧ مِنْ ٣٢٥؟ كَيْفَ سَتَطْرَحُ ٧ مِنْ ٥ دُونَ أَنْ يَنْهَارَ الْمَنْطِقُ كُلُّهُ؟".

كَانَ هَذَا التَّحَدِّيَ الْحَقِيقِيَّ، اللُّغْزَ الَّذِي يَخْتَبِرُ الْعَقْلَ وَيَكْشِفُ أَسْرَارَهُ. صَمَتَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لِلَحْظَةٍ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْمَسْأَلَةِ كَأَنَّهُ يَرَى جَبَلًا يَحْجُبُ الطَّرِيقَ:

٣٢٥

١٤٧ -

"كَيْفَ نَأْخُذُ سَبْعَةً مِنْ خَمْسَةٍ؟..."، هَمَسَ لِنَفْسِهِ وَالْحَيْرَةُ تَعْلُو وَجْهَهُ كَغَيْمَةٍ عَابِرَةٍ. ثُمَّ لَمَعَتْ عَيْنَاهُ فَجْأَةً كَشَمْسٍ تَخْرُجُ مِنْ وَرَاءِ السَّحَابِ، وَكَأَنَّ وَحْيًا إِلَهِيًّا أَضَاءَ الطَّرِيقَ: "لَا نَسْتَطِيعُ... إِلَّا إِذَا اسْتَعَنَّا بِالْجَارِ الْأَقْوَى وَالْأَكْرَمِ! الْعَمُودُ الْفَقِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعَدَةِ الْغَنِيِّ، كَمَا فِي الْحَيَاةِ نَفْسِهَا".

شَرَحَ الْخُطُوَاتِ بِصَوْتٍ يَتَزَايَدُ حَمَاسًا كَالنَّهْرِ الَّذِي يَتَّسِعُ:

1. عَمُودُ الْآحَادِ: لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَطْرَحَ ٧ مِنْ ٥، فَهُوَ نَقْصٌ يَفُوقُ الْمَوْجُودَ. نَسْتَلِفُ ١ مِنْ خَانَةِ الْعَشَرَاتِ (فَتُصْبِحُ ٢ فِي الْعَشَرَاتِ ١ فَقَطْ، كَأَنَّهَا

أَعْطَتْ مِنْ غِنَاهَا). هَذَا الْوَاحِدُ يُصْبِحُ ١٠ فِي خَانَةِ الْآحَادِ كَهَدِيَّةٍ تُغْنِي الْفَقِيرَ. نُضِيفُهُ إِلَى اله، فَتُصْبِحُ ١٥. الْآنَ: ١٥ - ٧ = ٨ (نَكْتُبُهُ كَتَمَرَةِ التَّكَافُلِ).

2. عَمُودُ الْعَشَرَاتِ: لَمْ تَعُدِ الْقِيمَةُ ٢، بَلْ أَصْبَحَتْ ١ بَعْدَ الِاسْتِلَافِ. وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَطْرَحَ ٤ مِنْ ١، فَهُوَ نَقْصٌ يُهَدِّدُ الْبِنَاءَ. إِذًا، نَسْتَلِفُ ١ مِنْ خَانَةِ الْمِئَاتِ (فَتُصْبِحُ ٣ فِي الْمِئَاتِ ٢ فَقَطْ، كَأَنَّهَا ضَحَّتْ لِأَجْلِ الْجَارِ). هَذَا الْوَاحِدُ يُصْبِحُ ١٠ فِي خَانَةِ الْعَشَرَاتِ. نُضِيفُهُ إِلَى الا، فَتُصْبِحُ ١١. الْآنَ: ١١ - ٤ = ٧.

3. عَمُودُ الْمِئَاتِ: لَمْ تَعُدِ الْقِيمَةُ ٣، بَلْ أَصْبَحَتْ ٢ بَعْدَ الِاسْتِلَافِ. الْآنَ: ٢ - ١ = ١ (نَكْتُبُهُ كَقِمَّةِ الْبِنَاءِ الْمُتَّزِنِ).

"النَّاتِجُ النِّهَائِيُّ هُوَ ١٧٨!"، قَالَ وَهُوَ يَرْفَعُ اللَّوْحَ كَفَاتِحٍ يَعْلُو عَلَمُهُ.

الخَاتِمَةُ

نَظَرَ الْجَمِيعُ بِانْبِهَارٍ يَفُوقُ الْوَصْفَ، فَلَقَدْ كَانَتْ فِكْرَةُ "الِاسْتِلَافِ" الْمِفْتَاحَ السِّحْرِيَّ الَّذِي فَتَحَ أَبْوَابَ الطَّرْحِ وَجَعَلَهُ سَهْلًا كَالنَّسِيمِ الْعَابِرِ.

صَاحَ إِسْمَاعِيلُ مُبْتَهِجًا: "إِنَّهَا سَحْرٌ! الطَّرْحُ أَصْبَحَ سَهْلًا كَالْجَمْعِ!"

وَبَكَى الْفَتَى الصَّغِيرُ مِنَ الْفَرَحِ وَقَالَ: "الآنَ فَهِمْتُ النَّقْصَ، إِنَّهُ تَعَاوُنٌ

خَفِيٌّ بَيْنَ الْأَعْمِدَةِ".

فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ:

"سُبْحَانَ اللهِ! هَكَذَا يَعِيشُ النَّاسُ أَيْضًا. يَسْتَعِينُ الضَّعِيفُ بِالْقَوِيِّ، وَيُعِينُ الْغَنِيُّ الْفَقِيرَ. وَكَمَا قَالَ رَبُّنَا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢). فَالطَّرْحُ مَدْرَسَةٌ فِي التَّكَافُلِ، وَلَيْسَ نِهَايَةً لِلْعَدَدِ، بَلْ بَدَايَةٌ لِرَحْمَةٍ تَسْرِي فِي الْمَعَادِلَةِ كَمَا تَسْرِي فِي الْحَيَاةِ".

الدَّرْسُ ٥: خُوَارِزْمِيَّتَا الضَّرْبِ وَالقِسْمَةِ

فَنُّ تَفْكِيكِ الْمُعَقَّدِ وَتَوْزِيعِ الْعَدْلِ

تَمْهِيدٌ

بَعْدَ أَنْ أَضَاءَ الصِّفْرُ الْفَرَاغَ وَأَكْمَلَ النِّظَامَ، وَبَعْدَ أَنْ وُلِدَتْ خُوَارِزْمِيَّاتُ الْجَمْعِ وَالطَّرْحِ كَأَنَّهَا أَنْهَارٌ تَجْرِي فِي وَادٍ خَصِيبٍ، حَانَ الْوَقْتُ لِلْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِ الْمُعَقَّدِ وَكَشْفِ أَسْرَارِ الضَّرْبِ وَالْقِسْمَةِ – الْعَمَلِيَّتَيْنِ الَّتِي تُشَكِّلَانِ قَلْبَ الْحِسَابِ، وَتُحَوِّلَانِ الْفَوْضَى إِلَى عَدْلٍ وَتَوَازُنٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ،

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦٠)

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٨)

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ (القمر: ٢٨)

فَالضَّرْبُ كَانْفِجَارِ الْمَاءِ بِأَمْرِ اللَّهِ يُخْرِجُ الْحَيَاةَ وَالطَّاقَةَ، وَالْقِسْمَةُ كَجَرَيَانِ الْأَنْهَارِ وَتَوْزِيعِ الْمَاءِ وَالرِّزْقِ، كَمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ، بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: 8)

(المَشْهَدُ: الْتَّحَدِّي الْأَكْبَرُ، بَيْنَ الْأَلْوَاحِ الْمُكْدَسَةِ وَالْقُلُوبِ الْمُتَحَمِّسَةِ)

كَانَ الْجَوُّ فِي الْحَلْقَةِ يَغْلِي كَقِدْرٍ عَلَى نَارٍ هَائِجَةٍ، وَالطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَقَارِبَةٍ كَأَنَّهُمْ جُنُودٌ يَسْتَعِدُّونَ لِمَعْرَكَةٍ فِكْرِيَّةٍ. أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الْمُتَأَخِّرَةِ تَنْفُذُ مِنْ خِلَالِ الْمَشَارِبِيَّةِ، تُلْقِي ظِلَالًا طَوِيلَةً عَلَى الْأَلْوَاحِ الْمُغْطَاةِ بِأَرْقَامٍ وَخُطُوَاتٍ تَشْهَدُ عَلَى لَيَالٍ سَاهِرَةٍ. يَعْقُوبُ يَجْلِسُ مُتَكَئًا عَلَى كِتَابِهِ الْفَلْسَفِيِّ، وَإِسْمَاعِيلُ يُقَلِّبُ دِفْتَرَ حِسَابَاتِهِ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْإِثَارَةِ، وَالْإِمَامُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا كَبِئْرٍ عَذْبَةٍ فِي صَحْرَاءَ جَافَّةٍ.

قَالَ يَعْقُوبُ بِصَوْتٍ حَادٍّ يَقْطَعُ الصَّمْتَ كَسَيْفٍ: "لَقَدْ أَبْهَرْتَنَا يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ فِي الْجَمْعِ وَالطَّرْحِ، وَلَكِنَّ الْكَارِثَةَ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي عَجَزَتْ عَنْهَا الطُّرُقُ الْقَدِيمَةُ وَأَرَّقَتْنَا لَيَالِيَ طَوِيلَةً هِيَ الضَّرْبُ وَالْقِسْمَةُ، خُصُوصًا بَيْنَ الْأَرْقَامِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَبْدُو كَجِبَالٍ شَاهِقَةٍ لَا تُقْهَرُ".

أَيَّدَهُ إِسْمَاعِيلُ بِقُوَّةٍ وَهُوَ يَضْرِبُ اللَّوْحَ بِيَدِهِ: "صَدَقَ يَعْقُوبُ! أَنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَ نِصْفَ النَّهَارِ فِي حِسَابِ ثَمَنِ صَفْقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَخْرُجُ مِنْهَا مُنْهَكًا كَمَنْ حَارَبَ وَحْشًا! فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْكَ خُوَارِزْمِيَّةٌ لِهَذَا، فَسَنَبْقَى أَسْرَى الْفَوْضَى إِلَى الْأَبَدِ!".

نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ بِعَيْنَيْنِ تَحْمِلَانِ تَحَدِّيًا وَثِقَةً، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ عُمْقَ الْبِحَارِ: "لَا تَخَفْ مِنَ الْجَبَلِ الشَّاهِقِ يَا بُنَيَّ، بَلْ ابْحَثْ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي يُفَكِّكُهُ إِلَى تِلَالٍ صَغِيرَةٍ يَسْهُلُ صُعُودُهَا. تَذَكَّرْ دَائِمًا مَبْدَأَ التَّفْصِيلِ الَّذِي يُعَلِّمُنَا إِيَّاهُ الْقُرْآنُ:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ١٢).

"فَالْمُعَقَّدُ يَصْبَحُ بَسِيطًا إِذَا فُكِّكَ بِالْمَنْهَجِ إِلَى أَجْزَاءٍ تَعُودُ فَتُكَوِّنَ كُلًّا مُتَّسِقًا، كَمَا يَفْعَلُ الْبَنَّاءُ إِذَا جَعَلَ الْجَبَلَ حِجَارَةً لِيَبْنِيَ مِنْهَا قَصْرًا. أَمَّا التَّفْكِيكُ الْمَذْمُومُ فَهُوَ مَا حَكَى اللهُ عَنْ أَعْدَاءِ الْوَحْيِ:

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر: 90–91)،

إِذْ جَعَلُوا الْقُرْآنَ أَجْزَاءً مُتَفَرِّقَةً، يُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، أَوْ

يَصِفُونَهُ بِأَوْصَافٍ مُتَنَاقِضَةٍ".

اِبْتِكَارُ خُوَارِزْمِيَّةِ الضَّرْبِ - سِرُّ الشَّبَكَةِ الْمُفَصَّلَةِ

أَخَذَ أَبُو عَبْدِ اللهِ اللَّوْحَ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْإِثَارَةِ، وَكَتَبَ مَسْأَلَةً بَسِيطَةً وَلَكِنَّهَا كَانَتْ بَوَّابَةً لِلْعَظَمَةِ: ٢٤ × ٣٥. "بَدَلًا مِنْ أَنْ نَضْرِبَ الرَّقْمَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ كَكُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ ثَقِيلَةٍ تُثْقِلُ الْعَقْلَ، لِمَاذَا لَا نُفَكِّكُهُمَا وَنَضْرِبُ أَجْزَاءَهُمَا الصَّغِيرَةَ كَمَنْ يَقْطَعُ جَبَلًا إِلَى حَصَى يَسْهُلُ حَمْلُهُ؟"، قَالَ وَهُوَ يَرْسُمُ شَبَكَةً بَسِيطَةً تُشْبِهُ خَرِيطَةً لِكَنْزٍ مَدْفُونٍ، وَبَدَأَ بِتَفْصِيلِ عَمَلِيَّةِ الضَّرْبِ الْكَبِيرَةِ إِلَى أَرْبَعِ عَمَلِيَّاتٍ بَسِيطَةٍ جِدًّا تَجْعَلُ الْعَقْلَ يَطِيرُ:

- ٤ × ٥ = ٢٠ (الْآحَادُ تَضْرِبُ الْآحَادَ كَصَدِيقَيْنِ يَتَعَانَقَانِ).

- ٤ × ٣٠ = ١٢٠ (الْآحَادُ تَضْرِبُ الْعَشَرَاتِ، وَتَزْدَادُ قُوَّةً).

- ٢٠ × ٥ = ١٠٠ (الْعَشَرَاتُ تَضْرِبُ الْآحَادَ، وَتَبْنِي جِدَارًا).

- ٢٠ × ٣٠ = ٦٠٠ (الْعَشَرَاتُ تَضْرِبُ الْعَشَرَاتِ، وَتُكْمِلُ الْقِمَّةَ).

"وَالْآنَ، نَجْمَعُ النَّوَاتِجَ الصَّغِيرَةَ بِالْخُوَارِزْمِيَّةِ الَّتِي نَعْرِفُهَا وَنُحِبُّهَا!"، قَالَ وَهُوَ يَرْتَبُهَا عَلَى اللَّوْحِ كَأَنَّهُ يَبْنِي قَصْرًا مِنْ أَرْقَامٍ:

٢٠

١٢٠

١٠٠

٦٠٠ +

٨٤٠

"النَّاتِجُ هُوَ ٨٤٠!"، صَاحَ وَهُوَ يَرْفَعُ اللَّوْحَ كَفَاتِحٍ يَعْلُو عَلَمَهُ، وَالْفَرَحُ يَمْلَأُ وَجْهَهُ كَنُورِ شَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ عَاصِفَةٍ.

وعقَّب الإمامُ: "وَكَأَنَّ كُلَّ ضَرْبٍ هُوَ تَزَاوُجٌ بَيْنَ جُزْئِيَّتَيْنِ يُنْتِجُ وَلَدًا جَدِيدًا مِنَ الْأَرْقَامِ، يَنْضَمُّ إِلَى الْبِنَاءِ الْكُلِّيِّ فَيُكْمِلُهُ كَمَا يُكْمِلُ اللَّبِنُ الْجِدَارَ".

اِبْتِكَارُ خُوَارِزْمِيَّةِ الْقِسْمَةِ - سِرُّ التَّوْزِيعِ الْعَادِلِ

بُهِتَ إِسْمَاعِيلُ وَيَعْقُوبُ مِنْ سُهُولَةِ خُوَارِزْمِيَّةِ الضَّرْبِ الَّتِي حَوَّلَتْ الْجَبَلَ إِلَى رَمْلٍ نَاعِمٍ، وَقَالَ يَعْقُوبُ بِتَقْدِيرٍ يَفُوقُ الْكَلِمَاتِ: "إِنَّ هَذَا لَمَنْطِقٌ بَدِيعٌ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! لَقَدْ حَوَّلْتَ الْمُشْكِلَةَ الْكَبِيرَةَ إِلَى مَجْمُوعَةِ مَشَاكِلَ صَغِيرَةٍ تَذُوبُ كَالثَّلْجِ تَحْتَ الشَّمْسِ".

ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ بِفَخْرٍ أَبَوِيٍّ: "لَقَدْ أَصَبْتَ قَلْبَ الْمَنْهَجِ يَا بُنَيَّ، وَالْآنَ بَقِيَتِ الْقِمَّةُ الْأَخِيرَةُ، وَهِيَ أَدَقُّهَا وَأَصْعَبُهَا كَصُعُودِ الْجَبَلِ الْأَخِيرِ: الْقِسْمَةُ، فَهِيَ فَنُّ التَّوْزِيعِ الْعَادِلِ الَّذِي يَجْعَلُ الْمَالَ يَصِلُ إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ دُونَ ظُلْمٍ".

أَضَافَ إِسْمَاعِيلُ بِقَلَقٍ يَعْكِسُ لَيَالِيَهُ الْمُضْطَرِبَةَ: "وَهِيَ أَكْثَرُ مَا نَحْتَاجُهُ فِي السُّوقِ وَالْمَوَارِيثِ، حَيْثُ يَتَعَلَّقُ بِهَا عَدْلُ النَّاسِ وَسَعَادَتُهُمْ! كَيْفَ نُقَسِّمُ مَبْلَغًا كَبِيرًا عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ بِالْعَدْلِ دُونَ أَنْ نَقْضِيَ أَيَّامًا فِي الْحِسَابِ الَّذِي يَأْكُلُ الْوَقْتَ وَيُثِيرُ الْخِصَامَ؟".

أَخَذَ أَبُو عَبْدِ اللهِ نَفَسًا عَمِيقًا كَأَنَّهُ يَسْتَجْمِعُ قُوَاهُ لِمَعْرَكَةٍ فِكْرِيَّةٍ، وَقَالَ: "لِنَفْعَلْ مَا فَعَلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ: لِنُفَكِّرْ فِي جَوْهَرِ الْمَسْأَلَةِ كَمَنْ يَغُوصُ فِي بِئْرٍ لِيَجِدَ

الْمَاءَ الْعَذْبَ. مَا هِيَ الْقِسْمَةُ فِي حَقِيقَتِهَا؟" صَمَتَ لِلَحْظَةٍ تَبْنِي التَّوَتُّرَ، ثُمَّ أَكْمَلَ بِصَوْتٍ يَتَزَايَدُ قُوَّةً: "إِنَّهَا فِي أَصْلِهَا طَرْحٌ مُتَكَرِّرٌ يَبْحَثُ عَنِ الْعَدْلِ. فَعِنْدَمَا نَسْأَلُ: 'مَا نَاتِجُ قِسْمَةِ عِشْرِينَ دِينَارًا عَلَى أَرْبَعَةِ رِجَالٍ؟'، فَكَأَنَّنَا نَسْأَلُ: 'كَمْ مَرَّةً نَسْتَطِيعُ أَنْ نَطْرَحَ أَرْبَعَةً مِنْ عِشْرِينَ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْمَالُ بِعَدْلٍ؟'. الْجَوَابُ خَمْسُ مَرَّاتٍ، وَهَذَا هُوَ نَاتِجُ الْقِسْمَةِ الَّذِي يُرْضِي الْقُلُوبَ!".

"وَلَكِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ بَطِيئَةٌ مَعَ الْأَرْقَامِ الْكَبِيرَةِ كَسَيْرِ سَلْحَفَاةٍ فِي صَحْرَاءَ"، قَالَ يَعْقُوبُ وَهُوَ يَحُكُّ ذَقْنَهُ بِتَأَمُّلٍ.

"صَحِيحٌ يَا يَعْقُوبُ"، أَجَابَ أَبُو عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَبْتَسِمُ بِثِقَةٍ، "وَلِذَلِكَ، عَلَيْنَا أَنْ نَبْتَكِرَ طَرِيقَةً (خُوَارِزْمِيَّةً) تُسَرِّعُ هَذَا الطَّرْحَ الْمُتَكَرِّرَ كَالرِّيحِ الَّتِي تَحْمِلُ السَّحَابَ". ثُمَّ كَتَبَ عَلَى اللَّوْحِ مَسْأَلَةً كَبِيرَةً تُشْبِهُ صَفْقَةً تِجَارِيَّةً حَقِيقِيَّةً: "لَدَيْنَا ٨٤٥ دِينَارًا نُرِيدُ تَوْزِيعَهَا بِالْعَدْلِ عَلَى ٥ رِجَالٍ. كَمْ نَصِيبُ كُلِّ وَاحِدٍ؟" وَكَتَبَهَا بِالشَّكْلِ الْجَدِيدِ لِلْقِسْمَةِ الطَّوِيلَةِ، كَأَنَّهُ يَرْسُمُ خَرِيطَةً لِرِحْلَةٍ مُثْمِرَةٍ.

قَالَ وَهُوَ يَشْرَحُ بِبُطْءٍ يَبْنِي التَّوَتُّرَ وَالْفَهْمَ: "لَنْ نُحَاوِلَ أَنْ نُقَسِّمَ الرَّقَمَ كُلَّهُ مَرَّةً وَاحِدَةً كَمَنْ يَحْمِلُ جَبَلًا عَلَى كَتِفِهِ. سَنَتَعَامَلُ مَعَهُ خَانَةً خَانَةً، مِنَ الْيَسَارِ إِلَى الْيَمِينِ، مِنَ الْقِيمَةِ الْأَكْبَرِ إِلَى الْأَصْغَرِ كَمَنْ يَصْعَدُ سُلَّمًا دَرَجَةً دَرَجَةً. إِنَّهَا دَوْرَةٌ مِنَ الْخُطُوَاتِ نُكَرِّرُهَا بِعَدْلٍ وَدِقَّةٍ":

الْخُطْوَةُ الْأُولَى: عَمُودُ الْمِئَاتِ "نَبْدَأُ بِأَكْبَرِ خَانَةٍ، وَهِيَ الْمِئَاتُ. لَدَيْنَا ٨ مِئَاتٍ كَكَنْزٍ يَنْتَظِرُ التَّوْزِيعَ. كَمْ ٥ يُمْكِنُ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ ٨؟ يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْخُذَ وَاحِدَةً فَقَطْ، وَنَتْرُكُ الْبَاقِيَ لِلْخُطْوَةِ التَّالِيَةِ".

- ١. قَسِّمْ: ٨ ÷ ٥ = ١ (وَيَتَبَقَّى شَيْءٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَوْزِيعٍ). نَكْتُبُ ١ فِي الْأَعْلَى كَبِدَايَةِ الْعَدْلِ.

- ٢. اِضْرِبْ: ١ × ٥ = ٥. نَكْتُبُ ٥ تَحْتَ الـ٨ كَحِصَّةٍ أُولَى.

- ٣. اِطْرَحْ: ٨ - ٥ = ٣. يَتَبَقَّى لَدَيْنَا ٣ مِئَاتٍ كَبَاقِيَةِ الْمَالِ الَّتِي تَنْتَظِرُ دَوْرَهَا.

الْخُطْوَةُ الثَّانِيَةُ: عَمُودُ الْعَشَرَاتِ "الْآنَ، لَدَيْنَا ٣ مِئَاتٍ مُتَبَقِّيَةٌ كَكَنْزٍ مَخْفِيٍّ، وَلَدَيْنَا ٤ عَشَرَاتٍ فِي الرَّقْمِ الْأَصْلِيِّ. نُنْزِلُ الـ٤ بِجَانِبِ الـ٣، فَيُصْبِحُ لَدَيْنَا ٣٤ عَشَرَةً كَأَنَّهَا مَالٌ مُجْتَمِعٌ يَنْتَظِرُ التَّوْزِيعَ".

- ٤. أَنْزِلْ وَكَرِّرْ: لَدَيْنَا الْآنَ ٣٤ كَبَحْرٍ صَغِيرٍ. كَمْ ٥ يُمْكِنُ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ ٣٤؟ بَعْدَ تَجْرِبَةٍ بَسِيطَةٍ تَكْشِفُ الْأَقْرَبَ، نَجِدُ أَنَّ أَقْرَبَ شَيْءٍ هُوَ ٦ كَأَنَّهُ عَدْلٌ مُتَوَازِنٌ.

- ١. قَسِّمْ: ٣٤ ÷ ٥ = ٦. نَكْتُبُ ٦ فِي الْأَعْلَى بِجَانِبِ الْوَاحِدِ كَخُطْوَةٍ تَقْرُبُنَا مِنَ الْهَدَفِ.

- ٢. اِضْرِبْ: ٦ × ٥ = ٣٠. نَكْتُبُ ٣٠ تَحْتَ الـ٣٤ كَحِصَّةٍ مُسْتَحَقَّةٍ.

- ٣. اِطْرَحْ: ٣٤ - ٣٠ = ٤. يَتَبَقَّى لَدَيْنَا ٤ عَشَرَاتٍ كَبَاقِيَةِ عَدْلٍ تَنْتَظِرُ دَوْرَهَا.

الْخُطْوَةُ الثَّالِثَةُ: عَمُودُ الْآحَادِ "الْآنَ، لَدَيْنَا ٤ عَشَرَاتٍ مُتَبَقِّيَةٌ كَأَمَلٍ أَخِيرٍ، وَلَدَيْنَا ٥ آحَادٍ فِي الرَّقْمِ الْأَصْلِيِّ. نُنْزِلُ الـ٥ بِجَانِبِ الـ٤، فَيُصْبِحُ لَدَيْنَا ٤٥ كَكَنْزٍ أَخِيرٍ يَنْتَظِرُ التَّوْزِيعَ الْكَامِلَ".

- ٤. أَنْزِلْ وَكَرِّرْ: لَدَيْنَا الْآنَ ٤٥ كَبَحْرٍ يَمْلَأُ الْأَمَلَ. كَمْ ٥ يُمْكِنُ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ ٤٥؟ الْجَوَابُ هُوَ ٩ بِالضَّبْطِ كَأَنَّهُ عَدْلٌ مُطْلَقٌ.

- ١. قَسِّمْ: ٤٥ ÷ ٥ = ٩. نَكْتُبُ ٩ فِي الْأَعْلَى بِجَانِبِ السِّتَّةِ كَخَاتِمَةِ الْعَدْلِ.

- ٢. اِضْرِبْ: ٩ × ٥ = ٤٥. نَكْتُبُ ٤٥ تَحْتَ الـ٤٥ كَحِصَّةٍ كَامِلَةٍ.

- ٣. اِطْرَحْ: ٤٥ - ٤٥ = ٠. لَمْ يَتَبَقَّ شَيْءٌ كَأَنَّ الْعَدْلَ قَدْ اكْتَمَلَ!

نَظَرَ أَبُو عَبْدِ اللهِ إِلَى الرَّقْمِ الْمَكْتُوبِ فِي الْأَعْلَى وَقَالَ بِثِقَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ جَارٍ: "إِذًا، نَصِيبُ كُلِّ رَجُلٍ هُوَ ١٦٩ دِينَارًا بِالضَّبْطِ، دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ يُثِيرُ الْخِصَامَ!".

خَاتِمَةُ الْمَشْهَدِ: الْعَوْدَةُ إِلَى السُّوقِ وَانْتِصَارُ النِّظَامِ

بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، وَقَدْ أَتْقَنَ أَبُو عَبْدِ اللهِ خُوَارِزْمِيَّاتِهِ الْأَرْبَعَ كَأَنَّهَا أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ دَمِهِ، عَادَ إِلَى خَانِ صَدِيقِهِ إِسْمَاعِيلَ فِي سُوقِ الْوَرَّاقِينَ الَّذِي كَانَ بِدَايَةَ الرِّحْلَةِ. أَخَذَ مِنْهُ حِسَابَاتِ صَفْقَةِ الْحَرِيرِ الْمُعَقَّدَةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ إِحْبَاطِهِمْ، وَعَلَى لَوْحٍ وَاحِدٍ، بِخُطُوَاتٍ قَلِيلَةٍ وَسَرِيعَةٍ كَالْبَرْقِ، وَصَلَ إِلَى النَّاتِجِ النِّهَائِيِّ الدَّقِيقِ دُونَ أَيِّ تَرَدُّدٍ أَوْ خَطَأٍ.

فَتَحَ إِسْمَاعِيلُ فَمَهُ مِنْ شِدَّةِ الذُّهُولِ وَكَأَنَّهُ رَأَى سِحْرًا يَتَحَقَّقُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَصَاحَ بِصَوْتٍ يَرْتَجُّ الْخَانُ: "هَذَا لَيْسَ حِسَابًا يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، هَذَا سِحْرٌ أَبْيَضُ يُنْقِذُ التُّجَّارَ مِنَ الْجَحِيمِ!".

فَرَدَّ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِابْتِسَامَةٍ مُتَوَاضِعَةٍ تَعْكِسُ إِيمَانَهُ الْعَمِيقَ: "بَلْ هُوَ الْعِلْمُ حِينَ يَتَّبِعُ سُنَّةَ اللهِ فِي الْيُسْرِ وَالْبَيَانِ، يَا صَدِيقِي. إِنَّهُ لَيْسَ سِحْرًا، بَلْ نُورٌ مِنْ نُورِ الْقُرْآنِ الَّذِي يُضِيءُ دُرُوبَنَا وَيَجْعَلُ الْحَيَاةَ أَكْثَرَ عَدْلًا وَجَمَالًا".

ثُمَّ خَتَمَ الإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا: "هَكَذَا يَا بَنِيَّ، لَيْسَتِ الْقِسْمَةُ فِي الْحِسَابِ فَقَطْ، بَلْ هِيَ أَسَاسُ الْعَدْلِ فِي الْحَيَاةِ. فَمَنْ تَعَلَّمَ أَنْ يُقَسِّمَ الْعَدَدَ بِالْحَقِّ، سَهُلَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَسِّمَ الْمَالَ وَالزَّمَنَ وَالْمَحَبَّةَ بِالْحَقِّ أَيْضًا."

الدَّرْسُ ٦: ثَوْرَةُ الحِسَابِ الهَادِئَةِ

كَيْفَ غَيَّرَتِ الخُوَارِزْمِيَّاتُ وَجْهَ العَالَمِ

تَمْهِيدٌ

بَعْدَ أَنْ أَضَاءَتِ الْخُوَارِزْمِيَّاتُ دُرُوبَ الْحِسَابِ وَأَكْمَلَتْ النِّظَامَ، حَانَ الْوَقْتُ لِلْغَوْصِ فِي ثَمَارِهَا الَّتِي غَيَّرَتْ وَجْهَ الْعَالَمِ بِهُدُوءٍ يُشْبِهُ نَسِيمَ الصَّبَاحِ الَّذِي يُحَرِّكُ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ دُونَ صَوْتٍ. سَنَشْهَدُ كَيْفَ انْتَشَرَتْ هَذِهِ الثَّوْرَةُ الْهَادِئَةُ فِي السُّوقِ وَالْمَحْكَمَةِ وَالْمَرْصَدِ، وَكَيْفَ أَثْمَرَتْ عَدْلًا وَعِلْمًا وَحَضَارَةً تَفُوقُ الْخَيَالَ.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النَّبأ: ١١).

(اللَّقْطَةُ الْأُولَى: فِي سُوقِ بَغْدَادَ - خَانُ إِسْمَاعِيلَ، بَيْنَ الْقُمَاشِ وَالْأَرْقَامِ الْمُتَدَفِّقَةِ)

مَرَّتْ سَنَوَاتٌ قَلِيلَةٌ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، وَلَمْ يَعُدْ خَانُ إِسْمَاعِيلَ ذَلِكَ الدُّكَّانَ الصَّغِيرَ الْمُتَوَاضِعَ الَّذِي كَانَ يَغْرَقُ فِي الْفَوْضَى وَالْعَرَقِ. لَقَدِ اتَّسَعَ كَأَنَّهُ

نَهْرٌ يَتَّسِعُ بَعْدَ مَطَرٍ غَزِيرٍ، وَازْدَهَرَ بِفَضْلِ الْأَرْقَامِ الْجَدِيدَةِ وَالْخُوَارِزْمِيَّاتِ الَّتِي أَصْبَحَتْ سِرَّ نَجَاحِهِ، وَأَصْبَحَ مَقْصِدًا لِكِبَارِ التُّجَّارِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَحَدَبٍ، يَأْتُونَ يَطْلُبُونَ لَيْسَ الْقُمَاشَ فَحَسْبُ، بَلْ الْعِلْمَ الَّذِي يَجْعَلُ الصَّفْقَاتِ تَجْرِي كَالْمَاءِ السَّائِلِ. رَائِحَةُ الْحَرِيرِ الصِّينِيِّ تَخْتَلِطُ بِرَائِحَةِ الْحِبْرِ الْجَدِيدِ عَلَى الْأَلْوَاحِ، وَالضَّجِيجُ الْخَارِجِيُّ يَتَحَوَّلُ دَاخِلَ الْخَانِ إِلَى هَمَسِ أَقْلَامٍ تَحْسِبُ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ.

كَانَ إِسْمَاعِيلُ يُعَلِّمُ صَبِيًّا يَافِعًا ذَا عَيْنَيْنِ وَاسِعَتَيْنِ طَرِيقَتَهُ الْجَدِيدَةَ فِي الْحِسَابِ، وَهُوَ يَرْسُمُ عَلَى لَوْحٍ كَبِيرٍ مَصْقُولٍ كَأَنَّهُ مِرْآةٌ تَعْكِسُ الْعَدْلَ. قَالَ لَهُ بِصَوْتٍ دَافِئٍ يَحْمِلُ فَخْرَ الْمُعَلِّمِ: "اُنْظُرْ يَا بُنَيَّ، لَا تَخَفْ مِنَ الْأَرْقَامِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَبْدُو كَجِبَالٍ شَاهِقَةٍ. ضَعِ الْآحَادَ تَحْتَ الْآحَادِ، وَالْعَشَرَاتَ تَحْتَ الْعَشَرَاتِ، وَالْمِئَاتَ تَحْتَ الْمِئَاتِ... هَكَذَا، بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ (الْخُوَارِزْمِيَّةِ)، يُصْبِحُ الْحِسَابُ سَهْلًا وَسَرِيعًا كَالرِّيحِ الَّتِي تَحْمِلُ أَخْبَارَ الْمَطَرِ، وَيَصِيرُ الْعَدْلُ فِي يَدِكَ كَسَيْفٍ حَادٍّ".

كَانَ أَحَدُ التُّجَّارِ الْقَادِمِينَ مِنْ فَارِسَ، ذُو لِحْيَةٍ بَيْضَاءَ وَعَيْنَيْنِ حَادَّتَيْنِ، يَنْظُرُ بِذُهُولٍ وَهُوَ يَرَى إِسْمَاعِيلَ يُنْهِي حِسَابَاتِ قَافِلَةٍ كَامِلَةٍ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَسْتَغْرِقُهُ مُحَاسِبُهُ الْفَارِسِيُّ لِتَرْتِيبِ خَرَزَاتِ مِعْدَادِهِ الْقَدِيمِ. قَالَ التَّاجِرُ وَصَوْتُهُ يَحْمِلُ إِعْجَابًا يَفُوقُ الْكَلِمَاتِ: "إِنَّكُمْ فِي بَغْدَادَ تَحْسِبُونَ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ وَدِقَّةِ

السَّيْفِ! أَيْنَ تَعَلَّمْتُمْ هَذَا السِّحْرَ الَّذِي يَجْعَلُ الْأَرْقَامَ تَطِيعُكُمْ كَالْعَبِيدِ؟".

فَرَدَّ إِسْمَاعِيلُ بِفَخْرٍ يَمْلَأُ قَلْبَهُ كَالنَّهْرِ الَّذِي يَفِيضُ بَعْدَ مَطَرٍ: "هَذَا لَيْسَ سِحْرًا يَا سَيِّدِي، هَذَا عِلْمٌ جَدِيدٌ وُلِدَ هُنَا فِي بَغْدَادَ، اسْمُهُ عِلْمُ الْجَبْرِ وَالْحِسَابِ، وَهُوَ ثَمَرَةُ عَقْلِ صَدِيقِي الْخُوَارِزْمِيِّ وَإِلْهَامِ إِمَامِنَا الْحَكِيمِ. إِنَّهُ يَجْعَلُ الصَّفْقَاتِ تَجْرِي كَالْمَاءِ، وَالْأَرْبَاحَ تَزْدَادُ كَالْغَيْثِ!".

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦٠).

(اللَّقْطَةُ الثَّانِيَةُ: فِي دِيوَانِ الْقَاضِي - مِيزَانُ الْعَدْلِ، بَيْنَ الْأَرْمَلَةِ وَالْأَيْتَامِ)

فِي دِيوَانِ الْقَاضِي الْمُزْدَحِمِ بِالْأَصْوَاتِ الْمُتَدَاخِلَةِ وَرَائِحَةِ الْعُودِ الْمُتَصَاعِدَةِ مِنْ مَبْخَرَةٍ قَدِيمَةٍ، كَانَتْ أَمَامَ الْقَاضِي أَرْمَلَةٌ فَقِيرَةٌ تَحْمِلُ أَيْتَامَهَا الثَّلَاثَةَ كَأَنَّهُمْ أَغْصَانٌ يَابِسَةٌ فِي عَاصِفَةٍ، وَمَعَهُمْ أَقَارِبُهُمْ الْأَثْرِيَاءُ ذَوِي اللِّحَى الْمُرَتَّبَةِ وَالْعُيُونِ الْحَادَّةِ، وَقَدِ احْتَدَمَ النِّزَاعُ حَوْلَ مِيرَاثٍ مُعَقَّدٍ يَشْمَلُ أَرَاضِيَ وَأَمْوَالًا وَدُيُونًا قَدِيمَةً. فِي الْمَاضِي، كَانَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ تَسْتَغْرِقُ أَسَابِيعَ مِنَ الْحِسَابَاتِ الْمُبْهَمَةِ الَّتِي لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا الْخُبَرَاءُ الَّذِينَ يَسْتَغِلُّونَ الْفَوْضَى لِمَصَالِحِهِمْ، وَغَالِبًا مَا كَانَ يُظْلَمُ فِيهَا الضَّعِيفُ كَالْغَرِيبِ فِي بَلَدٍ غَرِيبٍ.

أَمْسَكَ الْقَاضِي لَوْحَهُ الْكَبِيرَ بِيَدَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مِيزَانَ الْعَدْلِ نَفْسَهُ، وَبَدَأَ يَكْتُبُ بِهُدُوءٍ يَفِيضُ سَكِينَةً، مُطَبِّقًا خُوَارِزْمِيَّةَ الْمَوَارِيثِ الَّتِي أَصْبَحَتْ سِرَّ عَدْلِهِ. حَوَّلَ الْأَنْصِبَةَ الشَّرْعِيَّةَ (الثُّمُنُ لِلزَّوْجَةِ، وَالْبَاقِي لِلْأَوْلَادِ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ...) إِلَى مُعَادَلَةٍ (Equation) وَاضِحَةٍ كَالنَّهَارِ بِاسْتِخْدَامِ "الشَّيْءِ" (ش) كَرَمْزٍ لِلْمَجْهُولِ الَّذِي سَيَكْشِفُهُ الْعَدْلُ. وَبِخُطُوَاتٍ مَنْطِقِيَّةٍ قَلِيلَةٍ وَسَرِيعَةٍ كَالْبَرْقِ، وَصَلَ إِلَى الْحَلِّ الدَّقِيقِ دُونَ أَيِّ تَرَدُّدٍ أَوْ غُمُوضٍ.

رَفَعَ اللَّوْحَ لِيَرَاهُ الْجَمِيعُ وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ وَزْنَ الْحُكْمِ: "هَذَا هُوَ حُكْمُ اللهِ الْعَادِلِ، وَهَذَا هُوَ الْحِسَابُ الدَّقِيقُ لَهُ كَالنُّورِ الَّذِي يُبَدِّدُ الظَّلَامَ. نَصِيبُ الزَّوْجَةِ كَذَا، وَنَصِيبُ كُلِّ وَلَدٍ كَذَا، وَنَصِيبُ كُلِّ بِنْتٍ كَذَا، بِلَا زِيَادَةٍ تُثِيرُ الْحَسَدَ وَلَا نُقْصَانٍ يُظْلِمُ الضَّعِيفَ".

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحمن: ٩).

نَظَرَتِ الْأَرْمَلَةُ إِلَى الْأَرْقَامِ الْوَاضِحَةِ كَالْبَلُّورِ، فَلَمْ تَعُدْ طَلَاسِمَ مُخِيفَةً تُخْفِي الْغَدْرَ، بَلْ رَأَتْ فِيهَا حَقَّ أَوْلَادِهَا مَحْفُوظًا كَكَنْزٍ فِي صُنْدُوقٍ مُقْفَلٍ. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهَا، شَعَرَتْ بِأَنَّ الْعَدْلَ لَيْسَ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تَقُولُهَا الْأَلْسِنَةُ، بَلْ هُوَ شَيْءٌ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ وَحِسَابُهُ وَلَمْسُهُ بِالْيَدِ، وَدَمْعَةُ امْتِعَاضٍ انْسَلَّتْ مِنْ عَيْنَيْهَا وَهِيَ تَشْكُرُ اللهَ عَلَى هَذَا النِّعْمَةِ الْجَدِيدَةِ.

(اللَّقْطَةُ الثَّالِثَةُ: فِي مَرْصَدِ الشَّمَّاسِيَّةِ - لُغَةُ الْكَوَاكِبِ، بَيْنَ النُّجُومِ وَالْأَرْقَامِ)

تَحْتَ قُبَّةِ الْمَرْصَدِ الْفَلَكِيِّ فِي الشَّمَّاسِيَّةِ، حَيْثُ تَتَحَدَّثُ السَّمَاءُ بِلُغَةِ النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ، كَانَ الْعُلَمَاءُ يَعْكِفُونَ عَلَى جَدَاوِلَ فَلَكِيَّةٍ جَدِيدَةٍ تُسَمَّى "الزِّيجَ"، وَالْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الْوَرَقِ الْقَدِيمِ وَالْحِبْرِ الْمُتَطَايِرِ مِنَ الْأَقْلَامِ الْمُسْتَعْجِلَةِ. كَانَ يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ)، الَّذِي كَانَ يَزْدَرِي الْحِسَابَ فِي الْبِدَايَةِ وَيَرَاهُ وَضِيعًا، وَاقِفًا بِجَانِبِ أَحَدِ كِبَارِ الْفَلَكِيِّينَ، وَعَلَى وَجْهِهِ عَلَامَاتُ الِانْبِهَارِ الَّذِي يَفُوقُ الْكَلِمَاتِ وَهُوَ يَرَى كَيْفَ تُسْتَخْدَمُ الْأَرْقَامُ الْجَدِيدَةُ وَخُوَارِزْمِيَّاتُهَا لِحِسَابِ مَسَارَاتِ الْكَوَاكِبِ وَأَوْقَاتِ الْخُسُوفِ وَالْكُسُوفِ بِدِقَّةٍ لَمْ تَكُنْ مُمْكِنَةً مِنْ قَبْلُ، كَأَنَّ السَّمَاءَ نَفْسَهَا أَصْبَحَتْ تَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ الْأَرْقَامِ.

قَالَ يَعْقُوبُ لِزَمِيلِهِ وَصَوْتُهُ يَحْمِلُ ذُهُولًا يَفُوقُ الْفَلْسَفَةَ: "كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ لِلتُّجَّارِ فَقَطْ، يَا صَدِيقِي، وَأَنَّهُ وَضِيعٌ كَالْغُبَارِ تَحْتَ أَقْدَامِ الْفَلَاسِفَةِ. لَكِنِّي أَرَى الْآنَ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ أَرْقَامٍ تَحْسِبُ الدَّرَاهِمَ، بَلْ هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي نَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ نَقْرَأَ حَرَكَةَ الْكَوْنِ وَنَفْهَمَ قَوَانِينَهُ الْخَفِيَّةَ كَأَنَّنَا نَقْرَأُ كِتَابًا مَفْتُوحًا مِنْ خَلْقِ اللهِ! إِنَّ هَذِهِ الْخُوَارِزْمِيَّاتِ تَجْعَلُ السَّمَاءَ أَقْرَبَ إِلَيْنَا مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَاضٍ، وَتَكْشِفُ أَسْرَارَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِدِقَّةٍ تُذْهِلُ الْعَقْلَ".

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٦).

(اللَّقْطَةُ الرَّابِعَةُ: فِي حَلْقَةِ الْإِمَامِ - ثَمَرَةُ الْعِلْمِ، بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ وَالْأَمَلِ)

يَجْلِسُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيُّ فِي حَلْقَتِهِ الْمُعْتَادَةِ تَحْتَ سَقْفِ الْمَسْجِدِ الْمُزَخْرَفِ بِآيَاتِ الْبَيَانِ، وَقَدْ أَصْبَحَ رَجُلًا نَاضِجًا تُحِيطُ بِهِ هَالَةٌ مِنَ الْوَقَارِ وَالْحِكْمَةِ كَأَنَّهُ شَجَرَةٌ أَثْمَرَتْ بَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنَ الْعَنَاءِ. يَنْظُرُ الْإِمَامُ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْنِ رَاضِيَتَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا كَبِئْرٍ عَذْبَةٍ، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السِّنِينَ: "اُنْظُرْ حَوْلَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، اُنْظُرْ إِلَى ثَمَرَةِ عِلْمِكَ الَّتِي أَثْمَرَتْ كَشَجَرَةٍ غَرَسْتَهَا بِيَدَيْكَ وَسَقَيْتَهَا بِعَرَقِ جَبِينِكَ. التَّاجِرُ فِي سُوقِهِ يَحْسِبُ بِيُسْرٍ وَيَبِيعُ بِعَدْلٍ، وَالْقَاضِي فِي مَحْكَمَتِهِ يَحْكُمُ بِدِقَّةٍ وَيُنْصِفُ الضَّعِيفَ، وَالْفَلَكِيُّ فِي مَرْصَدِهِ يَقْرَأُ حَرَكَةَ النُّجُومِ بِدِقَّةٍ تُذْهِلُ الْعُقُولَ. حَتَّى الْأُمُّ فِي بَيْتِهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ حِسَابِ الْبَائِعِ فَلَا تُخْدَعَ وَلَا تُظْلَمَ، وَالطِّفْلُ فِي مَدْرَسَتِهِ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ بِسُهُولَةٍ تَجْعَلُهُ يُحِبُّهُ".

أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَقَدْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ دَمْعَةً مِنَ الْفَرَحِ الْعَمِيقِ: "لَقَدْ حَقَّقْتَ مَا أَمَرَ بِهِ الْقُرْآنُ يَا بُنَيَّ، فَأَنْتَ لَمْ تَأْخُذِ الْعِلْمَ لِتَتَعَالَى بِهِ كَمَا أَرَادَ يَعْقُوبُ فِي بِدَايَتِهِ وَهُوَ يَرْدَرِي الْأُمُورَ الدُّنْيَوِيَّةَ، وَلَا لِتَجْمَعَ بِهِ الْمَالَ فَقَطْ كَمَا كَانَ هَمَّ إِسْمَاعِيلَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَهُوَ يَشْكُو الْفَوْضَى، بَلْ لِتَجْعَلَهُ 'يُسْرًا' وَ'بَيَانًا' وَ'مِيزَانًا'

لِخَلْقِ اللهِ كُلِّهِمْ، يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِمْ وَيَشْكُرُونَ اللهَ عَلَيْهِ. هَذِهِ هِيَ الْغَايَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلْعِلْمِ النَّافِعِ، الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَيَبْنِي حَضَارَةً تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ".

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧).

هَكَذَا، نَكُونُ قَدْ أَنْهَيْنَا الْبَابَ الْأَوَّلَ بِشَكْلٍ كَامِلٍ، وَشَهِدْنَا مِيلَادَ ثَوْرَةِ الْحِسَابِ الَّتِي غَيَّرَتِ الْبَشَرِيَّةَ بِأَكْمَلِهَا، مِنْ سُوقِ بَغْدَادَ إِلَى مَرَاصِدِ الْكَوْنِ، وَمِنْ مَحَاكِمِ الْعَدْلِ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ.

ثُمَّ خَتَمَ الإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا: "هَكَذَا يَا بَنِيَّ، تَكُونُ الْخُوَارِزْمِيَّاتُ لَيْسَتْ حِسَابًا فَقَطْ، بَلْ هِيَ مِيزَانٌ يَحْفَظُ الْعَدْلَ، وَبَيَانٌ يُضِيءُ الْعُقُولَ، وَيُسْرٌ يَجْعَلُ الْحَيَاةَ أَبْلَغَ وَأَجْمَلَ."

البَابُ الثَّالِثُ: البِنَاءُ الْمَنْهَجِيِّ - أَرْكَانُ الخُوَارِزْمِيَّاتِ الأَرْبَعَةُ

تَمْهِيدُ الْبَابِ:

لَقَدْ أَصْبَحَ لَدَى أَبِي عَبْدِ اللهِ الْآنَ الْأَدَوَاتُ الْكَامِلَةُ: نِظَامٌ عَدَدِيٌّ مُتَكَامِلٌ، وَخُوَارِزْمِيَّاتٌ بَسِيطَةٌ لِلْعَمَلِيَّاتِ الْأَرْبَعِ. وَلَكِنَّهُ عَلَى وَشْكِ أَنْ يَكْتَشِفَ أَنَّ بِنَاءَ "بَيْتٍ" جَمِيلٍ لَا يَعْتَمِدُ فَقَطْ عَلَى جَوْدَةِ الْحِجَارَةِ وَالْخَشَبِ، بَلْ عَلَى "فَنِّ تَرْتِيبِهَا وَوَضْعِهَا مَعًا فِي الْمَكَانِ الصَّحِيحِ".

مُقَدِّمَةُ الْبَابِ:

قَالَ الْإِمَامُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ:

"يَا بُنَيَّ، لَقَدْ جَمَعْتَ الْآنَ الْحُرُوفَ الْأَبْجَدِيَّةَ لِلُّغَةٍ جَدِيدَةٍ. وَلَكِنَّ الْحُرُوفَ وَحْدَهَا لَا تَصْنَعُ كِتَابًا، وَلَا تَكْشِفُ عِلْمًا. يَجِبُ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْآنَ قَوَاعِدَ النَّحْوِ الَّتِي تَرْبِطُ هَذِهِ الْحُرُوفَ وَتُحَوِّلُهَا إِلَى جُمَلٍ مَنْطِقِيَّةٍ قَوِيَّةٍ. هَذِهِ الْقَوَاعِدُ هِيَ أَرْكَانُ كُلِّ عَمَلِيَّةٍ حِسَابِيَّةٍ (خُوَارِزْمِيَّةٍ) نَاجِحَةٍ، وَهِيَ الَّتِي سَتَجْعَلُ الْعِلْمَ

نِظَامًا مُحْكَمًا، كَمَا يَجْعَلُ النَّحْوُ الْكَلَامَ بَيَانًا مُسْتَقِيمًا.

فَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ لِلْخُوَارِزْمِيَّاتِ أَرْكَانًا أَرْبَعَةً تُشْبِهُ أَرْكَانَ الْبِنَاءِ:

- **أَوَّلُهَا خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّرْتِيبُ وَالتَّسَلْسُلِ:** فَلَا يَصْلُحُ الْعَدَدُ وَلَا يَتِمُّ الْحِسَابُ إِلَّا إِذَا سَارَتِ الْخُطُوَاتُ عَلَى نَسَقٍ، كَمَا أَنْزَلَ اللهُ الْآيَاتِ مُرَتَّبَةً.

- **وَالثَّانِي خُوَارِزْمِيَّاتُ الشَّرْطِ وَالتَّفَرُّعِ:** فَكُلُّ خُطْوَةٍ مَرْهُونَةٌ بِوُجُودِ مَا يُمَكِّنُهَا، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَطْرَحُهُ اسْتَلَفَ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَضْرِبُهُ الْتَمَسَ جَارَهُ.

- **وَالثَّالِثُ خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّكْرَارِ وَالدَّوَرَانِ:** فَبِهِ يَثْبُتُ الْعِلْمُ وَتَتَأَكَّدُ النَّتِيجَةُ، كَمَا يُرَدِّدُ الْقُرْآنُ ذِكْرَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ لِيَسْتَقِرَّ فِي الْقُلُوبِ.

- **وَالرَّابِعُ خُوَارِزْمِيَّاتُ الْبِنْيَةِ وَالتَّنَاظُرِ:** فَكَمَا يُشَيَّدُ الْقَصْرُ بِتَنَاسُقِ أَعْمِدَتِهِ وَتَرَاصِّ جُدْرَانِهِ، كَذَلِكَ تَسْتَقِيمُ الْخُوَارِزْمِيَّةُ بِبِنْيَتِهَا الْمُتَنَاظِرَةِ، فَيَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ فِيهَا مُتَّسِقًا مَعَ الْآخَرِ حَتَّى يَكْتَمِلَ الْبِنَاءُ".

الدَّرْسُ ٧: خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّرْتِيبِ وَالتَّسَلْسُلِ

فَنُّ تَرْتِيبِ الخُطُوَاتِ

(المَشْهَدُ: خَطَأٌ غَيْرُ مُتَوَقَّعٍ، بَيْنَ الْغَضَبِ وَالْحَيْرَةِ فِي حَلْقَةِ الْإِمَامِ)

كَانَ إِسْمَاعِيلُ التَّاجِرُ مِنْ أَسْعَدِ النَّاسِ بِاخْتِرَاعَاتِ صَدِيقِهِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ حِسَابَاتُهُ سَرِيعَةً وَدَقِيقَةً كَالْبَرْقِ الَّذِي يُضِيءُ الظَّلَامَ وَيَكْشِفُ الْخَفَايَا. وَلَكِنْ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، دَخَلَ عَلَى حَلْقَةِ الْإِمَامِ وَعَلَى وَجْهِهِ عَلَامَاتُ الْحَيْرَةِ وَالْغَضَبِ الَّذِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ كَبُرْكَانٍ مَكْبُوتٍ، يَحْمِلُ لَوْحَهُ الْمُغْطَى بِأَرْقَامٍ مُتَشَابِكَةٍ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ جُرْحًا غَائِرًا.

صَاحَ بِصَوْتٍ يَرْتَعِشُ مِنَ الْغَضَبِ وَالْإِحْبَاطِ: "يَا إِمَامُ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَقَدْ حَدَثَ شَيْءٌ عَجِيبٌ يَفُوقُ الْخَيَالَ! قُمْتُ بِحِسَابِ صَفْقَةٍ كَبِيرَةٍ بِاسْتِخْدَامِ الْخُوَارِزْمِيَّاتِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي أَهْدَيْتَنِي إِيَّاهَا، وَتَأَكَّدْتُ مِنْ كُلِّ خُطْوَةٍ كَالْحَارِسِ الَّذِي يَتَفَحَّصُ كُلَّ زَاوِيَةٍ، وَلَكِنَّ النَّاتِجَ النِّهَائِيَّ كَانَ خَاطِئًا كَالسَّهْمِ الَّذِي يَخْطِئُ هَدَفَهُ! لَقَدْ خَسِرْتُ مَالًا كَثِيرًا بِسَبَبِ هَذَا الْخَطَأِ الْغَامِضِ، وَأَنَا الَّذِي

كُنْتُ أَثِقُ بِهَذَا النِّظَامِ كَثِقَتِي بِالشَّمْسِ الَّتِي تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ!".

تَقَدَّمَ يَعْقُوبُ الْمَنْطِقِيُّ وَقَالَ بِاهْتِمَامٍ يَفُوقُ الْفَلْسَفَةَ، وَهُوَ يَحُكُّ ذَقْنَهُ كَأَنَّهُ يَحْلُ لُغْزًا عَظِيمًا: "هَذَا مُسْتَحِيلٌ يَا إِسْمَاعِيلُ! إِذَا كَانَتِ الْمُقَدِّمَاتُ صَحِيحَةً وَالْعَمَلِيَّاتُ صَحِيحَةً كَالْبُرْهَانِ الْمَنْطِقِيِّ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ النَّتِيجَةُ صَحِيحَةً كَالنَّهَارِ بَعْدَ اللَّيْلِ. هَذَا هُوَ أَسَاسُ الْمَنْطِقِ الَّذِي بَنَى عَلَيْهِ أَرِسْطُو فَلْسَفَتَهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُقَهُ حِسَابٌ بَشَرِيٌّ!".

أَخَذَ أَبُو عَبْدِ اللهِ اللَّوْحَ مِنْ صَدِيقِهِ وَبَدَأَ يَمُرُّ عَلَى الْخُطُوَاتِ بِعِنَايَةٍ تَفُوقُ الْجَوَاهِرِجِيِّ الَّذِي يَفْحَصُ أَلْمَاسَةً، وَعَيْنَاهُ تَتَّسِعَانِ تَدْرِيجِيًّا كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِرًّا مَدْفُونًا. كَانَتْ كُلُّ عَمَلِيَّةِ جَمْعٍ صَحِيحَةً كَالْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ، وَكُلُّ عَمَلِيَّةِ ضَرْبٍ دَقِيقَةً كَالسَّهْمِ الَّذِي يُصِيبُ الْهَدَفَ. فَأَيْنَ الْخَلَلُ الَّذِي يُفْسِدُ الْكُلَّ كَقَطْرَةِ سَمٍّ فِي كَأْسِ عَسَلٍ؟

بَعْدَ تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ يَكَادُ يُسْمَعُ صَوْتُهُ فِي الصَّمْتِ الْمُطْبِقِ، رَفَعَ أَبُو عَبْدِ اللهِ رَأْسَهُ وَقَالَ بِصَوْتٍ مُكْتَشِفٍ يَحْمِلُ فَرَحَ الْكَشْفِ: "وَجَدْتُهُ أَخِيرًا! الْمُشْكِلَةُ لَيْسَتْ فِي الْعَمَلِيَّاتِ نَفْسِهَا يَا إِسْمَاعِيلُ، بَلْ فِي تَرْتِيبِهَا كَأَنَّكَ بَنَيْتَ بَيْتًا وَوَضَعْتَ السَّقْفَ قَبْلَ الْأَسَاسِ! لَقَدْ قُمْتَ بِخَصْمِ حِصَّةِ الشَّرِيكِ قَبْلَ أَنْ تَحْسِبَ الرِّبْحَ الصَّافِيَ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ تَفْعَلَ الْعَكْسَ بِدِقَّةٍ وَحِكْمَةٍ!".

خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّسَلْسُلِ فِي الْقُرْآنِ - نِظَامُ الْكَوْنِ وَالْتَّارِيخِ

(المَشْهَدُ: جَوْلَةٌ فِي كِتَابِ اللهِ، بَيْنَ الْآيَاتِ وَالْأَسْرَارِ الْمُتَسَلْسِلَةِ)

بَعْدَ أَنْ فَهِمَ إِسْمَاعِيلُ سَبَبَ خَطَأِهِ فِي الْحِسَابِ وَانْدَثَرَ غَضَبُهُ كَغَيْمَةٍ تَبَدَّدَتْ بَعْدَ عَاصِفَةٍ، قَالَ لِلْإِمَامِ بِفُضُولٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ كَنْزٍ: "إِذًا، فَالتَّرْتِيبُ مُهِمٌّ كَالْأَسَاسِ فِي الْبِنَاءِ. هَلْ هَذَا كُلُّ شَيْءٍ يَا سَيِّدِي، أَمْ أَنَّ لَهُ أَعْمَاقًا أُخْرَى؟".

هُنَا، تَدَخَّلَ الْإِمَامُ وَقَالَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ عُمْقَ الْبِحَارِ وَسَعَةَ السَّمَاءِ: "لَا يَا إِسْمَاعِيلُ، أَنْتُمْ لَمْ تَكْتَشِفُوا مُجَرَّدَ 'خُطْوَةٍ' تُصْلِحُ حِسَابَ صَفْقَةٍ، بَلْ اكْتَشَفْتُمْ أَحَدَ أَعْظَمِ 'الْأَرْكَانِ' الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا الْخُوَارِزْمِيَّاتُ وَبُنِيَ عَلَيْهَا الْكَوْنُ كُلُّهُ بِحِكْمَةِ الْخَالِقِ. إِنَّهُ رُكْنُ التَّسَلْسُلِ، التَّرْتِيبُ الْمَنْطِقِيُّ الَّذِي يَجْعَلُ الْخُطُوَاتِ تَأْتِي وَاحِدَةً تِلْوَ الْأُخْرَى كَأَمْرِ اللهِ فِي الْخَلْقِ وَالْحَيَاةِ. وَلِكَيْ تَفْهَمُوا عُمْقَهُ وَقُوَّتَهُ، سَنَقُومُ الْيَوْمَ بِجَوْلَةٍ لَا فِي أَسْوَاقِ بَغْدَادَ الْمُزْدَحِمَةِ، بَلْ فِي آيَاتِ كِتَابِ اللهِ الْمُبِينِ، حَيْثُ يَكْشِفُ لَنَا أَعْظَمَ الْخُوَارِزْمِيَّاتِ التَّسَلْسُلِيَّةِ" (رَاجِعْ الْمُلْحَقَ الثَّانِيَ: الْخُوَارِزْمِيَّاتِ التَّسَلْسُلِيَّةِ).

فَتَحَ الْإِمَامُ الْمُصْحَفَ الشَّرِيفَ وَقَالَ بِصَوْتٍ يَتَرَدَّدُ كَصَدًى فِي الْقُلُوبِ: "اُنْظُرُوا كَيْفَ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنُ هَذَا الْمَنْطِقَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، مِنَ الْخَلْقِ إِلَى الْحَيَاةِ

وَالْمَوْتِ. الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، وَلَيْسَ كِتَابَ عُلُومٍ يُصَنِّفُ الْمَسَائِلَ فِي جَدَاوِلَ وَأَبْوَابٍ مُرْتَبَةٍ، إِنَّهُ كِتَابُ هِدَايَةٍ تَتَنَاثَرُ فِيهِ اللَّآلِئُ وَالْجَوَاهِرُ كَالنُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَغُوصَ لِيَسْتَخْرِجَهَا بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ. إِنَّ هَذَا الْجَدْوَلَ الَّذِي سَنَعْرِضُهُ لَيْسَ هُوَ 'الْكَنْزَ' نَفْسَهُ، بَلْ هُوَ 'الْخَرِيطَةُ' الَّتِي تَدُلُّكَ عَلَى مَكَانِ الْكُنُوزِ الْمُخْفِيَّةِ. لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ الْمِفْتَاحَ، وَمُهِمَّتُكَ الْآنَ هِيَ أَنْ تَفْتَحَ أَبْوَابًا أُخْرَى لَمْ نَطْرُقْهَا بَعْدُ، فَكِّرْ مَثَلًا فِي...".

أَوَّلًا: خُوَارِزْمِيَّةُ الْخَلْقِ وَالْحَيَاةِ

"وَهَذَا الْمَبْدَأُ"، أَضَافَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ الصَّفْحَةَ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْهَيْبَةِ، "لَهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي كِتَابِ اللهِ، يَكْشِفُ لَنَا كَيْفَ يَبْنِي الْخَالِقُ الْكَوْنَ خُطْوَةً خُطْوَةً. تَأَمَّلُوا فِي أَعْظَمِ خُوَارِزْمِيَّةٍ نَعْرِفُهَا: خُوَارِزْمِيَّةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، الَّتِي تَبْدَأُ مِنَ اللَّا شَيْءِ وَتَصِلُ إِلَى كَائِنٍ حَيٍّ يَعْبُدُ وَيَفْكِرُ".

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (الْمُؤْمِنُونَ: ١٤).

"هَلْ تَرَوْنَ التَّسَلْسُلَ الْمُعْجِزَ يَا أَبْنَائِي؟ إِنَّهُ تَرْتِيبٌ إِلَهِيٌّ لَا يَقْبَلُ

الْعَشْوَائِيَّةَ. لَا يُمْكِنُ أَنْ تُخْلَقَ الْعِظَامُ قَبْلَ الْمُضْغَةِ، وَلَا الْمُضْغَةُ قَبْلَ الْعَلَقَةِ، وَلَا الْعَلَقَةُ قَبْلَ النُّطْفَةِ. كُلُّ شَيْءٍ يَأْتِي فِي مَكَانِهِ وَزَمَانِهِ الصَّحِيحِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ مِنَ الْذَّهَبِ تَرْبِطُ الْبِدَايَةَ بِالنِّهَايَةِ. وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ خُوَارِزْمِيَّاتُكُمْ – تَسَلْسُلًا مُحْكَمًا يَبْنِي وَلَا يُفْسِدُ".

أَخَذَ أَبُو عَبْدِ اللهِ اللَّوْحَ وَكَتَبَ بِخَطٍّ كَبِيرٍ وَاضِحٍ: "هَذَا تَسَلْسُلٌ حَيَوِيٌّ لَا يَقْبَلُ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ، كَالْحَيَاةِ نَفْسِهَا".

ثَانِيًا: خُوَارِزْمِيَّةُ التَّارِيخِ وَالْأُمَمِ

قَالَ يَعْقُوبُ بِفُضُولٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ الْقُدَمَاءَ: "هَذَا وَاضِحٌ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ يَا سَيِّدِي، فَهِيَ تَسِيرُ وَفْقَ قَوَانِينَ ثَابِتَةٍ كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَلَكِنْ، هَلْ يَسْرِي هَذَا عَلَى أَفْعَالِ الْبَشَرِ وَالتَّارِيخِ الَّذِي يَبْدُو عَشْوَائِيًّا كَالرِّيَاحِ الْمُتَقَلِّبَةِ؟".

أَجَابَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ صَفْحَةً أُخْرَى مِنَ الْمُصْحَفِ بِيَدَيْنِ مُقَدَّسَتَيْنِ: "نَعَمْ يَا يَعْقُوبُ، وَهَذَا هُوَ الْأَعْجَبُ وَالْأَعْظَمُ! فَالْقُرْآنُ يُعَلِّمُنَا أَنَّ لِلتَّارِيخِ 'سُنَنًا' وَخُوَارِزْمِيَّاتٍ ثَابِتَةً كَالْجِبَالِ، لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ. اُنْظُرُوا إِلَى خُوَارِزْمِيَّةِ هَلَاكِ الْأُمَمِ الظَّالِمَةِ، الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِي الْقُرْآنِ كَدَوْرَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ":

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (الْشَّمْسِ:

.(١٤

"التَّسَلْسُلُ وَاضِحٌ كَالنَّهَارِ، يَا أَبْنَائِي: أَوَّلًا التَّكْذِيبُ لِلرُّسُلِ وَالْحَقِّ كَبِذْرَةِ الشَّرِّ، فَ الْفِعْلُ الْإِجْرَامِيُّ (عَقْرُ النَّاقَةِ كَرَمْزٍ لِلْعُدْوَانِ)، فَ نُزُولُ الْعِقَابِ كَثَمَرَةِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ. إِنَّهَا نَتِيجَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ تَأْتِي فِي نِهَايَةِ تَسَلْسُلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّالِمَةِ، وَتَتَكَرَّرُ فِي قِصَصِ الْأُمَمِ كَقِصَّةِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، لِتُعَلِّمَنَا أَنَّ التَّارِيخَ لَيْسَ عَشْوَائِيًّا، بَلْ خُوَارِزْمِيَّةً إِلَهِيَّةً تَسِيرُ بِتَرْتِيبٍ مُحْكَمٍ".

ثَالِثًا: خُوَارِزْمِيَّةُ الْعِبَادَةِ وَالتَّشْرِيعِ

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بِفُضُولٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ سُوقٍ جَدِيدَةٍ: "وَهَلْ نَجِدُ هَذَا فِي عِبَادَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ يَا سَيِّدِي، أَمْ هُوَ مُقْتَصِرٌ عَلَى الْكَوْنِ وَالتَّارِيخِ؟".

رَدَّ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ صَفْحَةً أُخْرَى مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ: "بِالتَّأْكِيدِ يَا إِسْمَاعِيلُ، فَالْعِبَادَةُ فِي الْإِسْلَامِ لَيْسَتْ فَوْضَى عَشْوَائِيَّةً تَأْتِي كَيْفَمَا اتَّفَقَ، بَلْ هِيَ نِظَامٌ دَقِيقٌ يُرَبِّي فِينَا الِانْضِبَاطَ وَالْحِكْمَةَ كَأَنَّهُ يَبْنِي قَلْبًا قَوِيًّا خُطْوَةً خُطْوَةً. وَقَدْ ذَكَرْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ خُوَارِزْمِيَّةَ الْوُضُوءِ، وَهِيَ مِثَالٌ عَظِيمٌ يَكْشِفُ سِرَّ التَّرْتِيبِ. أُنْظُرُوا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ":

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الْمَائِدَةُ: ٦).

"إِنَّ حَرْفَ الْوَاوِ هُنَا، كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ، يُفِيدُ التَّرْتِيبَ وَالتَّسَلْسُلَ كَسِلْسِلَةٍ مِنَ الْذَّهَبِ. فَهِيَ خُطُوَاتٌ مُتَتَابِعَةٌ لَا يَجُوزُ تَخَطِّيهَا أَوْ تَغْيِيرُ تَرْتِيبِهَا، لِأَنَّ غَسْلَ الْوَجْهِ يَأْتِي قَبْلَ الْيَدَيْنِ، وَالْيَدَيْنِ قَبْلَ الْمَسْحِ بِالرَّأْسِ، وَالرَّأْسِ قَبْلَ الْأَرْجُلِ. إِنَّهُ تَرْتِيبٌ إِلَهِيٌّ يُطَهِّرُ الْجَسَدَ وَالرُّوحَ خُطْوَةً خُطْوَةً، وَيُعَلِّمُنَا أَنَّ الْعِبَادَةَ نِظَامٌ يَبْنِي الْإِنْسَانَ مِنَ الدَّاخِلِ كَمَا يَبْنِي الْحِسَابُ النِّظَامَ مِنَ الْخَارِجِ".

الْدَّرْسُ ٨: خُوَارِزْمِيَّاتُ الشَّرْطِ وَالتَّفَرُّعِ

فَنُّ اتِّخَاذِ القَرَارِ

(المَشْهَدُ: مُشْكِلَةٌ جَدِيدَةٌ فِي السُّوقِ، بَيْنَ الْقُمَاشِ وَالْحَيْرَةِ الْمُلِحَّةِ)

عَادَ إِسْمَاعِيلُ إِلَى حَلْقَةِ الْإِمَامِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَلَكِنَّهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَمْ يَكُنْ غَاضِبًا كَعَاصِفَةٍ تَهُزُّ الْأَشْجَارَ، بَلْ كَانَ حَائِرًا كَسَفَّارٍ وَقَفَ أَمَامَ مُفْتَرَقِ طُرُقٍ غَامِضَةٍ، يَحْمِلُ لَوْحَهُ وَكَأَنَّهُ يَحْمِلُ لُغْزًا يَأْكُلُ مِنْ عَقْلِهِ. الْهَوَاءُ فِي الْحَلْقَةِ ثَقِيلٌ بِرَائِحَةِ الْبَخُورِ الْعَرَبِيِّ، وَأَشِعَّةُ الشَّمْسِ تَنْفُذُ مِنْ خِلَالِ الْمَشَارِبِيَّةِ تَرْسُمُ طُرُقًا مُتَشَابِكَةً عَلَى الْأَرْضِ كَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى سِرِّ الْمَصِيرِ.

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ الْحَيْرَةَ وَالْإِلْحَاحَ: "يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَقَدْ نَفَعَتْنِي خُوَارِزْمِيَّةُ التَّسَلْسُلِ كَثِيرًا كَالْمَطَرِ الَّذِي يُحْيِي الْأَرْضَ الْجَافَّةَ، وَأَصْبَحَتْ حِسَابَاتِي أَسْرَعَ مِنَ الرِّيحِ. وَلَكِنْ، وَاجَهَتْنِي الْيَوْمَ مُشْكِلَةٌ لَمْ أَسْتَطِعْ حَلَّهَا، وَهِيَ تَأْكُلُ مِنْ رَاحَتِي كَالنَّارِ الْمُسْتَعِرَةِ!".

أَضَافَ وَهُوَ يَرْسُمُ عَلَى اللَّوْحِ بِيَدٍ مُرْتَعِشَةٍ: "لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ تَاجِرٌ صَفْقَةً غَرِيبَةً وَقَالَ: سَأَبِيعُكَ لِفَافَةَ الْحَرِيرِ بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ إِنْ كَانَتْ كَمِّيَّتُكَ قَلِيلَةً. وَلَكِنْ، إِنِ اشْتَرَيْتَ مِنِّي أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ لِفَافَةً، فَسَأُعْطِيكَ خَصْمًا وَيُصْبِحُ سِعْرُ اللِّفَافَةِ تِسْعَةَ دَرَاهِمَ فَقَطْ لِأَجْلِ عَيْنَيْكَ! كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ أَضَعَ هَذَا 'الشَّرْطَ' دَاخِلَ عَمَلِيَّةِ الْحِسَابِ (الْخُوَارِزْمِيَّةِ)؟ إِنَّهَا تَحْتَاجُ أَنْ تَتَّخِذَ قَرَارًا بِنَاءً عَلَى الْكَمِّيَّةِ، وَكَأَنَّهَا تَفْكِرُ وَتَخْتَارُ كَالْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ!".

قَالَ يَعْقُوبُ بِذَكَاءٍ يَقْطَعُ الْهَوَاءَ كَسَيْفٍ حَادٍّ: "هَذِهِ لَيْسَتْ مُشْكِلَةَ حِسَابٍ يَا إِسْمَاعِيلُ، بَلْ هِيَ مُشْكِلَةُ مَنْطِقٍ عَمِيقَةٌ تَفُوقُ الْأَرْقَامَ. إِنَّكَ تَصِفُ حَالَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ كَطَرِيقَيْنِ مُتَفَرِّعَيْنِ، وَلِكُلِّ حَالَةٍ نَتِيجَةٌ مُخْتَلِفَةٌ كَالْفَجْرِ وَالْغُرُوبِ. الْأَرْقَامُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَّخِذَ قَرَارَاتٍ بِنَفْسِهَا، فَهِيَ مُجَرَّدَةٌ كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا تَتَحَرَّكُ دُونَ يَدٍ تَدْفَعُهَا!".

هُنَا، تَدَخَّلَ الْإِمَامُ بِهُدُوئِهِ الْمَعْهُودِ الَّذِي يُسَكِّنُ الْعَوَاصِفَ، وَقَالَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا كَأَبٍ يَجْمَعُ أَبْنَاءَهُ: "بَلْ إِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الِاخْتِيَارِ يَا يَعْقُوبُ هِيَ جَوْهَرُ مَا يُمَيِّزُ الْعَاقِلَ عَنِ الْآلَةِ الْبَارِدَةِ، وَهِيَ سِرُّ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي أَكْرَمَ اللهُ بِهَا الْإِنْسَانَ. وَمُهِمَّتُنَا لَيْسَتْ أَنْ نَجْعَلَ الْأَرْقَامَ تُفَكِّرُ كَالْبَشَرِ، بَلْ أَنْ نُنَظِّمَ تَفْكِيرَنَا بِهَا كَأَنَّنَا نَكْتُبُ قَانُونًا إِلَهِيًّا يَسِيرُ بِحِكْمَةٍ".

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ وَأَضَافَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ: "إِنَّ الْحَيَاةَ يَا وَلَدِي لَيْسَتْ خَطًّا مُسْتَقِيمًا نَسِيرُ فِيهِ كَالْأَعْمَى يَتَّبِعُ الطَّرِيقَ، بَلْ هِيَ سِلْسِلَةٌ مِنْ مُفْتَرَقَاتِ الطُّرُقِ، وَفِي كُلِّ مُفْتَرَقٍ يَكْمُنُ اخْتِيَارٌ يُحَدِّدُ الْمَصِيرَ كَالنَّهْرِ الَّذِي يَتَفَرَّعُ إِلَى جَدَاوِلَ تَأْخُذُ كُلٌّ مِنْهَا وَجْهَةً مُخْتَلِفَةً. وَأَعْظَمُ تَفَرُّعٍ وَضَعَهُ اللهُ فِي قَلْبِ الْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ هُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (الْبَلَدُ: ١٠).

النَّجْدَيْنِ: طَرِيقَا الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، أَوْ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، اللَّذَانِ يَتَفَرَّعَانِ مِنْ فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ كَشَجَرَةٍ تَتَفَرَّعُ أَغْصَانُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ، مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، هُوَ شَرْحٌ لِهَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ كُلٌّ مِنْهُمَا، لِيَكُونَ دَلِيلًا لِلْعَاقِلِينَ فِي اتِّخَاذِ قَرَارَاتِهِمْ. فَمَنْطِقُ التَّفَرُّعِ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ فِي الْحِسَابِ، بَلْ هُوَ قَانُونُ الْمَسْؤُولِيَّةِ وَالِاخْتِيَارِ الَّذِي يَحْكُمُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا".

"تَأَمَّلْ يَا بُنَيَّ فِي أَعْظَمِ خُوَارِزْمِيَّةٍ لِلْمَصِيرِ فِي كِتَابِ اللهِ"، أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ الْمُصْحَفَ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْهَيْبَةِ:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (الْقَارِعَةُ: ٦-٩).

أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَصَوْتُهُ يَعْلُو كَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْفَهْمِ الْعَمِيقِ: "هَلْ تَرَوْنَ يَا أَبْنَائِي؟ إِنَّهُ نِظَامٌ شَرْطِيٌّ وَاضِحٌ كَالنَّهَارِ بَعْدَ اللَّيْلِ. الشَّرْطُ هُوَ وَزْنُ الْأَعْمَالِ فِي الْمِيزَانِ الْإِلَهِيِّ، وَالتَّفَرُّعُ يُؤَدِّي إِلَى مَسَارَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ كَطَرِيقَيْنِ يَتَفَرَّعَانِ مِنْ جَبَلٍ وَاحِدٍ: مَسَارِ النَّعِيمِ وَالرِّضَا الْأَبَدِيِّ، وَمَسَارِ الْجَحِيمِ وَالْهَاوِيَةِ الْمُظْلِمَةِ. إِنَّهُ اخْتِيَارٌ يَحْدُثُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَيَكْشِفُ سِرَّ الْمَصِيرِ الْأَخِيرِ. مُهِمَّتُكَ الْآنَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ هِيَ أَنْ تُعَلِّمَ الْأَرْقَامَ كَيْفَ تَتَّخِذُ الْقَرَارَاتِ عِنْدَ مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ، لِتَكُونَ خُوَارِزْمِيَّتُكَ ذَكِيَّةً كَالْقَلْبِ الَّذِي يَخْتَارُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ".

أَضَاءَتْ فِكْرَةٌ جَدِيدَةٌ وَجْهَ أَبِي عَبْدِ اللهِ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ غَيْمٍ كَثِيفٍ، فَأَخَذَ اللَّوْحَ وَكَتَبَ بِخَطٍّ كَبِيرٍ وَاضِحٍ كَالنَّهَارِ:

الرُّكْنُ الثَّانِي لِلْخُوَارِزْمِيَّةِ: الشَّرْطُ وَالتَّفَرُّعُ

(Condition & Branching)

ثُمَّ قَالَ بِحَمَاسٍ يَتَدَفَّقُ كَنَهْرٍ جَارٍ: "لِكَيْ تَكُونَ الْخُوَارِزْمِيَّةُ ذَكِيَّةً كَالْإِنْسَانِ الَّذِي يَخْتَارُ مَصِيرَهُ، يَجِبُ أَنْ نُعْطِيَهَا الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ تَسْأَلَ سُؤَالًا بِعَدْلٍ، ثُمَّ تُغَيِّرَ طَرِيقَهَا بِنَاءً عَلَى الْجَوَابِ كَأَنَّهَا تَفْكِرُ وَتَقْرَرُ. وَسَنَسْتَخْدِمُ لِذَلِكَ أَدَاتَيْ 'إِنْ' وَ'إِذَا'، اللَّتَيْنِ تَفْتَحَانِ أَبْوَابَ الْمَصَائِرِ الْمُخْتَلِفَةِ".

مِثَالٌ تَطْبِيقِيٌّ: حَلُّ مُشْكِلَةِ إِسْمَاعِيلَ

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَرْسُمُ عَلَى اللَّوْحِ شَجَرَةً تَتَفَرَّعُ أَغْصَانُهَا كَأَنَّهَا طُرُقُ الْحَيَاةِ: "سَنَبْنِي الْآنَ خُوَارِزْمِيَّةً لِصَفْقَتِكَ يَا إِسْمَاعِيلُ، وَسَتَكُونُ كَالطَّرِيقِ الَّذِي يَتَفَرَّعُ وَفْقَ اخْتِيَارِكَ":

1. **الْمُدْخَلَاتُ**: عَدَدُ لِفَافَاتِ الْحَرِيرِ الْمَطْلُوبَةِ (دَعْنَا نُسَمِّيهِ كَمِّيَّةً).
2. **الشَّرْطُ**: إِنْ كَانَتِ الْكَمِّيَّةُ أَكْبَرَ مِنْ ٥٠ (كَأَنَّكَ وَصَلْتَ إِلَى مُفْتَرَقِ الطَّرِيقِ وَاخْتَرْتَ الْكَثِيرَ).
3. **الْمَسَارُ الْأَوَّلُ**: فَاحْسِبِ السِّعْرَ الْإِجْمَالِيَّ عَلَى أَسَاسِ ٩ دَرَاهِمَ لِلِّفَافَةِ (طَرِيقُ الْخَصْمِ وَالرِّبْحِ الْأَكْبَرِ).
4. **التَّفَرُّعُ الثَّانِي**: وَإِلَّا (إِنْ كَانَتِ الْكَمِّيَّةُ ٥٠ أَوْ أَقَلَّ، كَأَنَّكَ اخْتَرْتَ الطَّرِيقَ الْآخَرَ).
5. **الْمَسَارُ الثَّالِثُ**: فَاحْسِبِ السِّعْرَ الْإِجْمَالِيَّ عَلَى أَسَاسِ ١٠ دَرَاهِمَ لِلِّفَافَةِ (طَرِيقُ الْأَمَانِ وَالْبَسَاطَةِ).

فَرِحَ إِسْمَاعِيلُ وَقَالَ وَهُوَ يَصْفِقُ بِيَدَيْهِ كَطِفْلٍ يَجِدُ لُعْبَتَهُ: "الْآنَ

أَصْبَحَتْ لَدَيَّ وَصْفَةٌ وَاضِحَةٌ لِكُلِّ حَالَةٍ، كَالطَّبِيبِ الَّذِي يَعْرِفُ دَوَاءَ كُلِّ دَاءٍ يَضَعُ الدَّوَاءَ فِي مَوْضِعِهِ! لَمْ يَعُدْ الْحِسَابُ خَطًّا مُسْتَقِيمًا، بَلْ شَجَرَةً تَتَفَرَّعُ وَفْقَ الْحَاجَةِ!".

وَقَالَ يَعْقُوبُ بِإِعْجَابٍ يَفُوقُ الْفَلْسَفَةَ: "إِنَّكَ أَعْطَيْتَ الْأَرْقَامَ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمَنْطِقِ وَالِاخْتِيَارِ كَأَنَّهَا أَصْبَحَتْ حَيَّةً تَفْكِرُ وَتَقْرَرُ! هَذَا لَيْسَ حِسَابًا، بَلْ فَلْسَفَةٌ حَيَّةٌ تَتَّخِذُ الْقَرَارَاتِ وَفْقَ الْشُّرُوطِ".

عَلَّقَ الْإِمَامُ بِحِكْمَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ عَذْبٍ: "أَحْسَنْتُمْ يَا أَبْنَائِي، لَقَدِ اكْتَشَفْتُمْ الْآنَ الرُّكْنَ الثَّانِيَ مِنْ أَرْكَانِ الْخُوَارِزْمِيَّةِ الْعَظِيمَةِ. فَالْخُوَارِزْمِيَّةُ النَّاضِجَةُ لَا تَسِيرُ فِي خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ كَالْأَعْمَى يَتَّبِعُ الطَّرِيقَ دُونَ فِكْرٍ، بَلْ تَنْظُرُ وَتُفَكِّرُ وَتَخْتَارُ طَرِيقَهَا وَفْقَ الشُّرُوطِ وَالْحَاجَاتِ، تَمَامًا كَالْعَاقِلِ الَّذِي يَخْتَارُ مَصِيرَهُ بَيْنَ النَّجْدَيْنِ (طَرِيقُ الْخَيْرِ وَطَرِيقُ الشَّرِّ)، وَيَسْتَشْهِدُ بِنُورِ الْوَحْيِ لِيَسْلُكَ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ" (رَاجِعْ الْمُلْحَقَ الثَّالِثَ: خُوَارِزْمِيَّاتُ الشَّرْطِ وَالتَّفَرُّعِ).

الْدَّرْسُ ٩: خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّكْرَارِ وَالدَّوَرَانِ

سِرُّ الِاسْتِمْرَارِ وَالدَّيْمُومَةِ

لَقَدْ أَصْبَحَتْ لَدَى أَبِي عَبْدِ اللهِ الْآنَ الْأَدَاةُ الْأُولَى وَهِيَ "التَّسَلْسُلُ"، وَالْأَدَاةُ الثَّانِيَةُ وَهِيَ "الشَّرْطُ وَالتَّفَرُّعُ". وَلَكِنَّهُ عَلَى وَشْكِ أَنْ يَكْتَشِفَ الرُّكْنَ الثَّالِثَ الَّذِي يُعْطِي لِلْخُوَارِزْمِيَّاتِ قُوَّتَهَا الْهَائِلَةَ عَلَى إِنْجَازِ الْمَهَامِّ الْكَبِيرَةِ، كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِرَّ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا الَّتِي تَدُورُ فِي دَوْرَاتٍ لَا تَنْتَهِي.

نَنْتَقِلُ الْآنَ لِنَكْتَشِفَ مَعًا الرُّكْنَ الثَّالِثَ مِنْ أَرْكَانِ الْخُوَارِزْمِيَّةِ، وَهُوَ «التَّكْرَارُ وَالدَّوَرَانُ»؟

(المَشْهَدُ: مُشْكِلَةُ الْمِئَةِ عَامِلٍ، بَيْنَ الْإِحْبَاطِ وَالْكَشْفِ الْعَظِيمِ)

دَخَلَ إِسْمَاعِيلُ إِلَى حَلْقَةِ الْإِمَامِ وَعَلَى وَجْهِهِ عَبُوسٌ جَدِيدٌ يَحْمِلُ إِحْبَاطًا كَأَنَّهُ يَحْمِلُ ثِقَلَ جَبَلٍ عَلَى كَتِفَيْهِ، يُلَوِّحُ بِأَوْرَاقِهِ الْمُغْطَاةِ بِأَرْقَامٍ مُتَكَرِّرَةٍ كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ لَا تَنْتَهِي. الْهَوَاءُ فِي الْحَلْقَةِ ثَقِيلٌ بِرَائِحَةِ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ، وَأَشِعَّةُ

الشَّمْسِ تَنْفُذُ مِنْ خِلَالِ الْمَشَارِبِيَّةِ تَرْسُمُ دَوَائِرَ مُتَكَرِّرَةً عَلَى الْأَرْضِ كَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى سِرِّ الدَّوَرَانِ الْمُخْفِي.

قَالَ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ يَضْرِبُ اللَّوْحَ بِيَدِهِ الْمُرْتَعِشَةِ: "يَا قَوْمُ، إِنَّنَا نَتَقَدَّمُ بِفَضْلِ اللهِ وَعِلْمِكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ تَطْرَحُ عَلَيْنَا تَحَدِّيَاتٍ جَدِيدَةً كُلَّ يَوْمٍ كَأَنَّهَا تَخْتَبِرُ صَبْرَنَا وَذَكَاءَنَا! الْيَوْمَ، يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُوَزِّعَ أُجْرَةَ مِئَةِ عَامِلٍ فِي مَصْنَعِيَ الْجَدِيدِ، وَأُجْرَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ عَنْ يَوْمِ عَمَلِهِمْ الشَّاقِّ. لَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أَسْتَخْدِمَ خُوَارِزْمِيَّةَ الْجَمْعِ، فَكَتَبْتُ: ٣ + ٣ + ٣ + ٣... وَاسْتَمَرَّتْ الْأَرْقَامُ تَتَكَاثَرُ كَالْأَرَانِبِ فِي الْحَقْلِ!".

تَوَقَّفَ إِسْمَاعِيلُ لِيَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهُ الْمُتَقَطِّعَةَ، وَأَكْمَلَ بِغَضَبٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي خَسِرَ صَفْقَةً: "لَقَدْ مَلَأْتُ لَوْحَيْنِ كَامِلَيْنِ بِالرَّقْمِ ٣ وَلَمْ أَصِلْ إِلَى نِهَايَةِ الْعَدَدِ، وَالْوَقْتُ يَمْضِي كَالسَّيْلِ فِي الْوَادِي! الطَّرِيقَةُ صَحِيحَةٌ بِلَا شَكٍّ، وَلَكِنَّهَا مُمِلَّةٌ وَطَوِيلَةٌ وَمَلِيئَةٌ بِفُرَصِ الْخَطَأِ كَالطَّرِيقِ الَّذِي يَكْثُرُ فِيهِ اللُّصُوصُ. أَلَيْسَتْ هُنَاكَ طَرِيقَةٌ أَذْكَى تَجْعَلُ الْعَمَلَ يَتَكَرَّرُ دُونَ إِعَادَةِ الْكِتَابَةِ كُلَّ مَرَّةٍ؟".

قَالَ يَعْقُوبُ بِذَكَاءٍ يَقْطَعُ الْهَوَاءَ: "يُمْكِنُكَ اسْتِخْدَامُ الضَّرْبِ يَا إِسْمَاعِيلُ، فَهُوَ أَسْرَعُ وَأَدَقُّ. ٣ × ١٠٠ = ٣٠٠ دِرْهَمٍ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ!".

رَدَّ إِسْمَاعِيلُ بِحَيْرَةٍ تَزْدَادُ: "نَعَمْ يَا يَعْقُوبُ، وَلَكِنْ مَاذَا لَوْ كَانَتِ الْمُهِمَّةُ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا مِنْ ضَرْبٍ بَسِيطٍ؟ مَاذَا لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَقُومَ بِنَفْسِ الْعَمَلِ مِئَةَ مَرَّةٍ مَعَ تَغْيِيرَاتٍ صَغِيرَةٍ كُلَّ مَرَّةٍ، كَحِسَابِ أُجْرَةِ عُمَّالٍ يَخْتَلِفُونَ فِي السَّاعَاتِ أَوْ الْأَيَّامِ؟ هَلْ سَأَكْتُبُ الْخُطُوَاتِ مِئَةَ مَرَّةٍ وَأُعِيدُ الضَّرْبَ كُلَّ مَرَّةٍ، وَالْوَقْتُ يَمْضِي وَالْعُمَّالُ يَنْتَظِرُونَ أُجْرَتَهُمْ كَالْجِيَاعِ أَمَامَ الطَّعَامِ؟".

هُنَا، نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ خِلَالِ إِحْدَى نَوَافِذِ الْمَسْجِدِ الْمُزَخْرَفَةِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ سِرَّ الْكَوْنِ كُلِّهِ: "يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أُنْظُرْ إِلَى حَرَكَةِ الْكَوْنِ الَّذِي يَدُورُ بِدَوَرَانٍ مُتَكَرِّرٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ. إِنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ شَمْسًا جَدِيدَةً لِكُلِّ يَوْمٍ يَطْلُعُ، بَلْ جَعَلَ شَمْسًا وَاحِدَةً تُشْرِقُ وَتَغْرُبُ فِي دَوْرَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ كَأَنَّهَا تَعُودُ إِلَى بِدَايَتِهَا لِتَبْدَأَ مِنْ جَدِيدٍ. وَلَمْ يَخْلُقْ قَلْبًا جَدِيدًا لِكُلِّ نَبْضَةٍ تَنْبِضُ، بَلْ جَعَلَ قَلْبًا وَاحِدًا يَنْبِضُ وَيَنْبَسِطُ فِي عَمَلٍ مُتَكَرِّرٍ يَحْفَظُ الْحَيَاةَ وَيُدِيمُهَا. إِنَّ التَّكْرَارَ لَيْسَ مَلَلًا يَثْقُلُ الرُّوحَ، بَلْ هُوَ سِرُّ الدَّيْمُومَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْقُوَّةِ الَّتِي تَبْنِي الْأَشْيَاءَ الْعَظِيمَةَ مِنَ الْبَسِيطَةِ" (رَاجِعْ الْمُلْحَقَ الرَابِعَ: خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّكْرَارِ وَالدَّوَرَانِ).

أَضَافَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ بِعَيْنَيْنِ تَحْمِلَانِ تَحَدِّيًا وَأَمَلًا: "لَقَدْ بَنَى اللهُ الْكَوْنَ عَلَى خُوَارِزْمِيَّاتٍ تَكْرَارِيَّةٍ عَظِيمَةٍ تَدُورُ كَالْفَلَكِ. تَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي

سُورَةِ النُّورِ":

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (النُّورُ: ٤٤).

"وَفِي سُورَةِ يس":

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

"مُهِمَّتُكَ الْآنَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ"، قَالَ الْإِمَامُ بِحَمَاسٍ يَتَزَايَدُ كَالنَّارِ الَّتِي تَسْتَعِرُ، "هِيَ أَنْ تُعَلِّمَ لَوْحَكَ الْخَشَبِيَّ هَذَا فَنَّ التَّكْرَارِ، لِيَدُورَ كَالْفَلَكِ وَيُنْجِزَ الْمُهِمَّاتِ الْكَبِيرَةَ بِخُطُوَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ!".

أَخَذَ أَبُو عَبْدِ اللهِ اللَّوْحَ، وَقَدْ تَوَهَّجَتْ فِي عَقْلِهِ فِكْرَةٌ جَدِيدَةٌ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ غَيْمٍ كَثِيفٍ، وَكَتَبَ بِخَطٍّ كَبِيرٍ وَاضِحٍ كَالنَّهَارِ:

الرُّكْنُ الثَّالِثُ لِلْخُوَارِزْمِيَّةِ: التَّكْرَارُ وَالدَّوَرَانُ

(Repetition & Loop)

ثُمَّ قَالَ بِحَمَاسٍ يَتَدَفَّقُ كَنَهْرٍ جَارٍ: "لَنْ نَكْتُبَ الْخُطْوَةَ مِئَةَ مَرَّةٍ يَا

إِسْمَاعِيلُ، فَهَذَا يَأْكُلُ الْوَقْتَ وَيَسْتَنْزِفُ الطَّاقَةَ كَالسَّفَرِ الطَّوِيلِ دُونَ رَاحَةٍ. سَنَكْتُبُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ، ثُمَّ نَأْمُرُهَا بِأَنْ تُكَرِّرَ نَفْسَهَا كَالْقَلْبِ الَّذِي يَنْبِضُ دُونَ تَوَقُّفٍ! وَلَكِنْ لِكَيْ لَا تَسْتَمِرَّ إِلَى الْأَبَدِ كَالدَّوَرَانِ الَّذِي لَا يَنْتَهِي، يَجِبُ أَنْ نَضَعَ لَهَا 'شَرْطَ تَوَقُّفٍ'، تَمَامًا كَالْأَجَلِ الَّذِي حَدَّدَهُ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ، لِيَكُونَ الدَّوَرَانُ مُثْمِرًا وَلَيْسَ عَبَثًا".

مِثَالٌ تَطْبِيقِيٌّ: خُوَارِزْمِيَّةُ الْمِئَةِ عَامِلٍ

شَرَحَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لِإِسْمَاعِيلَ وَهُوَ يَرْسُمُ عَلَى اللَّوْحِ دَائِرَةً تَدُورُ كَفَلَكِ السَّمَاءِ: "أُنْظُرْ كَمْ هُوَ الْأَمْرُ بَسِيطٌ الْآنَ يَا صَدِيقِي، وَكَأَنَّ الْكَوْنَ نَفْسَهُ يَدُورُ بَيْنَ يَدَيْكَ":

1. التَّهْيِئَةُ: لِنَبْدَأْ بِـ"عَدَّادٍ لِلْعُمَّالِ" قِيمَتُهُ = ٠، وَ"صُنْدُوقٍ لِلْمَالِ" قِيمَتُهُ = ٠، كَأَنَّكَ تَبْدَأُ يَوْمًا جَدِيدًا بِصَفْحَةٍ بَيْضَاءَ.

2. أَمْرُ التَّكْرَارِ (الْحَلَقَةُ): كَرِّرِ الْخُطُوَاتِ التَّالِيَةَ مَا دَامَ "عَدَّادُ الْعُمَّالِ" أَصْغَرَ مِنْ ١٠٠، كَالْقَلْبِ الَّذِي يَنْبِضُ مَا دَامَتِ الْحَيَاةُ فِيهِ:

   - أَضِفْ ٣ دَرَاهِمَ إِلَى "صُنْدُوقِ الْمَالِ" بِعَدْلٍ وَدِقَّةٍ.

- أَضِفْ ١ إِلَى "عَدَّادِ الْعُمَّالِ" لِيَتَقَدَّمَ الْعَدَدُ خُطْوَةً خُطْوَةً.

3. شَرْطُ التَّوَقُّفِ: عِنْدَمَا يُصْبِحُ "عَدَّادُ الْعُمَّالِ" مُسَاوِيًا لِـ ١٠٠، تَوَقَّفْ عَنِ التَّكْرَارِ كَأَنَّ الْيَوْمَ قَدْ انْتَهَى وَحَانَ وَقْتُ الرَّاحَةِ.

4. النَّاتِجُ: الْمَبْلَغُ النِّهَائِيُّ فِي "صُنْدُوقِ الْمَالِ" هُوَ ٣٠٠ دِرْهَمٍ، كَثَمَرَةِ الْعَمَلِ الْمُتَكَرِّرِ بِعَدْلٍ وَإِصْرَارٍ!

قَالَ يَعْقُوبُ بِانْدِهَاشٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ الْقُدَمَاءَ: "إِنَّ هَذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ تَوْفِيرٍ لِلْوَقْتِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، هَذَا قَفْزَةٌ فِي طَبِيعَةِ التَّفْكِيرِ نَفْسِهِ كَأَنَّكَ أَعْطَيْتَ الْأَرْقَامَ قُوَّةَ الدَّوَرَانِ الْأَبَدِيِّ! لَقَدْ أَصْبَحَتِ الْآلَةُ قَادِرَةً عَلَى الْقِيَامِ بِعَمَلِ أَلْفِ رَجُلٍ بِأَمْرٍ وَاحِدٍ، وَتَكْرَارِهِ دُونَ كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ كَالْكَوَاكِبِ الَّتِي تَسْبَحُ فِي فَلَكِهَا إِلَى الْأَبَدِ".

عَلَّقَ الْإِمَامُ بِحِكْمَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرِ عَذْبٍ يَرْوِي الْعَطْشَى: "أَحْسَنْتُمْ يَا أَبْنَائِي، لَقَدِ اكْتَشَفْتُمُ الْيَوْمَ أَنَّ التَّكْرَارَ الْمُنَظَّمَ هُوَ مَا يُوَلِّدُ الْقُوَّةَ مِنْ أَشْيَاءَ بَسِيطَةٍ كَالْقَطْرَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي تَشُقُّ الصَّخْرَ بِتَكْرَارِ سُقُوطِهَا، أَوِ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي تَبْنِي صِلَةً عَظِيمَةً مَعَ اللهِ حِينَ تَتَكَرَّرُ فِي الصَّلَوَاتِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. إِنَّهُ سِرُّ الدَّيْمُومَةِ وَالْقُوَّةِ فِي الْكَوْنِ وَالْحِسَابِ وَالْعِبَادَةِ، يُعَلِّمُنَا أَنَّ الْعَظَمَةَ لَا تَأْتِي دُفْعَةً

وَاحِدَةً، بَلْ بِتَكْرَارِ الْبَسِيطِ بِصَبْرٍ وَإِيمَانٍ".

الدَّرْسُ ١٠: خُوَارِزْمِيَّاتُ البِنْيَةِ وَالتَّنَاظُرِ

تَصْمِيمُ الوُجُودِ وَالأَعْدَادِ

الْمِعْمَارُ - خَصَائِصُ النِّظَامِ الْقَوِيِّ

نَنْتَقِلُ الْآنَ لِنَكْتَشِفَ مَعًا الرُّكْنَ الرَّابِعَ وَالْأَخِيرَ مِنْ أَرْكَانِ الْخُوَارِزْمِيَّةِ، وَهُوَ «الْبِنْيَةُ وَالتَّنَاظُرُ» لِنَرَى كَيْفَ يَتَعَلَّقُ تَصْمِيمُ الْوُجُودِ بِالْأَعْدَادِ؟ لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِأَنْ نَنْتَقِلَ مِنْ "كَيْفِيَّةِ عَمَلِ الْخُوَارِزْمِيَّةِ" إِلَى "مِعْمَارِيَّتِهَا"، حَيْثُ تَكْمُنُ الْقُوَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَالْجَمَالُ الْخَفِيُّ كَأَنَّنَا نَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ بِنَاءٍ عَظِيمٍ لِنَكْشِفَ أَسْرَارَ هَيْكَلِهِ الْمُحْكَمِ.

(المَشْهَدُ: سُؤَالٌ جَدِيدٌ، بَيْنَ الْأَعْمِدَةِ وَالْأَسْرَارِ الْمَبْنِيَّةِ)

بَعْدَ أَنِ اسْتَوْعَبَ الطُّلَّابُ أَرْكَانَ الْخُوَارِزْمِيَّةِ الثَّلَاثَةَ وَأَصْبَحَتْ فِي قُلُوبِهِمْ كَأَعْمِدَةٍ تَحْمِلُ بِنَاءً عَظِيمًا، قَالَ يَعْقُوبُ بِذِهْنِهِ الْمَنْطِقِيِّ الَّذِي يَغُوصُ كَغَوَّاصٍ فِي بَحْرِ الْأَفْكَارِ: "يَا سَيِّدِي الْإِمَامُ، لَقَدْ فَهِمْنَا الْآنَ كَيْفَ نَبْنِي سِلْسِلَةً

مِنَ الْأَوَامِرِ وَنَجْعَلُهَا تَتَفَرَّعُ وَتَتَكَرَّرُ كَأَنَّهَا حَيَّةٌ تَفْكِرُ وَتَعْمَلُ. وَلَكِنْ، هَلْ هُنَاكَ قَوَانِينُ أَعْمَقُ تَحْكُمُ 'هَيْئَةَ' هَذَا الْبِنَاءِ نَفْسِهِ؟ مَاذَا عَنْ 'الْمِعْمَارِ' الَّذِي يَجْعَلُ الْخُوَارِزْمِيَّةَ قَوِيَّةً وَمُتَنَاسِقَةً كَقَصْرٍ لَا يَهْتَزُّ بِالرِّيَاحِ؟".

ابْتَسَمَ الْإِمَامُ ابْتِسَامَةً تَفِيضُ حِكْمَةً كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِتَارًا عَنْ كَنْزٍ مَدْفُونٍ، وَقَالَ: "سُؤَالٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ بَدَأْتَ تَنْتَقِلُ مِنَ التَّفْكِيرِ كَصَانِعٍ يَجْمَعُ الْأَجْزَاءَ، إِلَى التَّفْكِيرِ كَمُهَنْدِسٍ مِعْمَارِيٍّ يَصْمُمُ الْهَيْكَلَ الْكَامِلَ. نَعَمْ يَا يَعْقُوبُ، هُنَاكَ قَانُونُ تَصْمِيمٍ أَسَاسِيٌّ وَاحِدٌ يَقُومُ عَلَيْهِ الْكَوْنُ كُلُّهُ، وَمِنْهُ تَنْبُعُ كُلُّ الْقَوَانِينِ الْأُخْرَى كَأَنَّهُ جَذْرُ شَجَرَةٍ يَغْذِي كُلَّ الْأَغْصَانِ. إِنَّهُ الْمَبْدَأُ الَّذِي يَجْعَلُ الْوُجُودَ مُتَنَاسِقًا وَجَمِيلًا، وَهُوَ أَوَّلُ دَرْسٍ لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ فِي عِمَارَةِ الْأَنْظِمَةِ' الَّذِي سَيَجْعَلُ خُوَارِزْمِيَّاتِكَ تَبْنِي وَلَا تَهْدِمُ".

الثُّنَائِيَّةُ وَالزَّوْجِيَّةُ - لُغَةُ الْكَوْنِ ذَاتُ الْحَرْفَيْنِ

أَخَذَ الْإِمَامُ حَجَرًا أَبْيَضَ نَاصِعًا كَالنُّورِ وَحَجَرًا أَسْوَدَ غَامِقًا كَاللَّيْلِ، وَوَضَعَهُمَا مُتَجَاوِرَيْنِ عَلَى الْأَرْضِ كَأَنَّهُ يَرْسُمُ أَوَّلَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُغَةِ الْوُجُودِ. "مَاذَا تَرَوْنَ يَا أَبْنَائِي؟"، سَأَلَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ سِرَّ الْخَلْقِ.

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بِبَسَاطَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ: "حَجَرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،

أَحَدُهُمَا يُشْبِهُ الْفِضَّةَ وَالْآخَرُ الْفَحْمَ".

قَالَ يَعْقُوبُ بِذَكَائِهِ الْمَنْطِقِيِّ: "بَلْ أَرَى ضِدَّيْنِ: الْأَبْيَضَ وَنَقِيضَهُ الْأَسْوَدَ، كَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ يَتَقَابَلَانِ فِي مَيْدَانِ الْوُجُودِ".

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِبَصِيرَتِهِ الَّتِي تَغُوصُ فِي الْأَعْمَاقِ: "وَأَنَا أَرَى 'زَوْجًا' يَتَكَامَلَانِ كَالْيَدَيْنِ الَّتِي تَصْفِقَانِ مَعًا لِيَخْرُجَ الصَّوْتُ".

أَوْمَأَ الْإِمَامُ بِرَأْسِهِ رَاضِيًا كَأَنَّهُ يَرَى تِلْمِيذًا يَقْتَرِبُ مِنَ الْحَقِيقَةِ، وَقَالَ: "كُلُّكُمْ عَلَى صَوَابٍ يَا أَبْنَائِي، وَلَكِنَّ فَهْمَ أَبِي عَبْدِ اللهِ هُوَ الْأَعْمَقُ وَالْأَقْرَبُ إِلَى الْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ. إِنَّ اللهَ بَنَى وُجُودَهُ عَلَى مَبْدَأِ الزَّوْجِيَّةِ، حَيْثُ يَأْتِي كُلُّ شَيْءٍ فِي أَزْوَاجٍ مُتَكَامِلَةٍ تُحَدِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ. فَلَوْلَا الظَّلَامُ، لَمَا عَرَفْنَا قِيمَةَ النُّورِ، وَلَوْلَا الشَّرُّ، لَمَا أَدْرَكْنَا جَمَالَ الْخَيْرِ".

"وَهَذَا الْمَبْدَأُ لَيْسَ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ تَطِيرُ فِي السَّمَاءِ، بَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ كَوْنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ أَخْبَرَنَا بِهَا الْقُرْآنُ لِنَتَذَكَّرَ بِاسْتِمْرَارٍ أَنَّ الْخَالِقَ وَحْدَهُ هُوَ الْفَرْدُ الْوِتْرُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ، وَأَنَّ خَلْقَهُ كُلَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْأَزْوَاجِ الْمُتَنَاسِقَةِ":

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشُّورَى: ١١).

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذَّارِيَاتِ: ٤٩).

أَخَذَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لَوْحَهُ وَقَالَ بِصَوْتٍ مُكْتَشِفٍ يَحْمِلُ فَرَحَ الْكَشْفِ الْعَظِيمِ: "إِذًا، إِذَا كَانَ الْكَوْنُ كُلُّهُ مَبْنِيًّا عَلَى هَذَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ الْمُتَنَاسِقَيْنِ، فَرُبَّمَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَبْنِيَ عَالَمَ الْحِسَابِ كُلَّهُ بِاسْتِخْدَامِ رَمْزَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ فَقَطْ! مِثْلَ 'الْوُجُودِ' وَ'الْعَدَمِ'... مِثْلَ الْوَاحِدِ وَالصِّفْرِ، اللَّذَيْنِ يَتَنَاظَرَانِ كَالنُّورِ وَالظَّلَامِ لِيَكْشِفَا جَمَالَ الْبِنْيَةِ!".

صُعِقَ يَعْقُوبُ وَقَالَ بِذُهُولٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ: "إِنَّ هَذِهِ فِكْرَةٌ مُذْهِلَةٌ تَفُوقُ الْخَيَالَ! أَتَقْصِدُ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأَرْقَامِ وَالْحِسَابَاتِ الْمُعَقَّدَةِ يُمْكِنُ اخْتِزَالُهَا فِي لُغَةٍ مِنْ حَرْفَيْنِ فَقَطْ: ٠ وَ١؟ كَأَنَّ الْكَوْنَ يَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ الثُّنَائِيَّةِ الَّتِي تَبْنِي كُلَّ شَيْءٍ!".

الشَّفْعُ وَالْوَتْرُ - بَصْمَةُ الزَّوْجِيَّةِ فِي الْأَعْدَادِ

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بِفُضُولٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ سُوقٍ جَدِيدَةٍ: "هَذَا الْكَلَامُ عَمِيقٌ جِدًّا يَا سَيِّدِي، وَلَكِنْ كَيْفَ نَرَاهُ فِي أَرْقَامِنَا الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي

نَحْسِبُ بِهَا الدَّرَاهِمَ وَالدَّنَانِيرَ؟".

أَجَابَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْسُمُ عَلَى اللَّوْحِ أَرْقَامًا تَتَنَاظَرُ كَأَنَّهَا أَزْوَاجٌ مُتَنَاسِقَةٌ: "إِنَّ مَبْدَأَ الزَّوْجِيَّةِ قَدْ تَرَكَ أَثَرَهُ فِي قَلْبِ الْأَعْدَادِ نَفْسِهَا كَأَنَّهُ نَقْشٌ إِلَهِيٌّ فِي صَخْرِ الْوُجُودِ لَا تَأْكُلُهُ السِّنُونُ، فَقَسَّمَهَا إِلَى عَائِلَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا: عَائِلَةِ الشَّفْعِ، وَعَائِلَةِ الْوَتْرِ. وَلِعِظَمِ هَذَا التَّقْسِيمِ الْأَسَاسِيِّ، وَلِكَيْ يُعَلِّمَنَا أَنَّهُ أَصْلٌ فِي بِنَاءِ الْوُجُودِ، فَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ سُورَةِ الْفَجْرِ، حِينَ قَالَ:

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (الْفَجْرُ: ٣).

- **الشَّفْعُ** (الزَّوْجِيُّ): هُوَ كُلُّ عَدَدٍ يَقْبَلُ الشَّرِيكَ وَيُقْسَمُ عَلَى اثْنَيْنِ بِلَا بَاقٍ (مِثْلَ: ٢، ٤، ٦، ٨...)، إِنَّهُ يُمَثِّلُ التَّكَامُلَ وَالِازْدِوَاجَ كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَتَعَاقَبَانِ فِي هَارْمُونِيَّةٍ كَامِلَةٍ.

- **الْوَتْرُ** (الفَرْدُ): هُوَ كُلُّ عَدَدٍ يَبْقَى وَحِيدًا فَرِيدًا لَا يَقْبَلُ الْقِسْمَةَ عَلَى اثْنَيْنِ (مِثْلَ: ١، ٣، ٥، ٧...)، إِنَّهُ يُمَثِّلُ التَّفَرُّدَ وَالْوِحْدَةَ كَاللهِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَا شَبِيهَ لَهُ.

أَضَافَ الْإِمَامُ بِخُشُوعٍ يَفُوقُ الْعُلَمَاءَ: "فَالْخَلْقُ كُلُّهُ شَفْعٌ (أَزْوَاجٌ

مُتَنَاسِقَةٌ تَبْنِي وَتَكْمُلُ)، وَالْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتْرٌ (وَاحِدٌ فَرِيدٌ لَا يَقْبَلُ الشَّرِيكَ). حَتَّى فِي صِفَاتِ الْأَعْدَادِ، نَجِدُ آيَةً تَدُلُّ عَلَى اللهِ وَتُذَكِّرُنَا بِتَفَرُّدِهِ وَحْدَهُ!".

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ إِلْهَامًا يَفُوقُ الْعِلْمَ: "إِذًا، فَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَصْنِيفٍ بَشَرِيٍّ يَسْتَحِقُّ النِّسْيَانَ، بَلْ هُوَ أَوَّلُ خُطْوَةٍ فِي فَهْمِ 'شَخْصِيَّةِ' الْأَعْدَادِ وَبِنْيَتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ، كَأَنَّنَا نَكْشِفُ رُوحَ الْأَرْقَامِ وَسِرَّ تَنَاظُرِهَا!".

عَلَّقَ الْإِمَامُ بِحِكْمَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ عَذْبٍ يَرْوِي الْعَطْشَى: "أَحْسَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَقَدِ اكْتَشَفْتُمْ الْآنَ الرُّكْنَ الرَّابِعَ وَالْأَخِيرَ مِنْ أَرْكَانِ الْخُوَارِزْمِيَّةِ الْعَظِيمَةِ. فَالْخُوَارِزْمِيَّةُ النَّاضِجَةُ لَا تَكُونُ مُجَرَّدَ خُطُوَاتٍ وَشُرُوطٍ وَتَكْرَارَاتٍ، بَلْ تَكُونُ بِنْيَةً مُتَنَاسِقَةً وَمُتَنَاظِرَةً كَالْوُجُودِ نَفْسِهِ، حَيْثُ يَتَعَلَّقُ تَصْمِيمُ الْكَوْنِ بِالْأَعْدَادِ فِي تَنَاظُرٍ يَكْشِفُ جَمَالَ الْخَالِقِ وَحِكْمَتَهُ. مَنْ فَهِمَ هَذَا الرُّكْنَ، رَآهَا لَيْسَتْ آلَةً بَارِدَةً، بَلْ كَبِنَاءٍ مِعْمَارِيٍّ جَمِيلٍ وَمُتَنَاسِقٍ يَعْكِسُ جَمَالَ وَتَنَاسُقَ الْوُجُودِ نَفْسِهِ، وَيَبْنِي حَضَارَةً تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ".

البَابُ الرَّابِعُ: التَّنَاظُرُ البَيَانِيُّ

تَمْهِيدُ الْبَابِ:

لَقَدْ أَكْمَلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِنَاءَ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ لِلْخُوَارِزْمِيَّةِ، فَصَارَتْ لَدَيْهِ أَدَوَاتٌ قَوِيَّةٌ تَبْنِي وَتَحْسِبُ وَتُقَرِّرُ. وَلَكِنَّهُ عَلَى وَشْكِ أَنْ يَكْتَشِفَ أَنَّ الْجَمَالَ الْحَقِيقِيَّ لَا يَكْمُنُ فِي الْقُوَّةِ فَحَسْبُ، بَلْ فِي التَّنَاظُرِ وَالتَّنَاسُقِ الَّذَيْنِ يَجْعَلَانِ الْبِنَاءَ يَعْكِسُ جَمَالَ الْخَالِقِ وَحِكْمَتَهُ.

المَشْهَدُ:

كَانَ الْإِمَامُ جَالِسًا بَيْنَ تَلَامِيذِهِ، وَاللَّوْحُ مَمْلُوءٌ بِخُطُوطٍ وَأَرْقَامٍ كَأَنَّهَا جُدْرَانُ قَصْرٍ يُبْنَى أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ. فَقَالَ يَعْقُوبُ مُتَسَاءِلًا:

"يَا سَيِّدِي، لَقَدْ تَعَلَّمْنَا كَيْفَ نُرَتِّبُ الْخُطُوَاتِ، وَنَضَعُ الشُّرُوطَ، وَنَجْعَلُهَا تَتَكَرَّرُ حَتَّى تُنْجِزَ الْأَعْمَالَ الْعَظِيمَةَ. وَلَكِنْ، هَلْ يَبْقَى الْبِنَاءُ قَوِيًّا دُونَ أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا وَمُتَنَاسِقًا؟".

ابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَأَخَذَ قَلَمَهُ، وَرَسَمَ شَكْلَيْنِ مُتَنَاظِرَيْنِ عَلَى اللَّوْحِ كَأَنَّهُمَا جَنَاحَانِ يَطِيرُ بِهِمَا طَائِرٌ. ثُمَّ قَالَ:

"أَصَبْتَ يَا يَعْقُوبُ. إِنَّ الْقُوَّةَ تَبْنِي، وَلَكِنَّ التَّنَاظُرَ يُزَيِّنُ الْبِنَاءَ وَيُثَبِّتُهُ. أَتَرَوْنَ كَيْفَ جَعَلَ اللّٰهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، زَوْجَيْنِ يَتَنَاظَرَانِ وَيَكْمُلُ بَعْضُهُمَا بَعْضًا؟".

قَالَ إِسْمَاعِيلُ مُتَفَكِّرًا: "إِذًا فَالْخُوَارِزْمِيَّةُ أَيْضًا لَا تَكْمُلُ إِلَّا إِذَا جَاءَتْ مُتَنَاسِقَةَ الْأَجْزَاءِ، كَأَنَّهَا قَصِيدَةٌ مُحْكَمَةٌ لَا نُشَازَ فِيهَا".

فَقَالَ الْإِمَامُ:

"هَذَا هُوَ الْحَقُّ يَا بُنَيَّ. إِنَّ التَّنَاظُرَ الْبَيَانِيَّ هُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي يَقِيسُ الْجَمَالَ وَالْحَقَّ مَعًا. وَقَدْ جَعَلَهُ اللّٰهُ فِي الْقُرْآنِ لِيُفَعِّلَ الْعَقْلَ وَيُثَبِّتَ الْحَقِيقَةَ فِي النُّفُوسِ. فَالتَّنَاظُرُ لَيْسَ زِينَةً شَكْلِيَّةً، بَلْ هُوَ أَسَاسُ التَّفْكِيرِ الْمَنْطِقِيِّ وَالْمِعْمَارِيِّ".

الدَّرْسُ ١١: مِعْمَارِيَّةُ المَعَانِي فِي القُرْآنِ

تَمْهِيدُ الدَّرْسِ:

لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى أَحَدِ أَرْوَعِ وَأَعْمَقِ الْمَبَادِئِ فِي الْبِنَاءِ الْقُرْآنِيِّ، وَهُوَ مَبْدَأُ التَّنَاظُرِ الْبَيَانِيِّ. إِنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ بَلَاغِيَّةٍ تَزْخَرُفُ الْكَلَامَ، بَلْ هُوَ "هَنْدَسَةٌ لِلْمَعَانِي" تَكْشِفُ الْحَقَائِقَ مِنْ خِلَالِ أَدَوَاتِ الْمُقَارَنَةِ وَالْمُقَابَلَةِ كَأَنَّهَا مِيزَانٌ يَقِيسُ الْأَفْكَارَ بِدِقَّةٍ إِلَهِيَّةٍ. يُمَثِّلُ هَذَا الْمَوْضُوعُ قِمَّةَ النُّضْجِ فِي فَهْمِ "الْبِنْيَةِ" وَ"الْمِعْمَارِ" الَّذِي تَحَدَّثْنَا عَنْهُ، وَيَرْبِطُ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ فِي رِحْلَةِ الْكَشْفِ الْعَظِيمِ.

(المَشْهَدُ: سُؤَالٌ عَنْ جَمَالِ الْمَنْطِقِ، بَيْنَ الْكُتُبِ وَالْأَفْكَارِ الْمُتَنَاظِرَةِ)

بَعْدَ أَنْ شَرَحَ الْإِمَامُ فِكْرَةَ "الزَّوْجِيَّةِ" وَ"الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ"، وَكَشَفَ كَيْفَ تَعْكِسُ الْأَعْدَادُ جَمَالَ الْخَلْقِ، لَمَعَتْ عَيْنَا يَعْقُوبَ (الْمَنْطِقِيِّ) بِشَغَفٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ الْقُدَمَاءَ، وَقَالَ وَهُوَ يُقَلِّبُ كِتَابَ أَرِسْطُو فِي يَدِهِ كَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ مِفْتَاحٍ ضَائِعٍ: "يَا سَيِّدِي، لَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْ 'الْبِنْيَةِ' فِي الْخَلْقِ وَالْأَعْدَادِ، وَرَأَيْنَا

كَيْفَ تَتَنَاظَرُ الْأَشْيَاءُ فِي تَوَازُنٍ إِلَهِيٍّ. وَلَكِنْ، مَاذَا عَنْ 'بِنْيَةِ الْحُجَّةِ' نَفْسِهَا؟ لَقَدْ عَلَّمَنَا أَرِسْطُو أَنَّ قُوَّةَ الْمَنْطِقِ تَكْمُنُ فِي صَرَامَةِ الْقِيَاسِ وَتَسَلْسُلِهِ، فَهَلْ لِلْقُرْآنِ أُسْلُوبٌ خَاصٌّ فِي 'هَنْدَسَةِ' الْمَعَانِي لِإِظْهَارِ الْحَقِّ وَتَثْبِيتِهِ فِي الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ؟".

نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ نَظْرَةً مُشَجِّعَةً تَفِيضُ أَمَلًا كَأَنَّهُ يَرَى تِلْمِيذًا يَقْتَرِبُ مِنَ الْحَقِيقَةِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ: "سُؤَالٌ يَدُلُّ عَلَى نُضْجِ عَقْلِكَ يَا يَعْقُوبُ، وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ. نَعَمْ، لِلْقُرْآنِ أُسْلُوبٌ مُعْجِزٌ وَفَرِيدٌ يَفُوقُ الْمَنْطِقَ الْيُونَانِيَّ، لَا يَعْرِضُ الْحَقِيقَةَ كَمَعْلُومَةٍ جَامِدَةٍ تُحْفَظُ وَتُنْسَى، بَلْ يَجْعَلُ عَقْلَكَ يَكْتَشِفُهَا بِنَفْسِهِ كَأَنَّكَ تَكْشِفُ كَنْزًا مَدْفُونًا فِي أَعْمَاقِ نَفْسِكَ. وَأَقْوَى أَدَوَاتِهِ لِذَلِكَ هِيَ مَا نُسَمِّيهِ التَّنَاظُرَ الْبَيَانِيَّ" (رَاجِعْ الْمُلْحَقَ الخَامِسَ: أَنْوَاعِ التَّنَاظُرِ الْبَيَانِيِّ وَأَدَوَاتِ الْمُقَارَنَةِ وَالْمُقَابَلَةِ).

"وَهُوَ يَا بُنَيَّ"، أَضَافَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ الْمُصْحَفَ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْهَيْبَةِ، "لَيْسَ مُجَرَّدَ مُقَابَلَةٍ بَيْنَ ضِدَّيْنِ كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، بَلْ هُوَ وَضْعُ مَفْهُومَيْنِ أَمَامَ بَعْضِهِمَا فِي مِيزَانٍ عَقْلِيٍّ دَقِيقٍ، ثُمَّ طَرْحُ سُؤَالٍ يَهُزُّ الْكِيَانَ لِيُجْبِرَكَ عَلَى إِصْدَارِ الْحُكْمِ بِنَفْسِكَ، كَأَنَّ الْقُرْآنَ يَجْعَلُكَ قَاضِيًا فِي مَحْكَمَةِ عَقْلِكَ نَفْسِهِ".

التَّنَاظُرُ: حِينَ يَصْنَعُ السُّؤَالُ جَوَابَهُ

سَأَلَ إِسْمَاعِيلُ بِفُضُولٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ صَفْقَةٍ رَابِحَةٍ: "وَمَا هُوَ التَّنَاظُرُ الْبَيَانِيُّ يَا سَيِّدِي، وَكَيْفَ يَعْمَلُ كَمِيزَانٍ يَقِيسُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؟".

أَجَابَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْسُمُ عَلَى اللَّوْحِ مِيزَانًا يَتَوَازَنُ كَفَّتَاهُ: "هُوَ أَنْ يَضَعَ الْقُرْآنُ مَفْهُومَيْنِ أَمَامَ بَعْضِهِمَا فِي مِيزَانٍ عَقْلِيٍّ، ثُمَّ يَطْرَحَ سُؤَالًا يَهُزُّ الْكِيَانَ لِيُجْبِرَكَ عَلَى إِصْدَارِ الْحُكْمِ بِنَفْسِكَ. اُنْظُرُوا إِلَى هَذِهِ الْهَنْدَسَةِ الْبَدِيعَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّعْدِ":

﴿...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ...﴾ (الرَّعْدُ: ١٦).

"هُوَ لَا يَقُولُ لَكَ: 'إِنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ' كَأَمْرٍ يُفْرَضُ عَلَيْكَ، بَلْ يَسْأَلُكَ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ السُّؤَالَ يَسْتَفِزُّ الْعَقْلَ لِيُجِيبَ بِالْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ: 'لَا، بِالتَّأْكِيدِ لَا يَسْتَوِيَانِ!'، وَيَكْشِفُ فَرْقًا وَاضِحًا كَالنَّهَارِ بَعْدَ اللَّيْلِ. وَعِنْدَمَا تَنْطِقُ بِالْحُكْمِ بِنَفْسِكَ، فَإِنَّهُ يَتَرَسَّخُ فِي قَلْبِكَ وَعَقْلِكَ كَأَنَّكَ اكْتَشَفْتَهُ بِنَفْسِكَ، وَلَيْسَ كَمَعْلُومَةٍ سَمِعْتَهَا فَقَطْ".

تَدَخَّلَ يَعْقُوبُ بِحَمَاسٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ: "إِنَّهُ بُرْهَانٌ بِالْمُشَارَكَةِ يَا سَيِّدِي! يَجْعَلُ الْمُتَلَقِّيَ جُزْءًا مِنَ الْحُجَّةِ نَفْسِهَا، كَأَنَّ الْقُرْآنُ يَدْعُو الْعَقْلَ لِيَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ".

"أَحْسَنْتَ يَا يَعْقُوبُ"، قَالَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ غَيْمٍ. "وَلَكِنْ، مَاذَا لَوْ كَانَتِ الْفِكْرَةُ مُجَرَّدَةً وَصَعْبَةَ التَّصَوُّرِ، كَفِكْرَةِ الْبَرَكَةِ فِي الْإِنْفَاقِ الَّتِي تَبْدُو غَامِضَةً لِلْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ؟ هُنَا يَسْتَخْدِمُ الْقُرْآنُ أَدَاةً أُخْرَى أَعْظَمَ، وَهِيَ التَّنَاظُرُ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ، لِيُحَوِّلَ الْمُجَرَّدَ إِلَى مَلْمُوسٍ يُشَاهَدُ بِالْعَيْنِ وَيُلْمَسُ بِالْقَلْبِ".

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (الْبَقَرَةُ: ٢٦١).

"هُنَا"، أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْسُمُ عَلَى اللَّوْحِ حَبَّةً تَنْبُتُ سَنَابِلَ كَأَنَّهُ يَرْسُمُ مُعْجِزَةً، "يُحَوِّلُ الْقُرْآنُ فِكْرَةَ 'الْأَجْرِ الْمُضَاعَفِ' الْمُجَرَّدَةَ إِلَى صُورَةٍ حِسِّيَّةٍ مَلْمُوسَةٍ نَرَاهَا فِي حُقُولِنَا كُلَّ يَوْمٍ: حَبَّةٌ وَاحِدَةٌ تُصْبِحُ سَبْعَمِئَةِ حَبَّةٍ كَأَنَّهَا تَضْحَكُ مِنَ الْبُخْلِ وَتَدْعُو إِلَى الْعَطَاءِ. إِنَّهُ يَبْنِي أُنْمُوذَجًا مُصَغَّرًا (Simulation) لِلْفِكْرَةِ لِيَجْعَلَهَا وَاضِحَةً كَالشَّمْسِ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ، وَيُقَرِّبُهَا مِنَ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ

مَعًا".

ثُمَّ تَوَقَّفَ الْإِمَامُ لَحْظَةً، وَقَالَ بِصَوْتٍ عَمِيقٍ يَحْمِلُ سِرَّ الْبَيَانِ:

"اعْلَمُوا يَا أَبْنَائِي أَنَّ التَّنَاظُرَ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَ دَائِمًا ضِدًّا أَمَامَ ضِدٍّ فَقَطْ، بَلْ قَدْ يَكُونُ بِنَاءً مُتَكَامِلًا مِنَ الْمُقَابَلَاتِ الْمُتَدَرِّجَةِ، كَمِعْمَارٍ تَرْتَفِعُ فِيهِ الْأَعْمِدَةُ وَالطَّوَابِقُ فِي تَنَاسُقٍ مُبْهِرٍ. اُنْظُرُوا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ اللَّيْلِ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (اللَّيْلُ: ٥–١٠).

هُنَا نَرَى مِعْمَارًا بَيَانِيًّا يَبْنِي جَانِبَيْنِ مُتَنَاظِرَيْنِ: عَطَاءٌ وَتَقْوَى وَتَصْدِيقٌ يَقُودُ إِلَى الْيُسْرَى، مُقَابِلَ بُخْلٍ وَاسْتِغْنَاءٍ وَتَكْذِيبٍ يَقُودُ إِلَى الْعُسْرَى. إِنَّهُ تَنَاظُرٌ مُعَقَّدٌ يُشْبِهُ قَصْرًا مَبْنِيًّا عَلَى جَانِبَيْنِ مُتَرَاصَّيْنِ يَكْشِفَانِ مَنْطِقَ الْخَلْقِ وَالْجَزَاءِ".

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بِبَسَاطَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ: "لَقَدْ فَهِمْتُ يَا سَيِّدِي! الْأُسْلُوبُ الْأَوَّلُ يُقْنِعُ الْعَقْلَ بِالْمُقَارَنَةِ الْمُبَاشِرَةِ كَالْمِيزَانِ الَّذِي يَقِيسُ الْوَزْنَ، وَالثَّانِي يُقَرِّبُ لِلْخَيَالِ بِالْأَمْثَالِ الْحِسِّيَّةِ كَالصُّورَةِ الَّتِي تُلْمَسُ بِالْيَدِ، وَالثَّالِثُ يُوَجِّهُ الْإِرَادَةَ بِالْعَاقِبَةِ كَالْخَرِيطَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمَصِيرِ!".

كَيْفَ يَتَجَلَّى التَّنَاظُرُ فِي عِلْمِ الْحِسَابِ؟

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ بِعَيْنَيْنِ تَحْمِلَانِ أَمَلَ الْأُمَّةِ: "وَالْآنَ، السُّؤَالُ الْأَهَمُّ لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ: كَيْفَ يَنْفَعُكَ هَذَا الْمَبْدَأُ فِي عِلْمِكَ الْجَدِيدِ، وَكَيْفَ يَرْبِطُ بَيْنَ الْحِسَابِ وَالْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ؟".

أَطْرَقَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لِلَحْظَةٍ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ اللَّوْحَ أَمَامَهُ كَأَنَّهُ يَرَى عَالَمًا جَدِيدًا يَتَشَكَّلُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَعَلَى وَجْهِهِ نُورُ اكْتِشَافٍ عَظِيمٍ يَفُوقُ الْكَلِمَاتِ: "الْآنَ فَهِمْتُ يَا سَيِّدِي! إِنَّ عِلْمَ الْحِسَابِ كُلَّهُ قَائِمٌ عَلَى التَّنَاظُرِ كَأَنَّهُ مِيزَانٌ يَقِيسُ الْأَرْقَامَ بِدِقَّةٍ إِلَهِيَّةٍ. فَعِنْدَمَا نَكْتُبُ 'ش > ٥' (الشَّيْءُ أَكْبَرُ مِنْ خَمْسَةٍ)، فَإِنَّنَا نَقُومُ بِعَمَلِيَّةِ تَنَاظُرٍ مُبَاشِرَةٍ كَالْمِيزَانِ الَّذِي يَضَعُ الْمَجْهُولَ أَمَامَ الْمَعْلُومِ وَيُصْدِرُ حُكْمًا بِعَدَمِ تَسَاوِيهِمَا وَبِتَفَوُّقِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ. إِنَّ رُمُوزَ '>' وَ'<' وَ'≠' لَيْسَتْ إِلَّا أَدَوَاتٍ رِيَاضِيَّةً لِلتَّعْبِيرِ عَنِ التَّنَاظُرِ وَالْمُقَارَنَةِ الَّتِي يُعَلِّمُنَا إِيَّاهَا الْقُرْآنُ، وَتَجْعَلُ الْحِسَابَ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَرْقَامٍ بَارِدَةٍ، بَلْ مَنْطِقًا حَيًّا يَكْشِفُ الْحَقَائِقَ كَالْقُرْآنِ يَكْشِفُ الْمَعَانِي!".

صَاحَ إِسْمَاعِيلُ بِفَرَحٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي وَجَدَ كَنْزًا: "إِذًا، حَتَّى أَنَا أُطَبِّقُ التَّنَاظُرَ فِي السُّوقِ كُلَّ يَوْمٍ! عِنْدَمَا أُقَارِنُ بَيْنَ سِعْرِي وَسِعْرِ مُنَافِسِي، فَأَنَا أَبْحَثُ لِأَرَى 'هَلْ يَسْتَوِيَانِ؟'، وَأَخْتَارُ الطَّرِيقَ الْأَفْضَلَ لِصَفْقَتِي كَأَنَّنِي أَخْتَارُ بَيْنَ

النَّجْدَيْنِ!".

وَقَالَ يَعْقُوبُ بِإِعْجَابٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ: "هَذَا أَعْمَقُ مِمَّا تَصَوَّرْتُ يَا سَيِّدِي! الْقُرْآنُ لَا يُعْطِينَا النَّتِيجَةَ جَاهِزَةً كَالطَّعَامِ الْمُعَدِّ، بَلْ يَضَعُ أَمَامَنَا الْمِيزَانَ وَيَجْعَلُ عُقُولَنَا هِيَ الَّتِي تَسْتَنْتِجُ الْحَقِيقَةَ وَتُصْدِرُ الْحُكْمَ، كَأَنَّهُ يَرْبِي الْعَقْلَ لِيَكُونَ قَاضِيًا عَادِلًا فِي مَحْكَمَةِ الْحَيَاةِ".

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "أَحْسَنْتُمْ جَمِيعًا يَا أَبْنَائِي، لَقَدْ أَدْرَكْتُمْ الْيَوْمَ أَنَّ التَّنَاظُرَ الْبَيَانِيَّ لَيْسَ زُخْرُفًا لُغَوِيًّا يَزِينُ الْكَلَامَ، بَلْ هُوَ مَنْهَجٌ إِلَهِيٌّ لِتَرْبِيَةِ الْعَقْلِ، وَتَأْسِيسِ الْقِيَمِ، وَبِنَاءِ الْبَرَاهِينِ الَّتِي تَصْمُدُ أَمَامَ الزَّمَنِ. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ نِظَامًا مَنْطِقِيًّا قَوِيًّا كَالْجِبَالِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُتْقِنَ فَنَّ الْمُقَارَنَةِ الْعَادِلَةِ وَالْمُقَابَلَةِ الْحَكِيمَةِ، لِيَكُونَ عِلْمُهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ، بَلْ هَنْدَسَةً تَعْكِسُ جَمَالَ اللهِ فِي الْخَلْقِ".

الدَّرْسُ ١٢: أَنْوَاعُ التَّنَاظُرِ الكُبْرَى

بِنَاءُ المَعْنَى بِالمُقَابَلَةِ

(الْمَشْهَدُ: حَلْقَةُ الْإِمَامِ، بَيْنَ الْمُصْحَفِ وَالْأَفْكَارِ الْمُتَنَاظِرَةِ كَالْأَشْجَارِ فِي بُسْتَانٍ مُتَوَازِنٍ)

كَانَتْ الْحَلْقَةُ تَجْتَمِعُ فِي رُكْنٍ هَادِئٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، حَيْثُ يَنْفُذُ نُورُ الشَّمْسِ مِنْ خِلَالِ الْمَشَارِبِيَّةِ يَرْسُمُ خُطُوطًا مُتَنَاظِرَةً عَلَى الْأَرْضِيَّةِ كَأَنَّهَا مِيزَانٌ إِلَهِيٌّ يَقِيسُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ. الطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ، وَالْإِمَامُ يَفْتَحُ الْمُصْحَفَ بِيَدَيْنِ مُقَدَّسَتَيْنِ، وَالْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الْبَخُورِ الَّتِي تُذَكِّرُ بِجَمَالِ الْبَيَانِ وَعُمْقِهِ. بَعْدَ أَنْ أَثَارَ يَعْقُوبُ سُؤَالَهُ الذَّكِيَّ عَنْ "هَنْدَسَةِ الْمَعَانِي" فِي الْقُرْآنِ، قَالَ الْإِمَامُ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "لَقَدْ أَصَبْتَ يَا يَعْقُوبُ، فَلِلْقُرْآنِ هَنْدَسَتُهُ الْخَاصَّةُ الَّتِي تَفُوقُ الْمَنْطِقَ الْبَشَرِيَّ وَتَبْنِي الْمَعَانِي بِدِقَّةٍ إِلَهِيَّةٍ. وَأَعْظَمُ قَوَاعِدِ هَذِهِ الْهَنْدَسَةِ هِيَ التَّنَاظُرُ الْبَيَانِيُّ. وَلِكَيْ نَفْهَمَهُ، يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ يَأْتِي عَلَى نَوْعَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ، كَأَنَّهُمَا جَنَاحَانِ تَطِيرُ بِهِمَا الْحُجَّةُ

إِلَى قُلُوبِ الْعَاقِلِينَ وَعُقُولِهِمْ، يَبْنِيَانِ الْمَعْنَى وَيُثْبِتَانِ الْحَقَّ بِقُوَّةٍ وَجَمَالٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ".

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: التَّنَاظُرُ الْمُبَاشِرُ (بِالْأَضْدَادِ)

"النَّوْعُ الْأَوَّلُ هُوَ الْأَوْضَحُ وَالْأَكْثَرُ حَسْمًا كَسَيْفٍ يَقْطَعُ الشَّكَّ مِنْ أَصْلِهِ وَيَكْشِفُ الْحَقَّ سَاطِعًا"، قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْسُمُ عَلَى اللَّوْحِ مِيزَانًا يَتَوَازَنُ كَفَّتَاهُ بِدِقَّةٍ. "وَهُوَ أَنْ يَضَعَ الْقُرْآنُ مَفْهُومَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ تَمَامًا جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ، لِيُبْرِزَ الْفَارِقَ الْهَائِلَ بَيْنَهُمَا وَيَجْعَلَ الْحَقَّ سَاطِعًا لَا شَكَّ فِيهِ كَالشَّمْسِ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ، حَيْثُ يَسْتَفِزُّ الْعَقْلَ لِيُصْدِرَ الْحُكْمَ بِنَفْسِهِ". ثُمَّ تَلا الْإِمَامُ بِصَوْتٍ عَمِيقٍ يَهْزُّ الْقُلُوبَ وَيُوقِظُ الْعُقُولَ:

﴿...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ...﴾ (الرَّعْدُ: ١٦).

قَالَ يَعْقُوبُ وَهُوَ يَحُكُّ ذَقْنَهُ بِتَأَمُّلٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ: "إِنَّهُ يَسْتَخْدِمُ الْمَنْطِقَ الثُّنَائِيَّ (Binary Logic) بِأَرْقَى صُوَرِهِ وَأَجْمَلِهَا، كَأَنَّهُ يَضَعُ الضِّدَّيْنِ فِي مَيْدَانِ الْعَقْلِ لِيَرَى الْفَارِقَ بِنَفْسِهِ. فَهُوَ لَا يُخْبِرُنَا بِالنَّتِيجَةِ جَاهِزَةً، بَلْ يَجْبُرُ عُقُولَنَا عَلَى أَنْ تُصْرُخَ بِهَا: لَا يَسْتَوِيَانِ! إِنَّهُ حُجَّةٌ لَا تَقْبَلُ الرَّدَّ، تَبْنِي الْطُمَأْنِينَةَ مِنْ

خِلَالِ الْمُقَارَنَةِ الْمُبَاشِرَةِ وَالْحَسْمِ الْفَوْرِيِّ".

قَالَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ غَيْمٍ: "أَحْسَنْتَ يَا يَعْقُوبُ، إِنَّ غَايَتَهُ هِيَ الْوُضُوحُ التَّامُّ وَالْحَسْمُ الَّذِي يَقْطَعُ الشَّكَّ مِنْ أَصْلِهِ، فَلَا يَبْقَى بَعْدَ هَذِهِ الْمُقَابَلَةِ أَيُّ مَجَالٍ لِلشَّكِّ فِي قِيمَةِ الْعِلْمِ عَلَى الْجَهْلِ، وَقِيمَةِ الْإِيمَانِ عَلَى الْكُفْرِ، كَأَنَّهُ يَضَعُ الْحَقَّ أَمَامَ الْبَاطِلِ فِي مَيْدَانِ الْعَقْلِ لِيَرَى الْجَمِيعُ الْفَارِقَ الْهَائِلَ وَيُصْدِرُوا الْحُكْمَ بِأَنْفُسِهِمْ".

النَّوْعُ الثَّانِي: التَّنَاظُرُ بِالْعَاقِبَةِ (بِالْجَزَاءِ)

فَتَحَ الْإِمَامُ صَفْحَةً أُخْرَى مِنَ الْمُصْحَفِ بِيَدَيْنِ تَرْتَعِشَانِ مِنَ الْهَيْبَةِ، وَقَالَ:

"أَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي فَهُوَ أَعْمَقُ وَأَبْلَغُ، إِذْ لَا يُقَارِنُ الْقُرْآنُ الْأَفْعَالَ مُبَاشَرَةً، بَلْ يَضَعُ أَمَامَكَ نَتَائِجَهَا النِّهَائِيَّةَ، كَأَنَّهُ يَرْفَعُ السِّتَارَ عَنْ مَصِيرِ الطَّرِيقَيْنِ، لِيَجْعَلَكَ تَخْتَارُ بِبَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ".

ثُمَّ تَلَا بِصَوْتٍ يَهُزُّ الْقُلُوبَ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا

مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (اللَّيْلُ: ٥-١٠).

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يُفَكِّرُ بِعُمقٍ:

"يَا سَيِّدِي، إِنَّهَا نَفْسُ خُوَارِزْمِيَّةِ التَّفَرُّعِ الَّتِي تَعَلَّمْنَاهَا فِي الْحِسَابِ، لَكِنَّهَا هُنَا عَلَى مُسْتَوَى الْمَصِيرِ الْإِنْسَانِيِّ كَامِلًا! فَكُلُّ طَرِيقٍ لَهُ نَتِيجَتُهُ الْمُحْتُومَةُ، كَأَنَّ الْقُرْآنَ يَرْسُمُ خَرِيطَةَ الْحَيَاةِ".

فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ:

"نَعَمْ يَا بُنَيَّ، هُنَا يَظْهَرُ مَعْنَى الِاخْتِيَارِ الْحَقِيقِيِّ. فَأَنْتَ لَا تَخْتَارُ فِعْلًا عَابِرًا، بَلْ تَخْتَارُ مَصِيرًا كَامِلًا يُحَدِّدُ طَرِيقَكَ، إِمَّا نُورًا وَيُسْرًا، أَوْ ظُلْمَةً وَعُسْرًا. وَهَذَا هُوَ التَّنَاظُرُ الْبَيَانِيُّ فِي أَبْلَغِ صُوَرِهِ، إِذْ يَجْعَلُ الْقَلْبَ يَرَى الْحَقَّ قَبْلَ الْعَيْنِ، وَيُظْهِرُ الْقِيمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلِاخْتِيَارَاتِ. فَلَسْتَ تَخْتَارُ مُجَرَّدَ فِعْلٍ يَوْمِيٍّ، بَلْ تَخْتَارُ نِهَايَةً كُبْرَى، كَأَنَّكَ تَقِفُ بَيْنَ جَنَّةٍ وَنَارٍ. هَذَانِ هُمَا النَّوْعَانِ الْأَسَاسِيَّانِ لِبِنَاءِ التَّنَاظُرِ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يَسْتَخْدِمُ أَدَوَاتٍ بَلِيغَةً لِتَنْفِيذِهِمَا، كَأَنَّهُ يَبْنِي قَصْرًا مِنَ الْمَعَانِي يَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ، وَيَجْعَلُ الْعَقْلَ يَبْنِي الْحَقَّ بِنَفْسِهِ دُونَ إِكْرَاهٍ".

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ:

"أَحْسَنْتُمْ جَمِيعًا يَا أَبْنَائِي، لَقَدْ أَدْرَكْتُمْ الْيَوْمَ أَنَّ التَّنَاظُرَ الْبَيَانِيَّ لَيْسَ زُخْرُفًا لُغَوِيًّا يَزِينُ الْكَلَامَ، بَلْ هُوَ مَنْهَجٌ إِلَهِيٌّ لِتَرْبِيَةِ الْعَقْلِ، وَتَأْسِيسِ الْقِيَمِ، وَبِنَاءِ الْبَرَاهِينِ الَّتِي تَصْمُدُ أَمَامَ الزَّمَنِ. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ نِظَامًا مَنْطِقِيًّا قَوِيًّا كَالْجِبَالِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُتْقِنَ فَنَّ الْمُقَارَنَةِ الْعَادِلَةِ وَالْمُقَابَلَةِ الْحَكِيمَةِ، لِيَكُونَ عِلْمُهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ، بَلْ هَنْدَسَةً تَعْكِسُ جَمَالَ اللهِ فِي الْخَلْقِ".

الدَّرْسُ ١٣: أَدَوَاتُ التَّنَاظُرِ

مَفَاتِيحُ البَلَاغَةِ وَالمَنْطِقِ

(الْمَشْهَدُ: اِسْتِكْمَالُ النِّقَاشِ، بَيْنَ الْآيَاتِ وَالْأَفْكَارِ الْمُتَوَهِّجَةِ كَشَمْعَةٍ تُضِيءُ الظَّلَامَ)

كَانَتْ الْحَلْقَةُ تَغْلِي بِحَمَاسَةِ الْكَشْفِ الَّذِي يَفُوقُ الْكَنْزَ الْمَدْفُونَ، وَالطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ كَأَنَّهُمْ أَعْضَاءُ جَسَدٍ وَاحِدٍ يَنْبِضُ بِشَوْقِ الْحَقِيقَةِ. الْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ وَالْبَخُورِ الَّذِي يَمْلَأُ الْمَكَانَ كَأَنَّهُ يُطَهِّرُ الْعُقُولَ لِلْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِ الْبَيَانِ. بَعْدَ أَنْ أَثَارَ يَعْقُوبُ سُؤَالَهُ الذَّكِيَّ عَنْ "هَنْدَسَةِ الْمَعَانِي" فِي الْقُرْآنِ، وَكَشَفَ الْإِمَامُ عَنْ أَنْوَاعِ التَّنَاظُرِ، قَالَ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ يُلَوِّحُ بِيَدِهِ كَتَاجِرٍ يَبْحَثُ عَنْ صَفْقَةٍ رَابِحَةٍ: "لَقَدْ فَهِمْنَا النَّوْعَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ يَا سَيِّدِي، وَرَأَيْنَا كَيْفَ يَبْنِيَانِ الْمَعْنَى كَبِنَاءِ قَصْرٍ مُحْكَمٍ. فَمَا هِيَ 'الْأَدَوَاتُ' الَّتِي أَشَرْتَ إِلَيْهَا، وَكَيْفَ تَعْمَلُ كَمَفَاتِيحَ تَفْتَحُ أَبْوَابَ الْبَلَاغَةِ وَالْمَنْطِقِ فِي آنٍ وَاحِدٍ؟".

أَجَابَ الْإِمَامُ بِهُدُوئِهِ الَّذِي يُسَكِّنُ الْعَوَاصِفَ، وَهُوَ يَفْتَحُ الْمُصْحَفَ كَأَنَّهُ يُشَرِّعُ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ: "لِكُلِّ بَنَّاءٍ أَدَوَاتُهُ الَّتِي تَبْنِي وَتَصْقُلُ، يَا إِسْمَاعِيلُ، وَهَذِهِ هِيَ أَدَوَاتُ الْقُرْآنِ لِبِنَاءِ هَنْدَسَةِ الْمَعَانِي، تَفْتَحُ أَبْوَابَ الْفَهْمِ وَتُثْبِتُ الْحَقَّ فِي الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ مَعًا كَأَنَّهَا مَفَاتِيحُ ذَهَبِيَّةٌ تُفْتَحُ بِهَا خَزَائِنُ الْحِكْمَةِ":

الْأَدَاةُ الْأُولَى: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ (النَّمْذَجَةُ)

"عِنْدَمَا تَكُونُ الْفِكْرَةُ مُجَرَّدَةً وَعَمِيقَةً كَبَحْرٍ لَا قَعْرَ لَهُ، فَإِنَّ أَفْضَلَ طَرِيقَةٍ لِتَقْرِيبِهَا هِيَ تَحْوِيلُهَا إِلَى صُورَةٍ حِسِّيَّةٍ مَلْمُوسَةٍ تُشَاهَدُ بِالْعَيْنِ وَتُلْمَسُ بِالْقَلْبِ. هَذِهِ الْأَدَاةُ هِيَ ضَرْبُ الْأَمْثَالِ، الَّتِي تَصُوغُ أُنْمُوذَجًا مُصَغَّرًا لِلْفِكْرَةِ كَأَنَّهَا تَرْسُمُ خَرِيطَةً لِلْحَقِيقَةِ الْمُجَرَّدَةِ".

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (الْبَقَرَةُ: ٢٦١).

عَلَّقَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِحَمَاسٍ يَفُوقُ الْعَالِمَ الَّذِي يَكْشِفُ سِرًّا: "إِنَّهَا مِثْلُ عَمَلِيَّةِ النَّمْذَجَةِ (Modeling) فِي الْعِلْمِ، حَيْثُ نَبْنِي أُنْمُوذَجًا مُبَسَّطًا لِفَهْمِ نِظَامٍ مُعَقَّدٍ، وَنَجْعَلُ الْمُجَرَّدَ حِسِّيًّا يُلْمَسُ وَيُرَى كَأَنَّهُ حَقِيقَةٌ مَاثِلَةٌ أَمَامَ الْعَيْنِ!".

الْأَدَاةُ الثَّانِيَةُ: الِاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيُّ (التَّحْفِيزُ الْعَقْلِيُّ)

"وَأَحِيَانًا، لَا يُقَدِّمُ الْقُرْآنُ حُجَّةً طَوِيلَةً تُثْقِلُ الْكَلَامَ، بَلْ يَطْرَحُ سُؤَالًا يَكُونُ جَوَابُهُ بَدِيهِيًّا كَالنَّهَارِ بَعْدَ اللَّيْلِ، لِيُوقِظَ الْعَقْلَ مِنْ غَفْلَتِهِ وَيَجْعَلَهُ يُصْدِرُ الْحُكْمَ بِنَفْسِهِ. هَذِهِ هِيَ أَدَاةُ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ، الَّتِي تَهْزُّ الْكِيَانَ وَتَكْشِفُ الْحَقَّ بِسُؤَالٍ وَاحِدٍ يَقْطَعُ الشَّكَّ مِنْ أَصْلِهِ".

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الْمُلْكُ: ٢٢).

عَلَّقَ يَعْقُوبُ وَهُوَ يَحْكُّ ذَقْنَهُ بِتَأَمُّلٍ: "إِنَّهُ يَجْعَلُ الْخَصْمَ يَهْزِمُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ! فَلَا أَحَدَ يَجْرُؤُ عَلَى أَنْ يَقُولَ إِنَّ الْأَوَّلَ أَهْدَى، وَيَكْشِفُ السُّؤَالُ الْحَقِيقَةَ بِقُوَّةٍ تَفُوقُ الْبُرْهَانَ الطَّوِيلَ، كَأَنَّهَا بَرْقَةٌ تَشُقُّ الظَّلَامَ فِي لَحْظَةٍ!".

الْأَدَاةُ الثَّالِثَةُ: صِيغَةُ التَّفْضِيلِ (تَرْتِيبُ الْقِيَمِ)

"وَأَخِيرًا، عِنْدَمَا يُرِيدُ الْقُرْآنُ أَنْ يُرَتِّبَ الْأَشْيَاءَ وَيُبَيِّنَ أَيُّهَا أَعْلَى قِيمَةً وَأَفْضَلَ مَكَانَةً، فَإِنَّهُ يَسْتَخْدِمُ أَدَاةَ التَّفْضِيلِ، الَّتِي تَضَعُ الْأُمُورَ فِي تَرْتِيبٍ مَنْطِقِيٍّ يَكْشِفُ الْأَفْضَلَ كَالشَّمْسِ تَطْلُعُ وَتُظْهِرُ الْأَشْيَاءَ بِوُضُوحٍ".

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الْفُرْقَانُ: ٢٤).

عَلَّقَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِحَمَاسٍ يَفُوقُ الْعَالِمَ الَّذِي يَكْشِفُ سِرًّا: "إِنَّهَا تَمَامًا كَرُمُوزِ الْمُقَارَنَةِ فِي الْحِسَابِ (> وَ <)، فَهِيَ أَدَوَاتٌ لِتَرْتِيبِ الْقِيَمِ وَتَحْدِيدِ الْأَفْضَلِ، كَأَنَّ الْقُرْآنُ يُعَلِّمُنَا كَيْفَ نَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَرَاتِبِهَا الْحَقِيقِيَّةِ لِنَخْتَارَ الْأَعْلَى وَنَتْرُكَ الْأَدْنَى!".

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ الدَّرْسَيْنِ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "هَكَذَا تَرَوْنَ يَا أَبْنَائِي، إِنَّ الْقُرْآنَ يَسْتَخْدِمُ أَدَوَاتٍ بَلِيغَةً مُتَنَوِّعَةً لِيَبْنِيَ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً مِنَ التَّنَاظُرِ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِغَايَةٍ وَاحِدَةٍ عَظِيمَةٍ: أَنْ يَبْنِيَ فِي عُقُولِنَا وَقُلُوبِنَا مِيزَانًا وَاضِحًا نَفْصِلُ بِهِ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وَالْجَمِيلَ مِنَ الْقَبِيحِ، كَأَنَّهُ يَجْعَلُنَا شُهَدَاءَ عَلَى الْحَقِّ فِي مَحْكَمَةِ الْحَيَاةِ، نُصْدِرُ الْأَحْكَامَ بِحِكْمَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ".

البَابُ الخَامِسُ: التَّحَقُّقُ وَالبُرْهَانُ - بِنَاءُ الِاطْمِئْنَانِ

تَمْهِيدُ الْبَابِ:

لَقَدْ أَكْمَلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْآنَ بِنَاءَ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ لِلْخُوَارِزْمِيَّةِ، وَأَصْبَحَتْ لَدَيْهِ أَدَوَاتٌ قَوِيَّةٌ تَبْنِي وَتَحْسِبُ وَتُقَرِّرُ وَتَدُورُ كَالْكَوْنِ نَفْسِهِ. وَلَكِنَّهُ عَلَى وَشْكِ أَنْ يَكْتَشِفَ أَنَّ الْبِنَاءَ الْحَقِيقِيَّ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِالتَّحَقُّقِ مِنْ صِحَّتِهِ وَعَدْلِهِ وَكَمَالِهِ، كَأَنَّهُ يَغْرِسُ أَسَاسًا يَصُونُ الْبِنَاءَ مِنَ السُّقُوطِ وَيُضْفِي عَلَيْهِ سَكِينَةً تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ.

مُقَدِّمَةُ الْبَابِ:

قَالَ الْإِمَامُ: "يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَقَدْ صِرْتَ بَنَّاءً مَاهِرًا، يُشَيِّدُ بِالْمَعْرِفَةِ كَمَنْ يَشِيدُ بِالْحِجَارَةِ، وَيَبْنِي الْأَنْظِمَةَ بِدِقَّةٍ وَحِكْمَةٍ. وَلَكِنَّ الْهَدَفَ الْأَسْمَى لِلْعِلْمِ لَيْسَ مُجَرَّدَ بِنَاءِ الْأَنْظِمَةِ كَأَنَّكَ تَبْنِي قَصْرًا مِنْ حِجَارَةٍ، بَلْ هُوَ الْوُصُولُ بِهَا إِلَى مَرْحَلَةِ الِاطْمِئْنَانِ الَّذِي يَمْلَأُ الْقَلْبَ كَنُورِ الْإِيمَانِ إِذَا انْسَابَ فِي الْقَلْبِ. الِاطْمِئْنَانُ إِلَى أَنَّهَا صَحِيحَةٌ كَالْحَقِّ الَّذِي لَا يَتَزَعْزَعُ، وَالِاطْمِئْنَانُ إِلَى أَنَّهَا عَادِلَةٌ

كَمِيزَانِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالِاطْمِئْنَانُ إِلَى أَنَّهَا كَامِلَةٌ كَالْخَلْقِ الَّذِي أَتْقَنَهُ اللهُ. فِي هَذَا الْبَابِ، سَنَتَعَلَّمُ كَيْفَ نَبْنِي هَذَا الِاطْمِئْنَانَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، مِنْ خِلَالِ الْبُرْهَانِ وَالتَّحَقُّقِ الَّذِي يَكْشِفُ الْحَقَّ وَيُزِيلُ الشَّكَّ كَالنُّورِ يُبَدِّدُ الظَّلَامَ".

الدَّرْسُ ١٤: أَدَوَاتُ الِاسْتِدْلَالِ

أَوَّلُ خُطُوَاتِ الِاطْمِئْنَانِ

(الْمَشْهَدُ: قِصَّةُ التَّاجِرِ الصَّادِقِ، بَيْنَ الْهَمِّ وَالْكَشْفِ الْعَظِيمِ فِي حَلْقَةِ الْإِمَامِ)

كَانَتْ الْحَلْقَةُ تَجْتَمِعُ فِي رُكْنٍ هَادِئٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، حَيْثُ يَنْفُذُ نُورُ الشَّمْسِ مِنْ خِلَالِ الْمَشَارِبِيَّةِ يَرْسُمُ خُطُوطًا ذَهَبِيَّةً عَلَى الْأَرْضِيَّةِ كَأَنَّهَا دَلَائِلُ تُشِيرُ إِلَى حَقَائِقَ مَخْفِيَّةٍ تَنْتَظِرُ الْكَشْفَ. الطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ، وَالْإِمَامُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ حِكْمَةً كَبِئْرٍ عَذْبَةٍ تَرْوِي الْعَطْشَى. جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْحَلْقَةِ وَقَلْبُهُ مُثْقَلٌ بِهَمٍّ ثَقِيلٍ كَجَبَلٍ يَضْغَطُ عَلَى الصَّدْرِ، يَحْمِلُ قِصَّةً تَكَادُ تُبْكِي الْحَجَرَ، وَوَجْهُهُ يَعْكِسُ الْحُزْنَ وَالْيَأْسَ كَغَيْمَةٍ سَوْدَاءَ تُغَطِّي الشَّمْسَ.

قَالَ الرَّجُلُ بِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ يَحْمِلُ وَزْنَ الْأَمَانَةِ الضَّائِعَةِ: "يَا إِمَامُ، لَقَدْ أَوْدَعْتُ عِنْدَ صَدِيقِي التَّاجِرِ مِئَةَ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ قَبْلَ أَنْ أُسَافِرَ إِلَى بَلَدٍ بَعِيدٍ، وَلَمْ نَكْتُبْ بَيْنَنَا عَقْدًا لِشِدَّةِ ثِقَتِي بِهِ وَصِدْقِهِ الَّذِي كَانَ يَفُوقُ الْكَلِمَاتِ. وَلَكِنَّ

صَدِيقِي تُوُفِّيَ فَجْأَةً كَأَنَّ الْمَوْتَ خَطَفَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَالْآنَ أَبْنَاؤُهُ يُنْكِرُونَ وُجُودَ الْمَالِ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ مَادِّيٌّ مُبَاشِرٌ يُثْبِتُهُ، وَقَلْبِي يَتَقَطَّعُ أَلَمًا وَحُزْنًا!".

تَدَخَّلَ إِسْمَاعِيلُ بِحَمَاسَةٍ تَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي يَرَى صَفْقَةً رَابِحَةً: "هَذِهِ مُصِيبَةٌ يَا سَيِّدِي! كَيْفَ سَيَطْمَئِنُّ قَلْبُ هَذَا الرَّجُلِ إِلَى حَقِّهِ الضَّائِعِ، وَالدَّلِيلُ غَائِبٌ كَشَبَحٍ فِي اللَّيْلِ الدَّامِسِ؟".

قَالَ الْإِمَامُ بِهُدُوئِهِ الَّذِي يُسَكِّنُ الْعَوَاصِفَ: "لَا يَأْتِي الِاطْمِئْنَانُ دَائِمًا مِنَ الدَّلِيلِ الْمَادِّيِّ الْمُبَاشِرِ يَا إِسْمَاعِيلُ، فَأَحْيَانًا يَكُونُ الدَّلِيلُ مَخْفِيًّا كَالْكَنْزِ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَنَحْتَاجُ إِلَى أَدَاةٍ عَقْلِيَّةٍ أَقْوَى لِكَشْفِهِ. إِنَّهَا الِاسْتِدْلَالُ، فَنُّ جَمْعِ الْعَلَامَاتِ الصَّغِيرَةِ (الشَّاهِدِ) لِنَصِلَ مِنْهَا إِلَى الْحَقِيقَةِ الْكَبِيرَةِ (الْغَائِبِ)، كَأَنَّكَ تَجْمَعُ قِطَعَ لُغْزٍ صَغِيرَةً لِتَرَى الصُّورَةَ الْكَامِلَةَ الَّتِي تُذْهِلُ الْعَقْلَ وَتُطْمِئِنُ الْقَلْبَ".

تَدَخَّلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِذَكَائِهِ الَّذِي يَكْشِفُ الْأَسْرَارَ: "إِذًا، فَالِاسْتِدْلَالُ هُوَ عِلْمُ قِرَاءَةِ الْآثَارِ وَالْعَلَامَاتِ لِكَشْفِ الْحَقَائِقِ الْخَفِيَّةِ، كَالْبَاحِثِ الَّذِي يَقْرَأُ الْآثَارَ عَلَى الْأَرْضِ لِيَعْرِفَ مَا مَرَّ مِنْ هُنَاكَ قَبْلَهُ".

قَالَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ: "أَحْسَنْتَ الْوَصْفَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، فَهُوَ الْأَدَاةُ الَّتِي تَبْنِي الِاطْمِئْنَانَ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ. وَإِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ يَدْعُونَا

لِمُمَارَسَةِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّفْكِيرِ، فَيَحُثُّنَا عَلَى النَّظَرِ فِي الْأَدِلَّةِ الْمَنْثُورَةِ فِي الْكَوْنِ لِنَصِلَ إِلَى الِاطْمِئْنَانِ بِوُجُودِ خَالِقِهِ الْحَكِيمِ. وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ تَأْتِي بِأَرْبَعِ صُوَرٍ كُبْرَى، كَأَنَّهَا أَبْوَابٌ أَرْبَعَةٌ تَفْتَحُ عَلَى بَحْرِ الْحَقِيقَةِ".

أَيَأْتِي التَّحَقُّقُ قَبْلَ الْبُرْهَانِ، أَمِ الْعَكْسُ؟

بَعْدَ أَنْ شَرَحَ الْإِمَامُ مَعْنَى "الِاسْتِدْلَالِ" وَكَشَفَ عَنْ قُوَّتِهِ فِي كَشْفِ الْحَقَائِقِ، قَالَ يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ) بِأَدَبٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ وَهُوَ يَحُكُّ ذَقْنَهُ بِتَأَمُّلٍ: "عَفْوًا يَا سَيِّدِي، وَلَكِنِّي أَجِدُ شَيْئًا مِنَ الِالْتِبَاسِ فِي هَذَا الْمَنْهَجِ الْعَظِيمِ، أَيَأْتِي التَّحَقُّقُ قَبْلَ الْبُرْهَانِ، أَمِ الْعَكْسُ؟ فَالْأَوَّلُ يَبْدُو كَفَحْصِ الْجُزْءِ، وَالثَّانِي كَإِثْبَاتِ الْكُلِّ، وَلَكِنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَهُمَا تَحْتَاجُ إِلَى وَضُوحٍ كَالشَّمْسِ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ".

ابْتَسَمَ الْإِمَامُ ابْتِسَامَةً تَفِيضُ حِكْمَةً كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِتَارًا عَنْ كَنْزٍ مَدْفُونٍ، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السُّلَّمِ الَّذِي يَرْفَعُ إِلَى الْعُلَا: "سُؤَالُكَ هَذَا هُوَ سُلَّمُ الِارْتِقَاءِ مِنَ الْعِلْمِ إِلَى الْحِكْمَةِ يَا يَعْقُوبُ، وَيَدُلُّ عَلَى نُضْجِ عَقْلِكَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ الْوُضُوحِ. لِكَيْ تَفْهَمَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَهُمَا، تَخَيَّلْ مَعِي أَنَّنَا نَبْنِي جِدَارًا عَظِيمًا يَحْمِي مَدِينَةً بِأَكْمَلِهَا مِنَ الْأَعَاصِيرِ وَالْأَعْدَاءِ".

مَرْحَلَةُ التَّحَقُّقِ: فَحْصُ اللَّبِنَاتِ (الطُّوبِ)

"قَبْلَ أَنْ نَبْدَأَ الْبِنَاءَ وَنَضَعَ اللَّبِنَةَ عَلَى اللَّبِنَةِ، يَأْتِي الْبَنَّاءُ الْمَاهِرُ وَيَفْحَصُ اللَّبِنَاتِ وَاحِدَةً وَاحِدَةً بِدِقَّةٍ تَفُوقُ الْجَوَاهِرِجِيِّ الَّذِي يَفْحَصُ أَلْمَاسَةً. هَلْ هِيَ صَلْبَةٌ كَالصَّخْرِ وَلَا تَتَفَتَّتُ؟ هَلْ أَبْعَادُهَا صَحِيحَةٌ وَمُتَنَاسِقَةٌ كَالْأَعْمِدَةِ فِي الْمَسْجِدِ؟ هَلْ خُلِطَتْ بِمَوَادَّ جَيِّدَةٍ وَلَيْسَتْ مُغْشُوشَةً كَالْمَالِ الْمَزِيَّفِ؟ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ هِيَ التَّحَقُّقُ (Verification)، الَّذِي يَفْحَصُ كُلَّ جُزْءٍ عَلَى حِدَةٍ لِيَبْنِيَ الثِّقَةَ فِي الْأَدَوَاتِ وَالْمَوَادِّ، كَأَنَّهُ يَضْمَنُ أَنَّ الْبِنَاءَ سَيَصْمُدُ أَمَامَ الزَّمَنِ وَالْعَوَاصِفِ".

مَرْحَلَةُ الْبُرْهَانِ: الْمُخَطَّطُ الْهَنْدَسِيُّ

"وَلَكِنْ، هَلْ تَكْفِي جَوْدَةُ اللَّبِنَاتِ وَحْدَهَا أَنَّ الْجِدَارَ سَيَكُونُ قَوِيًّا وَمُسْتَقِيمًا كَالسَّهْمِ الَّذِي يُصِيبُ الْهَدَفَ؟ لَا يَا يَعْقُوبُ، نَحْنُ نَحْتَاجُ إِلَى مُخَطَّطٍ هَنْدَسِيٍّ يُوَضِّحُ لَنَا كَيْفَ نَضَعُ هَذِهِ اللَّبِنَاتِ الصَّحِيحَةَ بِالتَّرْتِيبِ الصَّحِيحِ وَبِالطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ لِيَكُونَ الْبِنَاءُ مُتَمَاسِكًا وَمُتَنَاسِقًا. هَذَا الْمُخَطَّطُ الْمَنْطِقِيُّ الْكَامِلُ هُوَ الْبُرْهَانُ (Proof)، الَّذِي لَا يَهْتَمُّ بِلَبِنَةٍ وَاحِدَةٍ فَحَسْبُ، بَلْ بِالنِّظَامِ الْكَامِلِ الَّذِي يَجْمَعُهَا كُلَّهَا، وَيُثْبِتُ أَنَّ الْبِنَاءَ لَا يَهْتَزُّ وَلَا يَسْقُطُ أَمَامَ أَيِّ عَاصِفَةٍ".

إِذًا، مَاذَا يَأْتِي أَوَّلًا؟

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ كَلَامَهُ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السُّلَّمِ الَّذِي يَرْفَعُ إِلَى الْعُلَا: "إِنَّهُمَا يَعْمَلَانِ مَعًا فِي دَوْرَةٍ مُتَكَامِلَةٍ كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَتَعَاقَبَانِ بِحِكْمَةٍ:

- عِنْدَمَا نَكْتَشِفُ الْحَقِيقَةَ، فَإِنَّنَا عَادَةً نَبْدَأُ بِالتَّحَقُّقِ مِنْ أَمْثِلَةٍ جُزْئِيَّةٍ لِنَبْنِيَ الثِّقَةَ فِي فَرَضِيَّتِنَا، كَالْبَنَّاءِ الَّذِي يَفْحَصُ بَعْضَ اللَّبِنَاتِ لِيَطْمَئِنَّ إِلَى جَوْدَتِهَا.

- ثُمَّ، نُحَاوِلُ أَنْ نَصِلَ إِلَى الْبُرْهَانِ، وَهُوَ الْقَانُونُ الْعَامُّ الَّذِي يُثْبِتُ أَنَّ فَرَضِيَّتَنَا صَحِيحَةٌ لِكُلِّ الْحَالَاتِ، وَلَيْسَ فَقَطْ لِلْأَمْثِلَةِ الَّتِي جَرَّبْنَاهَا، كَالْمُهَنْدِسِ الَّذِي يَرْسُمُ الْمُخَطَّطَ الْكَامِلَ لِيَضْمَنَ سَلَامَةَ الْبِنَاءِ كُلِّهِ.

- وَبَعْدَ أَنْ نَمْتَلِكَ الْبُرْهَانَ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَحَقَّقَ مِنْ أَيِّ حَالَةٍ جَدِيدَةٍ بِكُلِّ اطْمِئْنَانٍ وَثِقَةٍ، كَأَنَّنَا نَضَعُ اللَّبِنَاتِ بِطُمَأْنِينَةٍ أَنَّ الْجِدَارَ سَيَصْمُدُ.

فَإِذًا، كَلَامُكَ صَحِيحٌ جُزْئِيًّا يَا يَعْقُوبُ، فَالتَّحَقُّقُ الْأَوَّلِيُّ يَقُودُنَا إِلَى الْبُرْهَانِ كَالنَّهْرِ يَصِلُ إِلَى الْبَحْرِ، وَالْبُرْهَانُ الْكَامِلُ يَمْنَحُنَا الْقُدْرَةَ عَلَى التَّحَقُّقِ النِّهَائِيِّ بِكُلِّ اطْمِئْنَانٍ وَسَكِينَةٍ يَمْلَأُ الْقَلْبَ كَنُورِ الْإِيمَانِ".

مَنْهَجُ الْقُرْآنِ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ

أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ صَفْحَةً أُخْرَى مِنَ الْمُصْحَفِ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْهَيْبَةِ: "إِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ يَدْعُونَا لِمُمَارَسَةِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّفْكِيرِ، فَيَحُثُّنَا عَلَى النَّظَرِ فِي الْأَدِلَّةِ الْمَنْثُورَةِ فِي الْكَوْنِ لِنَصِلَ إِلَى الِاطْمِئْنَانِ بِوُجُودِ خَالِقِهِ الْحَكِيمِ كَأَنَّهُ يَبْنِي فِينَا مِيزَانًا يَقِيسُ الْحَقَّ بِدِقَّةٍ. وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ تَأْتِي بِأَرْبَعِ صُوَرٍ كُبْرَى، كَأَنَّهَا أَبْوَابٌ أَرْبَعَةٌ تَفْتَحُ عَلَى بَحْرِ الْحَقِيقَةِ الْوَاسِعِ".

١. آيَاتُ الْآفَاقِ (النَّظَرُ إِلَى الْخَارِجِ):

"يَبْدَأُ الْقُرْآنُ بِدَعْوَةٍ لِلنَّظَرِ إِلَى الْآفَاقِ الْبَعِيدَةِ، حَيْثُ يَكْشِفُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَدَلِيلٍ سَاطِعٍ عَلَى الْخَالِقِ":

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠) - (يَدْعُونَا لِقِرَاءَةِ نِظَامِ الْفَلَكِ لِنَسْتَدِلَّ عَلَى الْمُنَظِّمِ الْحَكِيمِ).

قَاطَعَهُ يَعْقُوبُ بِفُضُولٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ: "يَا سَيِّدِي، إِنَّ الْفَلَاسِفَةَ يَنْظُرُونَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ لِيَكْتَشِفُوا الْعِلَلَ الْأُولَى وَالْقَوَانِينَ الْمُجَرَّدَةَ كَأَنَّهُمْ يَبْحَثُونَ عَنْ سِرِّ الْكَوْنِ فِي الظَّلَامِ. فَهَلْ هَذِهِ الْآيَةُ تَدْعُونَا لِذَلِكَ فَقَطْ، أَمْ تَحْمِلُ أَعْمَقَ مِنْ

ذَلِكَ؟".

أَجَابَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ: "بَلْ تَدْعُونَا لِمَا هُوَ أَعْمَقُ يَا يَعْقُوبُ، فَهِيَ لَا تَقُولُ لَنَا فَقَطْ إِنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي، بَلْ تَقُولُ لَنَا إِنَّ جَرَيَانَهَا هَذَا 'تَقْدِيرٌ'، أَيْ خُوَارِزْمِيَّةٌ مَوْضُوعَةٌ بِعِلْمٍ وَقُدْرَةٍ يَفُوقَانِ الْخَيَالَ، كَأَنَّهَا تَدْعُونَا لِقِرَاءَةِ الدِّقَّةِ لِنَسْتَدِلَّ عَلَى الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ الَّتِي تَحْكُمُ الْكَوْنَ كُلَّهُ".

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بِبَسَاطَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ: "وَهَلْ لِهَذَا فَائِدَةٌ عَمَلِيَّةٌ يَا سَيِّدِي؟ أَعْنِي، كَيْفَ يُسَاعِدُنِي التَّفَكُّرُ فِي الشَّمْسِ فِي تِجَارَتِي الْيَوْمِيَّةِ وَحِسَابَاتِي الَّتِي تَأْكُلُ وَقْتِي؟".

رَدَّ الْإِمَامُ بِابْتِسَامَةٍ دَافِئَةٍ: "يُسَاعِدُكَ يَا إِسْمَاعِيلُ بِأَنْ يُعَلِّمَكَ مَبْدَأَ 'النِّظَامِ' وَ'الدِّقَّةِ' الَّذِي يَجْعَلُ حِسَابَاتِكَ أَدَقَّ وَأَسْرَعَ. فَمَنْ رَأَى دِقَّةَ اللهِ فِي حَرَكَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، خَجِلَ أَنْ يُهْمِلَ الدِّقَّةَ فِي حِسَابَاتِهِ وَمَوَاعِيدِهِ، وَيَبْنِي تِجَارَتَهُ عَلَى أَسَاسٍ مُحْكَمٍ كَالْفَلَكِ يَسْبَحُ بِأَمْرِ رَبِّهِ. إِنَّهَا تَرْبِيَةٌ لِلْعَقْلِ وَالنَّفْسِ مَعًا، تَجْعَلُ الْعِلْمَ لَيْسَ أَدَاةً فَحَسْبُ، بَلْ سَبِيلًا إِلَى الِاطْمِئْنَانِ وَالْطُمَأْنِينَةِ".

٢. آيَاتُ الْأَنْفُسِ (النَّظَرُ إِلَى الدَّاخِلِ):

"وَكَمَا نَدْعُونَا الْقُرْآنُ لِلنَّظَرِ بَعِيدًا فِي الْآفَاقِ الْوَاسِعَةِ، فَإِنَّهُ يُوَسِّعُ الدَّائِرَةَ

قَلِيلًا قَلِيلًا، وَيَدْعُونَا لِلنَّظَرِ قَرِيبًا جِدًّا، إِلَى أَعْجَبِ مَصْنُوعٍ وَأَقْرَبِهِ إِلَيْنَا: أَنْفُسُنَا الَّتِي نَحْمِلُهَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ كَكَنْزٍ مَخْفِيٍّ فِي صُنْدُوقِ الْجَسَدِ":

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذَّارِيَاتُ: ٢١)

(يَدْعُونَا لِقِرَاءَةِ أَجْسَادِنَا وَأَرْوَاحِنَا لِنَسْتَدِلَّ عَلَى الصَّانِعِ الْقَرِيبِ الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ).

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ كَأَنَّهُ يَسْمَعُ نَبْضَ الْحَقِيقَةِ: "كَأَنَّ اللهَ يَقُولُ لَنَا: إِنَّ الدَّلِيلَ الْأَكْبَرَ لَيْسَ فِي الْمَجَرَّاتِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي تَبْدُو كَنُقَطٍ فِي السَّمَاءِ، بَلْ هُوَ فِي نَبْضَةِ قَلْبِكَ هَذِهِ الَّتِي تَنْبِضُ بِدِقَّةٍ مُعْجِزَةٍ!".

"بِالضَّبْطِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ!"، قَالَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ. "فَالْخُوَارِزْمِيَّةُ الْمُعْجِزَةُ الَّتِي تُحَوِّلُ قَطْرَةَ مَاءٍ إِلَى إِنْسَانٍ سَمِيعٍ بَصِيرٍ يَفْكِرُ وَيَعْبُدُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ":

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (الْمُؤْمِنُونَ: ١٢)

(يَدْعُونَا لِقِرَاءَةِ أَطْوَارِ خَلْقِنَا لِنَسْتَدِلَّ عَلَى الْحِكْمَةِ الَّتِي تَفُوقُ الْعَقْلَ).

"هِيَ أَقْوَى بُرْهَانٍ عَلَى وُجُودِ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ، فَالنَّظَرُ إِلَى الدَّاخِلِ يُوَلِّدُ

الِاطْمِئْنَانَ بِأَنَّنَا لَسْنَا مُجَرَّدَ صُدْفَةٍ عَشْوَائِيَّةٍ كَرَمْلٍ مُتَكَوِّمٍ فِي صَحْرَاءَ، بَلْ خَلْقٌ مُحْكَمٌ بِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ تَفُوقُ الْخَيَالَ".

٣. آيَاتُ الْأَرْضِ (النَّظَرُ إِلَى مَا حَوْلَنَا):

"ثُمَّ يُوَسِّعُ الْقُرْآنُ الدَّائِرَةَ قَلِيلًا قَلِيلًا كَأَنَّهُ يَبْنِي دَوَائِرَ مُتَدَاخِلَةً مِنَ الْحَقِيقَةِ، فَيَدْعُونَا لِلتَّفَكُّرِ فِي الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبَ تَشْهَدُ بِحِكْمَةِ الْخَالِقِ كَشُهُودٍ فِي مَحْكَمَةِ الْعَقْلِ":

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرَّعْدُ: ٤)

(يَدْعُونَا لِقِرَاءَةِ التَّنَوُّعِ الْبَيُولُوجِيِّ لِنَسْتَدِلَّ عَلَى الْخَالِقِ الْوَاحِدِ الَّذِي يُفَضِّلُ وَيُدَبِّرُ بِحِكْمَةٍ).

قَالَ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ يَتَذَكَّرُ حُقُولَهُ الْخَضْرَاءَ: "هَذِهِ الْآيَةُ أَعْرِفُهَا جَيِّدًا يَا سَيِّدِي! إِنَّنَا نَرَى هَذَا بِأَعْيُنِنَا كُلَّ يَوْمٍ فِي حُقُولِ الْعِرَاقِ الْخَصْبَةِ. نَفْسُ التُّرْبَةِ وَنَفْسُ الْمَاءِ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّخْلَ يُعْطِي تَمْرًا حُلْوًا كَالْعَسَلِ وَذَلِكَ يُعْطِي تَمْرًا مُخْتَلِفًا فِي الطَّعْمِ وَاللَّوْنِ، كَأَنَّ يَدًا حَكِيمَةً تُفَضِّلُ وَتُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِدِقَّةٍ تَفُوقُ

الْخَيَالَ".

عَلَّقَ الْإِمَامُ بِابْتِسَامَةٍ دَافِئَةٍ: "وَهَذَا هُوَ الِاسْتِدْلَالُ بِعَيْنِهِ يَا إِسْمَاعِيلُ. فَتَشَابُهُ الْأَسْبَابِ (الْمَاءُ وَاحِدٌ وَالتُّرْبَةُ وَاحِدَةٌ) مَعَ اخْتِلَافِ النَّتَائِجِ (الطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ وَاللَّوْنُ مُتَنَوِّعٌ)، يَدُلُّ بِقُوَّةٍ عَلَى وُجُودِ فَاعِلٍ مُخْتَارٍ حَكِيمٍ يَقُومُ بِهَذَا 'التَّفْضِيلِ'، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ طَبِيعَةٍ صَمَّاءَ تَعْمَلُ بِعَشْوَائِيَّةٍ كَالرِّيَاحِ الْمُتَقَلِّبَةِ".

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الْغَاشِيَةُ: ١٧)

(يَدْعُونَا لِقِرَاءَةِ تَصْمِيمِ كَائِنٍ وَاحِدٍ لِنَسْتَدِلَّ عَلَى عَظَمَةِ الْمُصَمِّمِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ).

هُنَا، قَاطَعَ يَعْقُوبُ بِأَدَبٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ وَهُوَ يَحُكُّ ذَقْنَهُ بِتَأَمُّلٍ: "عَفْوًا يَا سَيِّدِي، وَلَكِنَّ هَذَا الْمِثَالَ يُحَيِّرُنِي دَائِمًا كَأَنَّهُ لُغْزٌ غَامِضٌ. لِمَاذَا الْإِبِلُ بِالتَّحْدِيدِ، وَهِيَ كَائِنٌ جُزْئِيٌّ وَمَحَلِّيٌّ يَرْتَبِطُ بِبِيئَةِ الْعَرَبِ وَحَيَاتِهِمْ الْيَوْمِيَّةِ؟ أَلَيْسَ مِنَ الْأَقْوَى مَنْطِقِيًّا أَنْ يَكُونَ الِاسْتِدْلَالُ بِمَبْدَأٍ عَامٍّ وَكُلِّيٍّ يَشْمَلُ الْكَوْنَ كُلَّهُ، بَدَلًا مِنْ كَائِنٍ بِعَيْنِهِ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ مَحْدُودٌ بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ؟".

ابْتَسَمَ الْإِمَامُ ابْتِسَامَةً تَفِيضُ حِكْمَةً كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِتَارًا عَنْ كَنْزٍ مَدْفُونٍ: "سُؤَالُكَ هَذَا يَا يَعْقُوبُ هُوَ عَيْنُ الْحِكْمَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى نُضْجِ عَقْلِكَ الَّذِي يَبْحَثُ

عَنْ الْأَعْمَقِ. وَالْجَوَابُ يَكْمُنُ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُخَاطِبُ الْفَلَاسِفَةَ فَقَطْ بِأَفْكَارِهِمْ الْمُجَرَّدَةِ، بَلْ يُخَاطِبُ كُلَّ النَّاسِ بِلُغَةِ حَيَاتِهِمْ الْيَوْمِيَّةِ وَمَا يَأْلَفُونَهُ كَأَنَّهُ يَدْعُوهُمْ لِلنَّظَرِ فِي الْأَقْرَبِ لِيَصِلُوا إِلَى الْأَبْعَدِ. إِنَّهُ يَبْدَأُ مِنَ الشَّيْءِ الْمَحْسُوسِ وَالْمَأْلُوفِ لِيَقُودَنَا إِلَى الْحَقِيقَةِ الْمُجَرَّدَةِ الْكُبْرَى، كَأَنَّهُ يَبْنِي سُلَّمًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ خُطْوَةً خُطْوَةً".

قَالَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) بِحَمَاسَةٍ تَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي وَجَدَ كَنْزًا: "وَأَنَا أَعْرِفُ الْإِجَابَةَ يَا سَيِّدِي! فَنَحْنُ التُّجَّارَ نَعْرِفُ قِيمَةَ الْإِبِلِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِنَا، إِنَّهَا سَفِينَةُ الصَّحْرَاءِ الَّتِي تَحْمِلُ أَثْقَالَنَا وَتَصْبِرُ عَلَى الْعَطَشِ بِخُفَّيْهَا الْعَرِيضَيْنِ وَخِزَانَاتِ الْمَاءِ فِي جِسْمِهَا، وَتَسِيرُ مَسَافَاتٍ طَوِيلَةً دُونَ كَلَلٍ كَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ خَاصَّةً لِبِيئَتِنَا. إِنَّ تَصْمِيمَهَا مُعْجِزَةٌ تَكْشِفُ حِكْمَةَ الْخَالِقِ فِي كُلِّ تَفْصِيلٍ!".

أَضَافَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيُّ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ الْآيَةَ كَأَنَّهُ يَرَى نِظَامًا رِيَاضِيًّا فِي الْإِبِلِ نَفْسِهَا: "الْآنَ فَهِمْتُ يَا سَيِّدِي! إِنَّ الْآيَةَ لَا تَدْعُونَا فَقَطْ لِلتَّأَمُّلِ السَّطْحِيِّ، بَلْ تُعْطِينَا مَنْهَجًا عِلْمِيًّا كَامِلًا يَفُوقُ الْخَيَالَ. إِنَّهَا تَقُولُ لَنَا: إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَفْهَمُوا عَظَمَةَ الْمُصَمِّمِ، فَلَا تَتَشَتَّتُوا فِي الْكَوْنِ الْوَاسِعِ، خُذُوا نِظَامًا وَاحِدًا مُتَكَامِلًا (الْإِبِلُ كَمِثَالٍ مَحْلِيٍّ مَأْلُوفٍ)، ثُمَّ قُومُوا بِدِرَاسَتِهِ بِعُمْقٍ (كَيْفَ خُلِقَتْ؟) كَأَنَّكُمْ تَفْحَصُونَ خُوَارِزْمِيَّةً دَقِيقَةً. اِدْرُسُوا أَجْزَاءَهُ، وَوَظَائِفَهُ، وَكَيْفَ

تَعْمَلُ مَعًا بِهَذَا التَّنَاسُقِ الْعَجِيبِ الَّذِي يَفُوقُ الْعَقْلَ. فَإِذَا فَهِمْتُمْ حِكْمَةَ اللهِ فِي تَصْمِيمِ كَائِنٍ وَاحِدٍ، فَسَتُدْرِكُونَ أَنَّ نَفْسَ هَذِهِ الْحِكْمَةِ تَسْرِي فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ كَأَنَّهَا خُوَارِزْمِيَّةٌ إِلَهِيَّةٌ تَحْكُمُ كُلَّ شَيْءٍ!".

أَضَافَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الطَّلَبَةِ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا: "أَحْسَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، فَهَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ بِعَيْنِهِ، يَبْدَأُ مِنَ الْجُزْئِيِّ الْمَأْلُوفِ لِيَصِلَ إِلَى الْكُلِّيِّ الْعَظِيمِ كَسُلَّمٍ يَصْعَدُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ. فَالْقُرْآنُ يَخْتَارُ الْإِبِلَ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَيْنَا، وَتَصْمِيمُهَا يَكْشِفُ عَظَمَةَ الْخَالِقِ فِي كُلِّ تَفْصِيلٍ، مِنْ خُفَّيْهَا الَّذِي يَحْمِي مِنَ الرَّمْلِ الْحَارِّ إِلَى قُدْرَتِهَا عَلَى الصَّبْرِ فِي الصَّحْرَاءِ، كَأَنَّهَا خَلْقٌ مُصَمَّمٌ خَاصَّةً لِحَيَاتِنَا".

٤. آيَاتُ التَّارِيخِ (النَّظَرُ إِلَى مَا مَضَى):

"وَأَخِيرًا، يَدْعُونَا الْقُرْآنُ لِلسَّفَرِ عَبْرَ الزَّمَنِ كَأَنَّنَا نَعُودُ إِلَى الْمَاضِي لِنَسْتَخْلِصَ الْعِبَرَ، لِنَقْرَأَ آثَارَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَنَسْتَدِلَّ مِنْهَا عَلَى السُّنَنِ الْحَاكِمَةِ الَّتِي تَحْكُمُ التَّارِيخَ كُلَّهُ":

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٣٧)

(يَدْعُونَا لِقِرَاءَةِ آثَارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لِنَسْتَدِلَّ عَلَى السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ فِي التَّارِيخِ، كَأَنَّ التَّارِيخَ دَرْسٌ يَتَكَرَّرُ لِمَنْ يَعْقِلُ).

"فَهَلْ تَرَوْنَ يَا أَبْنَائِي؟"، قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا. "إِنَّ الْقُرْآنَ يُحَاصِرُ الْعَقْلَ بِالْأَدِلَّةِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ كَأَنَّهُ يَبْنِي حِصْنًا مِنَ الْطُمَأْنِينَةِ: مِنَ الْفَلَكِ الْبَعِيدِ، وَمِنْ دَاخِلِ النَّفْسِ الْقَرِيبَةِ، وَمِنَ الْأَرْضِ الْمُحِيطَةِ، وَمِنَ التَّارِيخِ الَّذِي يَشْهَدُ بِسُنَنِ اللهِ، لِيَقُودَهُ بِرِفْقٍ وَمَنْطِقٍ إِلَى الاِطْمِئْنَانِ الَّذِي يَمْلَأُ الْقَلْبَ كَنُورِ الْإِيمَانِ يُبَدِّدُ الظَّلَامَ".

قَالَ يَعْقُوبُ وَهُوَ يَحُكُّ ذَقْنَهُ بِتَأَمُّلٍ: "إِذًا، فَالْقُرْآنُ يَعْتَبِرُ التَّارِيخَ مُخْتَبَرًا كَبِيرًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ الْمَاضِيَةِ وَالْحَاضِرَةِ، وَآثَارَ الْأُمَمِ هِيَ نَتَائِجُ التَّجَارِبِ الَّتِي يُمْكِنُنَا أَنْ نَسْتَخْلِصَ مِنْهَا الْقَوَانِينَ الَّتِي تَحْكُمُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا!".

"وَصَفْتَ فَأَبْدَعْتَ يَا يَعْقُوبُ!"، قَالَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ. "فَهُوَ يُحَاصِرُ الْعَقْلَ بِالْأَدِلَّةِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ: مِنَ الْفَلَكِ الْبَعِيدِ الَّذِي يَدُورُ بِدِقَّةٍ، وَمِنْ دَاخِلِ النَّفْسِ الْقَرِيبَةِ الَّتِي تَنْبِضُ بِحِكْمَةٍ، وَمِنَ الْأَرْضِ الْمُحِيطَةِ الَّتِي تَشْهَدُ بِعَجَائِبِهَا، وَمِنَ التَّارِيخِ الَّذِي يَشْهَدُ بِسُنَنِهِ، لِيَقُودَهُ بِرِفْقٍ وَمَنْطِقٍ إِلَى الاِطْمِئْنَانِ الَّذِي يَمْلَأُ الْقَلْبَ وَيُثْبِتُ الْإِيمَانَ كَجَبَلٍ لَا يَتَزَعْزَعُ".

الْعَوْدَةُ إِلَى قَضِيَّةِ التَّاجِرِ

الْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَى الرَّجُلِ الْحَزِينِ وَقَالَ بِلُطْفٍ يَفِيضُ رَحْمَةً كَأَنَّهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى جُرْحٍ لِيَشْفِيَهُ: "الْآنَ، لِنُطَبِّقْ هَذَا الْمَنْهَجَ يَا وَلَدِي، وَنَكْشِفُ الْحَقِيقَةَ مِنْ خِلَالِ الْآثَارِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي تَشْهَدُ بِصِدْقِهَا. لَيْسَ لَدَيْنَا 'شَاهِدٌ' مَادِّيٌّ مُبَاشِرٌ يُثْبِتُ الْأَمَانَةَ كَعَقْدٍ مَكْتُوبٍ، وَلَكِنْ لَدَيْنَا 'آيَاتٌ' وَ'عَلَامَاتٌ' تَدُلُّ عَلَيْهَا كَالنُّجُومِ تَدُلُّ عَلَى الطَّرِيقِ فِي اللَّيْلِ الدَّامِسِ. أَخْبِرْنِي عَنْ صَدِيقِكَ الْمُتَوَفَّى، هَلْ كَانَ مَعْرُوفًا بِالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ الَّذِي يَفُوقُ الْكَلِمَاتِ؟".

أَجَابَ الرَّجُلُ بِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ مِنَ الذِّكْرَيَاتِ: "نَعَمْ يَا سَيِّدِي، كَانَ يُلَقَّبُ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ بَيْنَ التُّجَّارِ، وَكَانَ أَمَانَتُهُ مَثَلًا يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي السُّوقِ كُلِّهَا".

سَأَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الرَّجُلِ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا: "وَهَلْ كَانَ يُوَثِّقُ دُيُونَهُ وَأَمَانَاتِهِ فِي دَفْتَرِ حِسَابَاتِهِ الْخَاصِّ بِدِقَّةٍ وَأَمَانَةٍ؟".

أَجَابَ الرَّجُلُ وَأَمَلُ الْكَشْفِ يَبْدَأُ يَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهِ: "نَعَمْ يَا سَيِّدِي، كَانَ دَقِيقًا لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا كَتَبَهَا فِي دَفْتَرِهِ الْخَاصِّ كَأَنَّهُ يَكْتُبُ وَصِيَّةً أَخِيرَةً".

هُنَا، الْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَى أَبْنَاءِ التَّاجِرِ وَقَالَ بِصَوْتٍ حَازِمٍ يَحْمِلُ وَزْنَ الْعَدْلِ: "أَحْضِرُوا لَنَا دَفْتَرَ حِسَابَاتِ وَالِدِكُمْ، وَدَعُونَا نَقْرَأُ الْآثَارَ الَّتِي تَشْهَدُ بِصِدْقِهَا كَشُهُودٍ فِي مَحْكَمَةِ الْحَقِّ". بَحَثُوا فِي الدَّفْتَرِ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ، فَوَجَدُوا فِيهِ سَطْرًا وَاضِحًا كَالشَّمْسِ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ: "أَمَانَةٌ لِصَدِيقِي فُلَانٍ، مِئَةُ دِينَارٍ ذَهَبِيٍّ، سَأَرُدُّهَا عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ".

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْجَمِيعِ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ رَحْمَةً: "لَقَدِ اسْتَدْلَلْنَا عَلَى الْحَقِّ الْغَائِبِ (الْأَمَانَةِ) مِنْ خِلَالِ 'آيَتَيْنِ' وَ'عَلَامَاتٍ' تَشْهَدُ بِصِدْقِهَا: الْأُولَى هِيَ 'سُمْعَةُ الرَّجُلِ الطَّيِّبَةُ' الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَمَانَتِهِ كَالشَّمْسِ تَدُلُّ عَلَى النَّهَارِ، وَالثَّانِيَةُ هِيَ 'أَثَرُهُ الْمَكْتُوبُ' فِي الدَّفْتَرِ الَّذِي يَكْشِفُ الْحَقِيقَةَ كَالْكَنْزِ يَكْشِفُهُ الْبَاحِثُ. هَكَذَا نَبْنِي الِاطْمِئْنَانَ بِالِاسْتِدْلَالِ، خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، وَمِنَ الشَّاهِدِ إِلَى الْغَائِبِ، لِتَكُونَ الطُّمَأْنِينَةُ مَبْنِيَّةً عَلَى أَدِلَّةٍ وَاضِحَةٍ كَالشَّمْسِ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ

فَرِحَ الرَّجُلُ وَدَمْعَةُ الْفَرَحِ تَسِيلُ مِنْ عَيْنَيْهِ: "شُكْرًا يَا إِمَامُ، لَقَدْ أَعَدْتَ لِي حَقِّي وَأَعَدْتَ لِقَلْبِي اطْمِئْنَانَهُ كَأَنَّكَ أَشْرَقْتَ شَمْسًا فِي لَيْلٍ يَأْسِي!".

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "هَكَذَا يَا أَبْنَائِي، يَبْنِي الْقُرْآنُ الِاطْمِئْنَانَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، مِنْ خِلَالِ الِاسْتِدْلَالِ

الَّذِي يَجْمَعُ الْآثَارَ الصَّغِيرَةَ لِيَكْشِفَ الْحَقَائِقَ الْكَبِيرَةَ، وَيَجْعَلُ الْعَقْلَ يَصِلُ إِلَى الْطُمَأْنِينَةِ بِنَفْسِهَا دُونَ إِكْرَاهٍ، لِيَكُونَ الْإِيمَانُ مَبْنِيًّا عَلَى أَدِلَّةٍ وَاضِحَةٍ كَالشَّمْسِ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ، وَيَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ".

الدَّرْسُ ١٥: أَدَوَاتُ البُرْهَانِ

بِنَاءُ حُجَّةٍ لَا تُقْهَرُ

(الْمَشْهَدُ: سُؤَالٌ عَنِ الِاطْمِئْنَانِ الْمُطْلَقِ، بَيْنَ الْمُصْحَفِ وَالْأَفْكَارِ الْمُتَوَهِّجَةِ كَشَمْعَةٍ تُضِيءُ الظَّلَامَ)

كَانَتْ الْحَلْقَةُ تَفُورُ بِحَمَاسَةِ الْكَشْفِ الَّذِي يَفُوقُ الْكَنْزَ الْمَدْفُونَ، وَالطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ كَأَعْضَاءِ جَسَدٍ وَاحِدٍ يَنْبِضُ بِشَوْقِ الْحَقِيقَةِ. الْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ وَالْبَخُورِ الَّذِي يَمْلَأُ الْمَكَانَ كَأَنَّهُ يُطَهِّرُ الْعُقُولَ لِلْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِ الْبَيَانِ.

بَعْدَ أَنْ أَنْهَى الْإِمَامُ دَرْسَ "الِاسْتِدْلَالِ" وَكَشَفَ كَيْفَ يَبْنِي الْقُرْآنُ الِاطْمِئْنَانَ مِنَ الشَّاهِدِ إِلَى الْغَائِبِ، قَالَ يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ) بِاحْتِرَامٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ وَهُوَ يَحُكُّ ذَقْنَهُ بِتَأَمُّلٍ:

"يَا سَيِّدِي، إِنَّ الِاسْتِدْلَالَ الَّذِي عَلَّمْتَنَا إِيَّاهُ قَوِيٌّ وَمُقْنِعٌ كَالْجِبَالِ

الشَّامِخَةِ، فَهُوَ يَقُودُنَا إِلَى الظَّنِّ الرَّاجِحِ وَالِاطْمِئْنَانِ الَّذِي يَمْلَأُ الْقَلْبَ. وَلَكِنْ، كَيْفَ نَصِلُ إِلَى الِاطْمِئْنَانِ الْمُطْلَقِ الَّذِي لَا يَدَعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ كَالطُّمَأْنِينَةِ الَّتِي لَا تَتَزَعْزَعُ؟ كَيْفَ نُثْبِتُ صِحَّةَ قَانُونٍ رِيَاضِيٍّ عَامٍّ لَا يَرْتَبِطُ بِحَادِثَةٍ مُعَيَّنَةٍ، بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ عَقْلٍ فِي الْعَالَمِ أَنْ يُنْكِرَهُ كَأَنَّهُ يُنْكِرُ الشَّمْسَ فِي وَسَطِ النَّهَارِ؟ هُنَا يَظْهَرُ فَرْقُ الْمَقَامَيْنِ: فَالِاسْتِدْلَالُ نُورُ قَمَرٍ يَسْتَمِدُّ ضِيَاءَهُ، وَالْبُرْهَانُ شَمْسٌ تُشْرِقُ مِنْ ذَاتِهَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ حَجْبَهَا".

كَأَنَّ يَعْقُوبَ أَرَادَ أَنْ يَتَسَلَّقَ جَبَلَ الْحَقِيقَةِ لِيَرَى الْأُفُقَ الْأَبْعَدَ، فَنَطَقَ سُؤَالُهُ كَزَمْزَمٍ يَتَفَجَّرُ مِنْ صَخْرَةِ الْعَقْلِ.

نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى يَعْقُوبَ بِإِعْجَابٍ يَفُوقُ الْمُعَلِّمَ الَّذِي يَرَى تِلْمِيذَهُ يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْحِكْمَةِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ وَزْنَ الْجِبَالِ وَعُمْقَ الْبِحَارِ: "لَقَدْ وَصَلْتَ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ يَا يَعْقُوبُ، وَسُؤَالُكَ هَذَا يَدُلُّ عَلَى نُضْجِ عَقْلِكَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ الْطُمَأْنِينَةِ الْأَعْلَى. إِنَّ مَا تَطْلُبُهُ هُوَ أَرْقَى دَرَجَاتِ الْحُجَّةِ وَأَقْوَاهَا، إِنَّهُ الْبُرْهَانُ الَّذِي يَقْطَعُ الشَّكَّ مِنْ أَصْلِهِ. وَالْبُرْهَانُ أَقْوَى مِنَ الِاسْتِدْلَالِ، فَالاسْتِدْلَالُ نُورُ قَمَرٍ يَسْتَمِدُّ ضِيَاءَهُ، وَالْبُرْهَانُ شَمْسٌ تُشْرِقُ مِنْ ذَاتِهَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ حَجْبَهَا، فَالِاسْتِدْلَالُ يَكْشِفُ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَيُقْنِعُ الْعَقْلَ، أَمَّا الْبُرْهَانُ فَيُثْبِتُهَا بِشَكْلٍ لَا يَدَعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ أَوْ الْجَدَلِ، كَأَنَّهُ يَبْنِي حِصْنًا لَا يُقْهَرُ أَمَامَ أَعَاصِيرِ

الشُّبُهَاتِ. وَلِهَذَا، لَمْ يَطْلُبِ الْقُرْآنُ مِنَ النَّاسِ مُجَرَّدَ 'أَدِلَّةٍ' تُقْنِعُ، بَلْ تَحَدَّى أَعْظَمَ الْخُصُومِ بِأَنْ يَأْتُوا بِـ 'بُرْهَانٍ' يَثْبُتُ دَعْوَاهُمْ، وَيَكْشِفُ عَجْزَهُمْ كَالنُّورِ يَكْشِفُ الظَّلَامَ".

مَنْهَجُ الْقُرْآنِ فِي تَأْسِيسِ الْبُرْهَانِ

أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ الْمُصْحَفَ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْهَيْبَةِ: "إِنَّ الْقُرْآنَ يُؤَسِّسُ لِمَنْهَجِيَّةِ الْبُرْهَانِ مِنْ خِلَالِ ثَلَاثَةِ مَحَاوِرَ كَأَنَّهَا أَعْمِدَةٌ تَحْمِلُ بِنَاءَ الْطُمَأْنِينَةِ":

١. طَلَبُ الْبُرْهَانِ مِنَ الْخَصْمِ (إِثْبَاتُ الْعَجْزِ):

"إِنَّ أَوَّلَ خُطْوَةٍ فِي تَأْسِيسِ الْحَقِّ لَيْسَتْ فِي أَنْ تُقَدِّمَ بُرْهَانَكَ كَأَنَّكَ تَدْفَعُ الْحَقَّ إِلَى الْخَصْمِ، بَلْ فِي أَنْ تَطْلُبَ الْبُرْهَانَ مِنْ خَصْمِكَ لِتَكْشِفَ عَجْزَهُ وَفَسَادَ دَعْوَاهُ مِنْ أَصْلِهِ. فَإِنَّ صَاحِبَ الدَّعْوَى الْبَاطِلَةِ لَا يَمْلِكُ بُرْهَانًا أَصْلًا، وَهَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الْقُرْآنِيُّ الْأَوَّلُ فِي كُلِّ حِوَارٍ وَجَدَلٍ، يَبْدَأُ بِالتَّحَدِّي الَّذِي يَكْشِفُ الْحَقِيقَةَ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ". ثُمَّ تَلا الْإِمَامُ بِقُوَّةٍ وَثِقَةٍ تَهُزُّ الْقُلُوبَ:

﴿...قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١١١).

هُنَا، رَفَعَ يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ) يَدَهُ بِأَدَبٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ وَقَالَ: "عَفْوًا يَا سَيِّدِي، وَلَكِنْ أَلَيْسَتِ الْقَاعِدَةُ النَّبَوِيَّةُ الَّتِي نَتَعَلَّمُهَا فِي الْفِقْهِ أَشْمَلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْمَقَ؟ فَقَدْ سَمِعْتُهَا تُرْوَى هَكَذَا: 'الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ'. فَمَا دَوْرُ الْيَمِينِ (الْقَسَمِ) فِي هَذِهِ الْخُوَارِزْمِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَكَيْفَ يَدْخُلُ فِي بِنَاءِ الْبُرْهَانِ؟".

أَجَابَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ غَيْمٍ: "أَحْسَنْتَ يَا يَعْقُوبُ! لَقَدْ وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى تَمَامِ الْحِكْمَةِ وَكَمَالِ النِّظَامِ الَّذِي يَفُوقُ الْعَدْلَ الْبَشَرِيَّ. نَعَمْ، هَذِهِ هِيَ الْخُوَارِزْمِيَّةُ الْكَامِلَةُ لِفَضِّ النِّزَاعِ، وَهِيَ تَسِيرُ عَلَى مَرْحَلَتَيْنِ وَاضِحَتَيْنِ كَالنَّهَارِ بَعْدَ اللَّيْلِ، تَمَامًا كَخُوَارِزْمِيَّةِ التَّفَرُّعِ الَّتِي تَعَلَّمْتُمُوهَا فِي الْحِسَابِ".

أَخَذَ الْإِمَامُ اللَّوْحَ وَرَسَمَ خَطَّيْنِ مُتَفَرِّعَيْنِ، فَانْبَسَطَتْ فِي اللَّوْحِ شَجَرَةٌ يَتَفَرَّعُ جِذْعُهَا إِلَى مَسَارَيْنِ، كَأَنَّهُمَا كَفَّتَا مِيزَانٍ يَحْمِلُ الْعَدْلَ فِي يَدَيْهِ، وَتُثْمِرُ ثِمَارَهُ طُمَأْنِينَةً تَمْلَأُ الْقُلُوبَ.

"الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى: مَرْحَلَةُ الْإِثْبَاتِ (مَسَارُ الْمُدَّعِي)"

"أَوَّلًا، نَطْلُبُ مِنَ الْمُدَّعِي أَنْ يُقَدِّمَ الْبَيِّنَةَ (الْبُرْهَانَ) الَّتِي تُثْبِتُ دَعْوَاهُ كَالْمِيزَانِ يَطْلُبُ الْوَزْنَ. هُنَا تَسْأَلُ الْخُوَارِزْمِيَّةُ سُؤَالَهَا الْأَوَّلَ: هَلِ الْبَيِّنَةُ كَافِيَةٌ

وَقَاطِعَةٌ كَالسَّيْفِ يَقْطَعُ الشَّكَّ؟".

- "إِنْ كَانَ الْجَوَابُ 'نَعَمْ'، فَيُحْكَمُ لِصَالِحِهِ وَتَنْتَهِي الْقَضِيَّةُ بِعَدْلٍ وَطُمَأْنِينَةٍ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ".

- "وَأَمَّا إِنْ عَجَزَ الْمُدَّعِي عَنِ الْإِتْيَانِ بِالْبَيِّنَةِ، فَإِنَّ الْخُوَارِزْمِيَّةَ لَا تَتَوَقَّفُ هُنَا كَأَنَّهَا نَهْرٌ يَجْرِي إِلَى الْبَحْرِ، بَلْ تَنْتَقِلُ إِلَى الْمَسَارِ الثَّانِي لِتَكْمَلَ الْعَدْلَ".

"الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: مَرْحَلَةُ النَّفْيِ (مَسَارُ الْمُنْكِرِ)"

"هُنَا، يَنْتَقِلُ الْعِبْءُ إِلَى الطَّرَفِ الْآخَرِ (الْمُدَّعَى عَلَيْهِ أَوِ الْمُنْكِرِ) كَأَنَّ الْمِيزَانَ يَنْتَقِلُ إِلَى الْكَفَّةِ الْأُخْرَى. وَلِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ مَادِّيٌّ ضِدَّهُ يُثْبِتُ الدَّعْوَى، فَإِنَّ الشَّرْعَ يُعْطِيهِ فُرْصَةً لِيُبَرِّئَ سَاحَتَهُ بِأَقْوَى شَيْءٍ يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ بَعْدَ الْبُرْهَانِ: كَلِمَتُهُ وَذِمَّتُهُ أَمَامَ اللهِ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ. فَيُطْلَبُ مِنْهُ الْيَمِينُ (الْقَسَمُ) بِاسْمِ اللهِ أَنَّ الدَّعْوَى بَاطِلَةٌ".

- "فَإِنْ حَلَفَ الْيَمِينَ بِصِدْقٍ وَإِيمَانٍ، فَيُحْكَمُ لِصَالِحِهِ وَيُبَرَّأُ فِي قَضَاءِ الدُّنْيَا، وَيُتْرَكُ أَمْرُهُ إِلَى اللهِ فِي الْآخِرَةِ حَيْثُ يَكُونُ الْحِسَابُ أَدَقَّ وَأَعْدَلَ".

- "وَإِنِ امْتَنَعَ عَنِ الْيَمِينِ (وَهُوَ مَا يُسَمَّى النُّكُولَ)، فَيُعْتَبَرُ ذَلِكَ قَرِينَةً قَوِيَّةً ضِدَّهُ وَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ، كَأَنَّ امْتِنَاعَهُ دَلِيلٌ عَلَى خَوْفِهِ مِنَ الْقَسَمِ

الْكَاذِبِ".

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ كَلَامَهُ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "هَذِهِ يَا أَبْنَائِي هِيَ خُوَارِزْمِيَّةُ الْعَدْلِ النَّبَوِيَّةُ الَّتِي تَفُوقُ الْعَدْلَ الْبَشَرِيَّ بِحِكْمَتِهَا وَرَحْمَتِهَا. إِنَّهَا لَا تَحْمِي الْحُقُوقَ بِالْأَدِلَّةِ الْمَادِّيَّةِ فَقَطْ كَحِصْنٍ مِنْ حِجَارَةٍ، بَلْ تَحْمِي أَيْضًا الْأَبْرِيَاءَ مِنَ الِادِّعَاءَاتِ الْبَاطِلَةِ بِوَاسِطَةِ الْيَمِينِ، وَتَجْعَلُ الْحُكْمَ عَادِلًا وَمُطْمَئِنًا لِلْقُلُوبِ كُلِّهَا. إِنَّهُ نِظَامٌ مُتَوَازِنٌ يُعْطِي كُلَّ طَرَفٍ فُرْصَتَهُ الْكَامِلَةَ، وَيُحَقِّقُ أَقْصَى دَرَجَاتِ الِاطْمِئْنَانِ الْمُمْكِنَةِ فِي قَضَاءِ الْبَشَرِ، وَيَدْعُو إِلَى الْطُمَأْنِينَةِ الَّتِي تَدُومُ إِلَى الْآخِرَةِ".

٢. تَقْدِيمُ الْبُرْهَانِ مِنَ اللهِ (إِثْبَاتُ الْحَقِّ):

"وَلَكِنَّ الْمَنْهَجَ الْقُرْآنِيَّ لَا يَقِفُ عِنْدَ تَحَدِّي الْخَصْمِ وَإِظْهَارِ عَجْزِهِ كَأَنَّهُ يَتْرُكُ الْمَيْدَانَ فَارِغًا، بَلْ مِنْ تَمَامِ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَدِّمُ لَنَا الْبُرْهَانَ بِنَفْسِهِ لِيُطَمْئِنَّ قُلُوبَنَا وَيُنِيرَ عُقُولَنَا كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ لَيْلٍ دَامِسٍ، وَيَجْعَلُ الْطُمَأْنِينَةَ تَمْلَأُ الْكَيَانَ كُلَّهُ". ثُمَّ تَلا الْإِمَامُ بِصَوْتٍ يَفِيضُ بِالْجَلَالِ وَالثِّقَةِ الَّتِي تَهْزُّ الْقُلُوبَ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾

(النِّسَاءُ: ١٧٤).

قَالَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) بِتَأَثُّرٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي وَجَدَ كَنْزًا: "إِذًا، فَالْقُرْآنُ لَيْسَ مُجَرَّدَ كِتَابِ أَوَامِرَ وَنَوَاهٍ يُفْرَضُ عَلَيْنَا، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ 'الْبُرْهَانُ' الَّذِي نَسْتَنِدُ إِلَيْهِ وَنَطْمَئِنُّ بِهِ كَالْمَاءِ الْعَذْبِ يَرْوِي الْعَطْشَانَ! كَأَنَّهُ يَقُولُ لَنَا: لَا تَبْحَثُوا بَعِيدًا عَنْ دَلِيلٍ، فَالْحُجَّةُ الْكُبْرَى بَيْنَ أَيْدِيكُمْ تُنِيرُ الطَّرِيقَ وَتُثْبِتُ الْحَقَّ".

"أَحْسَنْتَ يَا إِسْمَاعِيلُ"، قَالَ الْإِمَامُ. "إِنَّهُ الْبُرْهَانُ النَّظَرِيُّ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَكْشِفُ الْحَقَّ بِلُغَةِ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ. وَلَكِنَّ اللهَ لَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ، بَلْ أَيَّدَ رُسُلَهُ بِبَرَاهِينَ مَادِّيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ الْعِنَادُ أَنْ يَرُدَّهَا كَأَنَّهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تُبَدِّدُ الظَّلَامَ، وَاسْتَشْهَدَ بِقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ":

﴿...فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الْقَصَصُ: ٣٢).

هُنَا عَلَّقَ يَعْقُوبُ بِذِهْنِهِ التَّحْلِيلِيِّ الَّذِي يَكْشِفُ الْأَسْرَارَ: "الْآنَ اكْتَمَلَتِ الصُّورَةُ يَا سَيِّدِي! فَالْقُرْآنُ هُوَ 'الْبُرْهَانُ الْمَقْرُوءُ' الَّذِي يُخَاطِبُ الْعَقْلَ بِلُغَةِ الْحِكْمَةِ وَالْبَيَانِ، وَمُعْجِزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ (كَعَصَا مُوسَى وَيَدِهِ الْبَيْضَاءِ) هِيَ 'الْبُرْهَانُ الْمَشْهُودُ' الَّذِي يُخَاطِبُ الْحِسَّ بِقُوَّةٍ تَفُوقُ الْخَيَالَ. فَلَا يَبْقَى لِلْعَقْلِ أَوِ الْحِسِّ

حُجَّةٌ بَعْدَ ذَلِكَ، وَيَصِلُ الْإِنْسَانُ إِلَى الِاطْمِئْنَانِ الْمُطْلَقِ كَأَنَّهُ وَصَلَ إِلَى مَلْجَأٍ آمِنٍ مِنْ عَوَاصِفِ الشَّكِّ".

٣. اسْتِخْدَامُ الْبُرْهَانِ الْمَنْطِقِيِّ الْعَقْلِيِّ (بُرْهَانُ الْخُلْفِ):

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الطَّلَبَةِ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ قُوَّةً: "وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنَ الْبَرَاهِينِ الَّتِي يُعَلِّمُنَا إِيَّاهَا الْقُرْآنُ، فَهُوَ أَدَقُّهَا وَأَقْوَاهَا كَسَيْفٍ يَقْطَعُ الشَّكَّ مِنْ أَصْلِهِ، وَهُوَ السِّلَاحُ الَّذِي يَحْسِمُ الْجَدَلَ مَعَ أَشَدِّ الْخُصُومِ عِنَادًا وَيَكْشِفُ الْبَاطِلَ بِقُوَّةٍ لَا تُقْهَرُ. إِنَّهُ لَا يَبْنِي الْحَقَّ بِحِجَارَةٍ جَدِيدَةٍ، بَلْ يَهْدِمُ صَرْحَ الْبَاطِلِ حَجَرًا بَعْدَ حَجَرٍ، حَتَّى يَتَجَلَّى الْحَقُّ وَاحِدًا كَجَبَلٍ عَارٍ لَا يُغَطِّيهِ غَيْمٌ، كَالْبِنَاءِ الَّذِي يَضَعُ الْحِجَارَةَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، بَلْ يُثْبِتُهُ مِنْ خِلَالِ إِظْهَارِ فَسَادِ وَاسْتِحَالَةِ ضِدِّهِ كَأَنَّهُ يَهْدِمُ الْبَاطِلَ لِيَبْقَى الْحَقُّ وَحْدَهُ سَاطِعًا".

ثُمَّ تَلا الْإِمَامُ بِصَوْتٍ هَادِئٍ وَوَاضِحٍ يَهُزُّ الْقُلُوبَ وَيُوقِظُ الْعُقُولَ:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الْأَنْبِيَاءُ: ٢٢).

قَبْلَ أَنْ يُكْمِلَ الْإِمَامُ شَرْحَهُ، قَفَزَ يَعْقُوبُ وَاقِفًا وَكَأَنَّ صَاعِقَةً أَصَابَتْهُ، وَصَاحَ بِانْفِعَالٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ الَّذِينَ اكْتَشَفُوا سِرًّا عَظِيمًا: "اللهُ أَكْبَرُ! هَذَا هُوَ يَا

سَيِّدِي! هَذَا مَا يُسَمِّيهِ فَلَاسِفَةُ الْيُونَانِ 'بُرْهَانَ الْخُلْفِ' (Proof by Contradiction)! إِنَّهُ أَرْقَى أَنْوَاعِ الْبَرَاهِينِ الْمَنْطِقِيَّةِ وَأَقْوَاهَا، يَهْدِمُ الْبَاطِلَ لِيَبْقَى الْحَقُّ وَحْدَهُ!".

نَظَرَ إِسْمَاعِيلُ إِلَى يَعْقُوبَ بِحَيْرَةٍ تَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي يَرَى صَفْقَةً غَرِيبَةً: "وَمَا هُوَ بُرْهَانُ الْخُلْفِ هَذَا يَا يَعْقُوبُ؟ كَلَامُكَ كَبِيرٌ وَمُعَقَّدٌ كَصَفْقَةٍ مَعَ تَاجِرٍ صِينِيٍّ، فَشَرْحَهُ لَنَا بِلُغَةِ التُّجَّارِ الْبَسِيطَةِ!".

أَجَابَ يَعْقُوبُ بِحَمَاسَةٍ وَهُوَ يُشِيرُ بِيَدَيْهِ كَأَنَّهُ يَرْسُمُ سِلْسِلَةً مِنَ الْأَفْكَارِ: "اِسْمَعْ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّهُ عَبْقَرِيٌّ يَفُوقُ الْخَيَالَ! بَدَلًا مِنْ أَنْ تُثْبِتَ أَنَّ (أ) صَحِيحٌ بِبِنَاءِ حُجَّةٍ طَوِيلَةٍ، فَأَنْتَ تَفْتَرِضُ أَنَّ نَقِيضَهُ (لَيْسَ أ) هُوَ الصَّحِيحُ كَأَنَّكَ تَخْتَبِرُ الطَّرِيقَ الْخَاطِئَ لِتَعْرِفَ الصَّحِيحَ. ثُمَّ تَتَّبِعُ هَذَا الِافْتِرَاضَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ بِدِقَّةٍ، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَى نَتِيجَةٍ سَخِيفَةٍ أَوْ مُسْتَحِيلَةٍ كَأَنَّكَ وَصَلْتَ إِلَى جَبَلٍ لَا يُمْكِنُ عُبُورُهُ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الِافْتِرَاضَ الَّذِي بَدَأْتَ بِهِ كَانَ خَاطِئًا مِنْ أَصْلِهِ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ نَقِيضَهُ (وَهُوَ أ) هُوَ الْحَقَّ الِاطْمِئْنَانِيَّ الَّذِي لَا يَدَعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ!".

أَضَافَ يَعْقُوبُ مُطَبِّقًا كَلَامَهُ عَلَى الْآيَةِ بِحَمَاسٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ: "فَالْآيَةُ تَفْتَرِضُ صِحَّةَ دَعْوَى الْمُشْرِكِينَ (وُجُودُ آلِهَةٍ أُخْرَى بِجَانِبِ اللهِ) كَأَنَّهَا تَقُولُ 'لِنَفْتَرِضْ أَنَّكُمْ عَلَى حَقٍّ'، ثُمَّ تُرِينَا النَّتِيجَةَ الْحَتْمِيَّةَ لِهَذَا الِافْتِرَاضِ وَهِيَ (فَسَادُ

الْكَوْنِ وَانْهِيَارُهُ كُلِّهِ). وَبِمَا أَنَّنَا نَرَى بِأَعْيُنِنَا أَنَّ الْكَوْنَ مُنْتَظِمٌ وَلَمْ يَفْسُدْ بَلْ يَدُورُ بِدِقَّةٍ مُعْجِزَةٍ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الِافْتِرَاضَ الْأَوَّلَ بَاطِلٌ مِنْ أَصْلِهِ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ الْحَقَّ هُوَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ!".

قَالَ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ يَضْحَكُ بِفَرَحٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي وَجَدَ كَنْزًا: "الْآنَ فَهِمْتُ يَا يَعْقُوبُ! إِنَّهُ مِثْلُ أَنْ نَقُولَ: 'لَوْ كَانَ لِهَذِهِ السَّفِينَةِ قُبْطَانَانِ يَتَصَارَعَانِ عَلَى الْقِيَادَةِ، لَغَرِقَتْ وَانْهَارَتْ'. وَبِمَا أَنَّهَا لَمْ تَغْرَقْ وَتَسِيرُ بِانْتِظَامٍ وَأَمَانٍ، فَهَذَا بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ لَهَا قُبْطَانًا وَاحِدًا فَقَطْ يَحْكُمُهَا بِحِكْمَةٍ!".

نَظَرَ الْجَمِيعُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيِّ لِيَرَوْا كَيْفَ سَيُتَرْجِمُ هَذَا الْمَنْطِقَ إِلَى عَالَمِ الْأَرْقَامِ وَالْحِسَابِ، فَقَالَ بِهُدُوءٍ وَعُمْقٍ يَفُوقُ الْعَالِمَ الَّذِي يَكْشِفُ سِرًّا عَظِيمًا: "لَقَدْ فَهِمْتُ يَا سَيِّدِي، إِنَّ هَذَا لَأَقْوَى سِلَاحٍ يُمْكِنُ أَنْ يَمْلِكَهُ عَالِمُ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالْحِسَابِ كَأَنَّهُ يَمْلِكُ سَيْفًا لَا يُكْسَرُ. فَبِهِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُبَرْهِنَ عَلَى حَقَائِقَ كَبِيرَةٍ تَفُوقُ الْأَمْثِلَةَ الْجُزْئِيَّةَ. مَثَلًا، إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُثْبِتَ أَنَّ عَدَدًا مَا هُوَ عَدَدٌ فَرْدِيٌّ (وَتْرٌ) وَلَيْسَ زَوْجِيًّا، يُمْكِنُنَا أَنْ نَفْتَرِضَ الْعَكْسَ وَنَقُولَ 'لِنَفْتَرِضْ أَنَّهُ زَوْجِيٌّ كَأَنَّنَا نَخْتَبِرُ الطَّرِيقَ الْخَاطِئَ'. ثُمَّ نُجْرِي عَلَيْهِ حِسَابَاتِنَا بِدِقَّةٍ، فَإِذَا وَصَلْنَا إِلَى تَنَاقُضٍ (مِثْلَ أَنْ نَصِلَ إِلَى أَنَّ ١=٢ وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ كَاللَّيْلِ يَكُونُ نَهَارًا)، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الِافْتِرَاضَ الَّذِي بَدَأْنَا بِهِ كَانَ خَاطِئًا مِنْ أَصْلِهِ، وَبِالتَّالِي

فَإِنَّ الْحَقِيقَةَ هِيَ أَنَّ الْعَدَدَ فَرْدِيٌّ، وَنَصِلُ إِلَى الْطُمَأْنِينَةِ الْمُطْلَقَةِ!".

سِلْسِلَةٌ ذَهَبِيَّةٌ مِنَ الْحَقَائِقِ

"فَالْبُرْهَانُ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ"، أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى اللَّوْحِ كَأَنَّهُ يَرَى سِلْسِلَةً ذَهَبِيَّةً تَرْبِطُ الْحَقَائِقَ: "هُوَ خُوَارِزْمِيَّةٌ مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ يَفُوقُ الْخَيَالَ، إِنَّهَا سِلْسِلَةٌ مِنَ الْخُطُوَاتِ الْمَنْطِقِيَّةِ الَّتِي تَبْنِي الْطُمَأْنِينَةِ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ كُلُّ خُطْوَةٍ فِيهَا صَحِيحَةً طُمَأْنِينَةً كَالْحَقِّ الَّذِي لَا يَتَزَعْزَعُ، وَأَنْ تُؤَدِّيَ كُلُّ خُطْوَةٍ إِلَى الَّتِي تَلِيهَا بِشَكْلٍ حَتْمِيٍّ كَاللَّيْلِ يَلِي النَّهَارَ، حَتَّى نَصِلَ فِي النِّهَايَةِ إِلَى النَّتِيجَةِ الْمَطْلُوبَةِ بِطُمَأْنِينَةٍ مُطْلَقَةٍ تَمْلَأُ الْقَلْبَ وَالْعَقْلَ مَعًا".

"لِنَأْخُذْ مِثَالَكَ يَا يَعْقُوبُ الَّذِي يَكْشِفُ قُوَّةَ هَذَا الْمَنْهَجِ"، أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى اللَّوْحِ كَأَنَّهُ يَرْسُمُ سِلْسِلَةً ذَهَبِيَّةً مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي تَرْبِطُ الْبِدَايَةَ بِالنِّهَايَةِ: "كَيْفَ نُبَرْهِنُ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ عَلَى أَنَّ مَجْمُوعَ عَدَدَيْنِ زَوْجِيَّيْنِ هُوَ دَائِمًا عَدَدٌ زَوْجِيٌّ، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى شَكٌّ فِي أَيِّ عَقْلٍ مُنْصِفٍ؟".

تَقَدَّمَ أَبُو عَبْدِ اللهِ إِلَى اللَّوْحِ، وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ الْإِمَامَ يَطْلُبُ مِنْهُ بِنَاءَ "سِلْسِلَةٍ ذَهَبِيَّةٍ مِنَ الْحَقَائِقِ" تَفُوقُ الْخَيَالَ، وَقَالَ بِثِقَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ جَارٍ: "سَنَبْنِي الْبُرْهَانَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ كَأَنَّنَا نَبْنِي قَصْرًا مِنَ الْطُمَأْنِينَةِ":

1. **الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى** (تَعْرِيفٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ): الْعَدَدُ الزَّوْجِيُّ هُوَ أَيُّ عَدَدٍ يُمْكِنُ كِتَابَتُهُ عَلَى صُورَةِ ٢ × (أَيْ عَدَدٍ آخَرَ). هَلْ نَتَّفِقُ عَلَى هَذَا كَأَسَاسٍ لَا يَتَزَعْزَعُ؟ أَوْمَأَ الْجَمِيعُ بِالْمُوَافَقَةِ كَأَنَّهُمْ يَضَعُونَ الْحَجَرَ الْأَوَّلَ فِي الْبِنَاءِ.

2. **الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ** (التَّجْرِيدُ): لِنَأْخُذْ عَدَدَيْنِ زَوْجِيَّيْنِ عَامَّيْنِ، وَلَيْسَ مِثَالَيْنِ خَاصَّيْنِ لِئَلَّا يَكُونَ الْبُرْهَانُ مَحْدُودًا. لِيَكُنِ الْأَوَّلُ (٢ × ن) وَلْيَكُنِ الثَّانِي (٢ × م)، حَيْثُ 'ن' وَ'م' يُمَثِّلَانِ أَيَّ عَدَدَيْنِ صَحِيحَيْنِ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ.

3. **الْخُطْوَةُ الْمَنْطِقِيَّةُ** (عَمَلِيَّةُ الْجَمْعِ): لِنَجْمَعْهُمَا: (٢ × ن) + (٢ × م).

4. **الِاسْتِنْتَاجُ** (تَطْبِيقُ قَوَاعِدِ الْجَبْرِ): بِاسْتِخْدَامِ قَاعِدَةِ التَّوْزِيعِ الَّتِي لَا تَخْطِئُ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَكْتُبَهَا هَكَذَا: ٢ × (ن + م).

5. **النَّتِيجَةُ النِّهَائِيَّةُ** (الْبُرْهَانُ): بِمَا أَنَّ (ن + م) هُوَ بِالتَّأْكِيدِ عَدَدٌ صَحِيحٌ جَدِيدٌ يَتَّبِعُ قَوَانِينَ الْكَوْنِ، فَقَدْ أَثْبَتْنَا أَنَّ مَجْمُوعَهُمَا هُوَ أَيْضًا عَلَى صُورَةِ ٢ × (عَدَدٍ مَا). وَبِنَاءً عَلَى تَعْرِيفِنَا الْأَوَّلِ الَّذِي لَا يَتَزَعْزَعُ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ النَّاتِجَ هُوَ عَدَدٌ زَوْجِيٌّ دَائِمًا وَأَبَدًا، مَهْمَا

كَانَتْ 'ن' وَ'م' فِي أَيِّ زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ عَقْلٍ مُنْصِفٍ أَنْ يُنْكِرَهُ كَأَنَّهُ يُنْكِرُ الشَّمْسَ فِي وَسَطِ النَّهَارِ!".

قَالَ الْإِمَامُ بِافْتِخَارٍ يَفُوقُ الْمُعَلِّمَ الَّذِي يَرَى تِلْمِيذَهُ يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْعِلْمِ: "أَحْسَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَقَدْ بَنَيْتَ بُرْهَانًا مُحْكَمًا كَالْقَصْرِ الَّذِي لَا يَهْتَزُّ. هَذَا هُوَ الْبُرْهَانُ: سِلْسِلَةٌ مِنَ الْحَقَائِقِ، كُلُّ حَلْقَةٍ فِيهَا تُسَلِّمُ لِلَّتِي تَلِيهَا بِدِقَّةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ عَقْلٍ مُنْصِفٍ أَنْ يَنْقُضَهَا أَوْ يَشُكَّ فِيهَا. هَذَا نَصِلُ إِلَى الِاطْمِئْنَانِ الَّذِي يَمْلَأُ الْقَلْبَ وَالْعَقْلَ مَعًا، وَيَجْعَلُ الْعِلْمَ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ تُسْتَعْمَلُ، بَلْ جِسْرًا يَعْبُرُ عَلَيْهِ الْقَلْبُ إِلَى سَكِينَةٍ كَأَنَّهَا جَنَّةٌ صَغِيرَةٌ تَسْكُنُ فِي الصَّدْرِ، وَسَبِيلًا يَقُودُ إِلَى الطُّمَأْنِينَةِ الْأَبَدِيَّةِ.

الدَّرْسُ ١٦: أَدَوَاتُ إِتْمَامُ العِدَّةِ

خُوَارِزْمِيَّةُ الكَمَالِ وَالِاطْمِئْنَانِ

(الْمَشْهَدُ: لَحْظَةٌ مِنَ الزُّهُوِّ الْعِلْمِيِّ، بَيْنَ اللَّوْحِ وَالْقُلُوبِ الْمُتَوَهِّجَةِ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ غَيْمٍ كَثِيفٍ)

كَانَتْ الْحَلْقَةُ تَغْلِي بِحَمَاسَةِ الْكَشْفِ الَّذِي يَفُوقُ الْكَنْزَ الْمَدْفُونَ، وَالطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ كَأَعْضَاءِ جَسَدٍ وَاحِدٍ يَنْبِضُ بِشَوْقِ الْحَقِيقَةِ. الْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ وَالْبَخُورِ الَّذِي يَمْلَأُ الْمَكَانَ كَأَنَّهُ يُطَهِّرُ الْعُقُولَ لِلْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِ الْبَيَانِ. بَعْدَ أَنْ شَرَحَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيُّ بُرْهَانَهُ الْمَنْطِقِيَّ عَلَى اللَّوْحِ بِدِقَّةٍ تَفُوقُ الْجَوَاهِرجِيِّ الَّذِي يَصْقُلُ أَلْمَاسَةً، كَانَ وَاثِقًا وَسَعِيدًا كَفَاتِحٍ يَرْفَعُ عَلَمَهُ عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ شَاهِقٍ. لَقَدْ شَعَرَ بِأَنَّهُ بَنَى صَرْحًا لَا يُمْكِنُ هَدْمُهُ بِأَيِّ عَاصِفَةٍ مِنْ عَوَاصِفِ الشَّكِّ، فَقَالَ بِفَخْرٍ يَمْلَأُ قَلْبَهُ كَالنَّهْرِ يَفِيضُ بَعْدَ مَطَرٍ غَزِيرٍ: "هَذَا بُرْهَانٌ كَامِلٌ يَا سَيِّدِي! إِنَّهُ سِلْسِلَةٌ مِنَ الْحَقَائِقِ تَرْبِطُ الْبِدَايَةَ بِالنِّهَايَةِ بِدِقَّةٍ لَا تَقْبَلُ الشَّكَّ!".

لَكِنَّ الْإِمَامَ نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْنِ حَكِيمَتَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا كَبِئْرٍ عَذْبَةٍ تَرْوِي الْعَطْشَى، وَسَأَلَهُ سُؤَالًا هَادِئًا وَلَكِنَّهُ عَمِيقٌ كَبَحْرٍ لَا قَعْرَ لَهُ: "بُرْهَانُكَ جَمِيلٌ وَمُحْكَمٌ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَلَكِنْ هَلْ أَنْتَ مُطْمَئِنٌّ إِلَى أَنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ الْحَالَاتِ الْمُمْكِنَةِ كَأَنَّهُ يَغْطِي الْكَوْنَ كُلَّهُ؟ هَلْ تَحَقَّقْتَ مِنْ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِيهِ ثَغْرَةٌ صَغِيرَةٌ قَدْ يَدْخُلُ مِنْهَا الْخَطَأُ كَاللِّصِّ يَدْخُلُ مِنْ بَابٍ خَلْفِيٍّ مَفْتُوحٍ؟".

صَمَتَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لِلَحْظَةٍ وَكَأَنَّ سُؤَالَ الْإِمَامِ أَصَابَ قَلْبَهُ كَسَهْمٍ يَكْشِفُ نُقْطَةَ ضَعْفٍ خَفِيَّةٍ، لَقَدْ كَانَ مُقَنَّعًا بِصِحَّةِ بُرْهَانِهِ، وَلَكِنَّ كَلِمَةَ "الِاطْمِئْنَانِ" هَزَّتْ شَيْئًا فِي دَاخِلِهِ كَرِيحٍ تَهُزُّ غُصْنًا يَابِسًا.

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بِإِحْبَاطٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي خَسِرَ صَفْقَةً: "هَذَا مَا أَفْعَلُهُ فِي تِجَارَتِي يَا سَيِّدِي! بَعْدَ أَنْ أَحْسِبَ أَرْبَاحِي بِدِقَّةٍ، أَعُودُ وَأُدَقِّقُ الْحِسَابَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ بِدَايَتِهِ كَأَنَّنِي أَبْحَثُ عَنْ لِصٍّ مَخْفِيٍّ. إِنَّهَا خُطْوَةٌ ضَرُورِيَّةٌ لِأَنَامَ لَيْلًا وَأَنَا مُطْمَئِنٌّ إِلَى أَنَّ الْمَالَ سَلِيمٌ وَلَا نَقْصَ فِيهِ!".

قَالَ يَعْقُوبُ بِذَكَائِهِ الْمَنْطِقِيِّ: "وَفِي الْمَنْطِقِ، نَحْنُ لَا نَقْبَلُ الْبُرْهَانَ حَتَّى نُحَاوِلَ أَنْ نَنْقُضَهُ بِأَنْفُسِنَا مِنْ كُلِّ الزَّوَايَا الْمُمْكِنَةِ كَأَنَّنَا نَهْجُمُ عَلَيْهِ بِسُيُوفِ الشَّكِّ. فَإِذَا صَمَدَ أَمَامَ كُلِّ هَجَمَاتِنَا وَلَمْ يَتَزَعْزَعْ كَجَبَلٍ شَامِخٍ، عِنْدَهَا فَقَطْ نَقْبَلُهُ وَنَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ كَأَنَّنَا وَجَدْنَا كَنْزًا لَا يَفْنَى".

أَوْمَأَ الْإِمَامُ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا كَأَنَّهُ يَرَى فِي كَلَامِهِمْ انْعِكَاسًا لِحِكْمَةِ اللهِ، وَقَالَ: "لَقَدْ أَصَبْتُمْ جَمِيعًا يَا أَبْنَائِي، وَكَلَامُكُمْ يَشْهَدُ بِفَهْمِكُمْ الْعَمِيقِ. إِنَّ الْقُرْآنَ يُعَلِّمُنَا مَبْدَأً عَظِيمًا فِي الْإِتْقَانِ، وَهُوَ مَبْدَأُ إِتْمَامِ الْعِدَّةِ وَالْكَمَالِ الَّذِي يَجْعَلُ الْعَمَلَ يَصِلُ إِلَى غَايَتِهِ الْمَنْشُودَةِ. فَالصَّوْمُ لَا يَقْبَلُهُ اللهُ إِلَّا إِذَا أَكْمَلْنَا عِدَّةَ الشَّهْرِ كَامِلَةً دُونَ نَقْصٍ، وَالْحَجُّ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِإِكْمَالِ الْمَنَاسِكِ بِتَرْتِيبِهَا الصَّحِيحِ. إِنَّهُ مَبْدَأُ الْكَمَالِ الَّذِي يُورِثُ الطُمَأْنِينَةَ".

مَنْهَجُ الْقُرْآنِ فِي الْإِتْمَامِ وَالْإِتْقَانِ

أَكْمَلَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ الْمُصْحَفَ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْهَيْبَةِ: "إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى إِتْمَامِ الْعَمَلِ وَإِتْقَانِهِ هِيَ مِنْ أُصُولِ التَّرْبِيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَبْنِي الْإِنْسَانَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ":

١. الْإِتْمَامُ فِي الْعِبَادَاتِ:

"لِنَبْدَأْ بِأَقْرَبِ شَيْءٍ إِلَيْنَا، وَهُوَ عِبَادَاتُنَا الَّتِي تَرْبِي الرُّوحَ وَتُطَهِّرُ الْقَلْبَ. إِنَّ اللهَ يُرَبِّينَا فِيهَا عَلَى أَنَّ الْقِيمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَا تَكْمُنُ فِي الْبِدَايَةِ الْحَمَاسِيَّةِ، بَلْ فِي حُسْنِ الْخِتَامِ وَالْكَمَالِ الَّذِي يَدُومُ. تَأَمَّلُوا فِي أَمْرِهِ تَعَالَى فِي الصِّيَامِ الَّذِي يُطَهِّرُ الْجَسَدَ وَالرُّوحَ":

﴿...فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١٨٥).

عَلَّقَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) فَوْرًا وَهُوَ يَتَذَكَّرُ صَفْقَاتِهِ الْمُعَقَّدَةَ: "أَحْسَنْتَ يَا سَيِّدِي! هَذَا مِثْلُ عَمَلِي تَمَامًا فِي التِّجَارَةِ! إِذَا طَلَبَ مِنِّي تَاجِرٌ ثَلَاثِينَ لِفَافَةً مِنَ الْقُمَاشِ، فَلَا يَقْبَلُهَا مِنِّي إِذَا سَلَّمْتُهُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ فَقَطْ، بَلْ يَطْلُبُ إِكْمَالَ الْعِدَّةِ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ. فَالصَّفْقَةُ لَا تَتِمُّ وَالثِّقَةُ لَا تُبْنَى إِلَّا بِـ 'إِكْمَالِ الْعِدَّةِ'، وَالنَّقْصُ يُفْسِدُ الْعَقْدَ كُلَّهُ كَأَنَّهُ يُفْسِدُ الْعِبَادَةَ إِذَا نَقَصَتْ مِنْهَا خُطْوَةٌ".

"أَحْسَنْتَ التَّشْبِيهَ يَا إِسْمَاعِيلُ"، قَالَ الْإِمَامُ. "وَالْأَمْرُ يَتَجَلَّى بِشَكْلٍ أَوْضَحَ فِي الْحَجِّ، حَيْثُ تَتَتَابَعُ الْمَنَاسِكُ وَاحِدَةً تِلْوَ الْأُخْرَى كَخُطُوَاتِ خُوَارِزْمِيَّةٍ مُحْكَمَةٍ، وَيَأْمُرُنَا اللهُ بِإِكْمَالِهَا لِيَكُونَ الْحَجُّ مَقْبُولًا":

﴿...فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (الْبَقَرَةُ: ٢٠٠).

هُنَا قَالَ يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ) وَكَأَنَّهُ اكْتَشَفَ قَاعِدَةً عَامَّةً تَفُوقُ الْمَنْطِقَ

الْيُونَانِيَّ: "الْآنَ فَهِمْتُ الْمَعْنَى الْمَنْطِقِيَّ وَرَاءَ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي! إِنَّ الْعِبَادَةَ كَالْحَجِّ هِيَ 'نِظَامٌ' مُتَكَامِلٌ يَبْنِي الرُّوحَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، وَالنِّظَامُ لَا يُحَقِّقُ غَايَتَهُ إِلَّا بِاكْتِمَالِ جَمِيعِ أَجْزَائِهِ بِالتَّرْتِيبِ الصَّحِيحِ وَالْإِتْقَانِ الْكَامِلِ. فَمَنْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ وَلَمْ يَطُفْ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ، فَقَدْ انْهَارَ نِظَامُ حَجِّهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ بَنَى قَصْرًا وَتَرَكَ سَقْفَهُ مَفْتُوحًا لِلْعَوَاصِفِ. إِنَّهَا قَاعِدَةُ 'الْكُلِّ أَوِ اللَّا شَيْءِ'، فَالنُّقْصَانُ يُبْطِلُ الْقِيمَةَ الْكُلِّيَّةَ وَيُفْسِدُ الْبِنَاءَ كُلَّهُ".

نَظَرَ الْجَمِيعُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيِّ، فَأَخَذَ اللَّوْحَ وَقَدْ تَوَسَّعَتْ دَائِرَةُ فَهْمِهِ لِمَعْنَى "الْخُوَارِزْمِيَّةِ" كَأَنَّهُ يَرَى عَالَمًا جَدِيدًا يَتَشَكَّلُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ: "الْآنَ أَرَى بِوُضُوحٍ أَكْبَرَ يَا سَيِّدِي! إِنَّ عَمَلِيَّةَ الْحِسَابِ (الْخُوَارِزْمِيَّةَ) هِيَ بِمَثَابَةِ 'عَهْدٍ' بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْمَسْأَلَةِ، يَضْمَنُ الْأَوَّلُ دِقَّةَ الْمُدْخَلَاتِ وَالْخُطُوَاتِ، وَتَضْمَنُ الثَّانِيَةُ صِحَّةَ النَّاتِجِ. فَإِذَا أَدْخَلْتُ لَهَا أَرْقَامًا نَاقِصَةً، أَوْ قُمْتُ بِالْخُطُوَاتِ بِشَكْلٍ غَيْرِ كَامِلٍ، فَأَنَا بِذَلِكَ أَكُونُ قَدْ أَخْلَلْتُ بِعَهْدِي، فَلَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَطْلُبَ مِنَ الْخُوَارِزْمِيَّةِ أَنْ تُوفِيَ بِعَهْدِهَا وَتُعْطِيَنِي الْحَلَّ الْمَضْبُوطَ دُونَ خَطَأٍ".

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "هَذَا هُوَ يَا أَبْنَائِي، إِنَّ الْإِتْمَامَ وَالْإِتْقَانَ لَيْسَا مُجَرَّدَ فَضَائِلَ تَزِينُ الْعَمَلَ، بَلْ هُمَا شُرُوطٌ أَسَاسِيَّةٌ لِعَمَلِ أَيِّ نِظَامٍ عَادِلٍ وَمُطْمَئِنٍ، سَوَاءٌ كَانَ نِظَامًا أَخْلَاقِيًّا كَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ

الَّذِي يَبْنِي الثِّقَةَ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ نِظَامًا عِلْمِيًّا كَخُوَارِزْمِيَّاتِ الْحِسَابِ الَّتِي تَضْمَنُ الدِّقَّةَ وَالْكَمَالَ. فَالْإِتْمَامُ هُوَ الَّذِي يُوَلِّدُ الثِّقَةَ، وَالثِّقَةُ هِيَ الَّتِي تُورِثُ الِاطْمِئْنَانَ الَّذِي يَمْلَأُ الْقَلْبَ وَالرُّوحَ مَعًا كَنُورِ الْإِيمَانِ يَمْلَأُ الْكَوْنَ كُلَّهُ".

التَّحَقُّقُ النِّهَائِيُّ

"فَالرُّكْنُ الْأَخِيرُ فِي بِنَاءِ الِاطْمِئْنَانِ"، قَالَ الْإِمَامُ مُوَجِّهًا كَلَامَهُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا كَبِئْرٍ عَذْبَةٍ تَرْوِي الْعَطْشَى: "هُوَ التَّحَقُّقُ النِّهَائِيُّ (Final Verification)، الَّذِي يَضْمَنُ أَنَّ الْبِنَاءَ كَامِلٌ وَلَا نَقْصَ فِيهِ. وَهُوَ أَنْ تَمُرَّ عَلَى خُوَارِزْمِيَّتِكَ أَوْ بُرْهَانِكَ وَتُحَاوِلَ أَنْ تَكْسِرَهُ بِنَفْسِكَ كَأَنَّكَ تَخْتَبِرُ سَيْفًا بِضَرْبَاتِهِ الْقَوِيَّةِ. جَرِّبْهُ مَعَ الْأَرْقَامِ الصَّغِيرَةِ كَالْأَطْفَالِ يَلْعَبُونَ، وَالْأَرْقَامِ الْكَبِيرَةِ كَالْعُمَّالِ يَعْمَلُونَ، وَمَعَ الْحَالَةِ الْأَخْطَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ: الصِّفْرِ! فَكَثِيرٌ مِنَ الْأَنْظِمَةِ تَصْمُدُ أَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ تَنْهَارُ أَمَامَ الصِّفْرِ كَقَصْرٍ مِنْ رَمْلٍ أَمَامَ مَوْجَةٍ. إِذَا صَمَدَ بُرْهَانُكَ أَمَامَ كُلِّ هَذِهِ الِاخْتِبَارَاتِ وَلَمْ يَتَزَعْزَعْ كَجَبَلٍ شَامِخٍ، عِنْدَهَا فَقَطْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَطْمَئِنَّ إِلَى كَمَالِهِ وَتَثْبِيتِهِ كَأَنَّكَ وَصَلْتَ إِلَى قِمَّةِ الْطُمَأْنِينَةِ الَّتِي لَا تَتَزَعْزَعُ".

أَخَذَ أَبُو عَبْدِ اللهِ اللَّوْحَ وَكَتَبَ بِخَطٍّ وَاثِقٍ كَأَنَّهُ يَكْتُبُ وَصِيَّةً أَخِيرَةً:

الرُّكْنُ الْأَخِيرُ لِبِنَاءِ الِاطْمِئْنَانِ: التَّحَقُّقُ وَإِتْمَامُ الْعِدَّةِ.

فَقَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الطَّلَبَةِ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا كَنَسِيمٍ بَارِدٍ يَخْتَرِقُ قَيْظَ الصَّحْرَاءِ: "الْآنَ يَا بُنَيَّ، لَقَدْ أَصْبَحَتْ لَدَيْكَ الْأَدَوَاتُ وَالْأَرْكَانُ وَطَرِيقَةُ بِنَاءِ الِاطْمِئْنَانِ الَّذِي يَمْلَأُ الْقَلْبَ وَالرُّوحَ. لَقَدِ اكْتَمَلَتْ عِنْدَكَ أُصُولُ الْمَنْهَجِ الظَّاهِرَةُ. وَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِنَغُوصَ فِي مَا هُوَ أَعْمَقُ... حَانَ الْوَقْتُ لِنَكْشِفَ عَنْ رُوحِ هَذَا الْمَنْهَجِ الَّذِي يَفُوقُ الْعِلْمَ وَيَصِلُ إِلَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ".

فَهَزَّ أَبُو عَبْدِ اللهِ رَأْسَهُ وَقَالَ: "الْآنَ فَهِمْتُ يَا سَيِّدِي أَنَّ الْخُوَارِزْمِيَّةَ لَا تَكْتَمِلُ بِالْبُرْهَانِ فَقَطْ، بَلْ بِالتَّحَقُّقِ وَالإِتْمَامِ."

وَأَوْمَأَ الْإِمَامُ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا، وَقَالَ:

"لَقَدْ أَصَبْتُمْ جَمِيعًا يَا أَبْنَائِي، فَكَلَامُكُمْ يَشْهَدُ بِفَهْمٍ عَمِيقٍ. إِنَّ الْقُرْآنَ يُعَلِّمُنَا أَصْلًا عَظِيمًا: أَلَا وَهُوَ إِتْمَامُ الْعَدَّةِ وَإِتْقَانُ الْعَمَلِ. فَالصَّوْمُ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِإِتْمَامِ الْأَيَّامِ، وَالْحَجُّ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِإِتْمَامِ الْمَنَاسِكِ. فَهُوَ مَبْدَأُ الْكَمَالِ الَّذِي يُورِثُ الثِّقَةَ، وَالثِّقَةُ هِيَ الَّتِي تُوَلِّدُ الطُّمَأْنِينَةَ".

المِحْوَرُ الثَّانِي: ثَوْرَةُ الجَبْرِ والمُقَابَلَةِ

كَشْفُ المَجْهُولِ

لَقَدْ أَتْمَمْنَا بِنَجَاحٍ "ثَوْرَةَ الحِسَابِ"، وَحَانَ الوَقْتُ الآنَ لِخَوْضِ غِمَارِ ثَوْرَةٍ أَعْمَقَ وَأَكْثَرَ تَجْرِيدًا: "ثَوْرَةُ الجَبْرِ".

مُقَدِّمَةُ القِسْمِ: لُغْزُ "الشَّيْءِ" المُتَوَارِي

(سَيَبْدَأُ هَذَا المِحْوَرُ بِمَشْهَدٍ يَأْتِي فِيهِ إِسْمَاعِيلُ إِلَى حَلْقَةِ الإِمَامِ بِمَسْأَلَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ نَوْعٍ مُخْتَلِفٍ، لَا تَتَعَلَّقُ بِالحِسَابِ المُبَاشِرِ، بَلْ بِإِيجَادِ كَمِّيَّةٍ مَجْهُولَةٍ "شَيْءٌ"، مِمَّا يَفْتَحُ البَابَ لِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ لِعِلْمٍ جَدِيدٍ).

وَدَخَلَ إِسْمَاعِيلُ وَفِي يَدَيْهِ مَسْأَلَةٌ غَرِيبَةٌ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ لُغْزًا يَتَدَفَّقُ مِنْ صَدْرِ التَّارِيخِ، وَيَنْبُضُ بِسُؤَالٍ يَطْلُبُ جَوَابًا يَفُوقُ مَجَرَّدَ العَدِّ.

(المَشْهَدُ: سُؤَالٌ يُفَجِّرُ النِّقَاشَ)

مَنْطِقَانِ، وَعَالَمَانِ

بَعْدَ أَنْ أَذَاعَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيُّ طَرِيقَتَهُ الجَدِيدَةَ فِي الحِسَابِ، وَأَثْبَتَ أَنَّهَا الأَسْرَعُ وَالأَيْسَرُ، ظَنَّ إِسْمَاعِيلُ أَنَّ كُلَّ المَشَاكِلِ قَدْ حُلَّتْ.

وَلَكِنْ، فِي أَحَدِ الأَيَّامِ، جَاءَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ) إِلَى الحَلْقَةِ وَقَالَ بِلَهْجَةٍ يَمْلَؤُهَا التَّحَدِّي وَالِاحْتِرَامُ: "يَا سَيِّدِي الإِمَامُ، لَقَدْ تَفَوَّقَ صَدِيقُنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ فِي "فَنِّ الحِسَابِ"، وَهَذَا أَمْرٌ نَافِعٌ لِلتُّجَّارِ وَالعَامَّةِ. وَلَكِنَّ السُّؤَالَ الأَهَمَّ يَبْقَى: هَلْ هَذَا "عِلْمٌ" بِالمَعْنَى الحَقِيقِيِّ؟ إِنَّ المَنْطِقَ اليُونَانِيَّ يُعَلِّمُنَا أَنَّ العِلْمَ الأَرْقَى هُوَ عِلْمُ البَرَاهِينِ المُجَرَّدَةِ، لَا عِلْمُ الأَرْقَامِ المَحْسُوسَةِ. فَكَيْفَ سَنَنْتَقِلُ مِنْ مُجَرَّدِ الحِسَابِ إِلَى مَرْتَبَةِ البُرْهَانِ المَنْطِقِيِّ الصَّارِمِ؟".

كَانَ السُّؤَالُ عَمِيقًا وَخَطِيرًا، فَقَدْ كَانَ يَمَسُّ قِيمَةَ كُلِّ مَا يَفْعَلُونَهُ. ابْتَسَمَ الإِمَامُ وَقَالَ: "سُؤَالُكَ هُوَ البَابُ الَّذِي سَنَدْخُلُ مِنْهُ إِلَى عَالَمٍ جَدِيدٍ يَا يَعْقُوبُ. لَقَدْ وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى الفَرْقِ الجَوْهَرِيِّ بَيْنَ طَرِيقَتَيْنِ لِلنَّظَرِ إِلَى العَالَمِ: مَنْطِقِ أَرِسْطُو الَّذِي تُجِلُّهُ، وَ مَنْطِقِ البَيَانِ الَّذِي نَسْتَلْهِمُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ".

"لِنَعْقِدْ مُقَارَنَةً بَيْنَهُمَا لِنَفْهَمَ أَيُّهُمَا أَقْدَرُ عَلَى مُقَارَبَةِ عِلْمٍ كَعِلْمِ

الحِسَابِ":

أَوَّلًا: مَنْطِقُ أَرِسْطُو - المَنْطِقُ المُتَرَفِّعُ

"إِنَّ المَنْطِقَ اليُونَانِيَّ الَّذِي تَدْرُسُهُ يَا يَعْقُوبُ، هُوَ مَنْطِقٌ عَظِيمٌ وَلَكِنَّهُ "مُتَرَفِّعٌ". إِنَّهُ يُشْبِهُ سَاكِنَ القَصْرِ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى العَالَمِ مِنْ بُرْجٍ عَاجِيٍّ.

هَدَفُهُ: البَحْثُ عَنِ الحَقِيقَةِ المُجَرَّدَةِ وَالصُّورِيَّةِ، بَعِيدًا عَنْ فَوْضَى الوَاقِعِ.

وَأَدَاتُهُ: القِيَاسُ المَنْطِقِيُّ الصَّارِمُ الَّذِي يَنْتَقِلُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ كُلِّيَّةٍ إِلَى نَتَائِجَ جُزْئِيَّةٍ.

مَشْكِلَتُهُ مَعَ الحِسَابِ: إِنَّهُ يَزْدَرِي الأَرْقَامَ لِأَنَّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِالأَشْيَاءِ المَحْسُوسَةِ (تُفَّاحَاتٌ، دَرَاهِمُ...). هُوَ يَبْحَثُ عَنِ "المُثَلَّثِ" كَفِكْرَةٍ مُطْلَقَةٍ، لَا عَنْ قِيَاسِ أَرْضٍ مُثَلَّثَةٍ. وَلِهَذَا السَّبَبِ، تَأَخَّرَ عِلْمُ الحِسَابِ لَدَى اليُونَانِ، لِأَنَّ فَلْسَفَتَهُمْ كَانَتْ تَحْتَقِرُهُ".

ثَانِيًا: مَنْطِقُ البَيَانِ - المَنْطِقُ المُتَوَاضِعُ وَالشَّامِلُ

"أَمَّا المَنْطِقُ الَّذِي نَسْتَلْهِمُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَهُوَ "مَنْطِقُ البَيَانِ". وَهُوَ

مَنْطِقٌ مُتَوَاضِعٌ، لِأَنَّهُ لَا يَخْجَلُ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى أَرْضِ الوَاقِعِ وَيَتَعَامَلَ مَعَ مَشَاكِلِ النَّاسِ اليَوْمِيَّةِ، ثُمَّ يَرْتَقِيَ بِهَا إِلَى قَوَانِينَ كُلِّيَّةٍ. فَمَنْطِقُ أَرِسْطُو يُشْبِهُ بُرْجًا عَاجِيًّا يَنْظُرُ إِلَى العَالَمِ مِنْ بُعْدٍ، أَمَّا مَنْطِقُ البَيَانِ فَيُشْبِهُ عَيْنًا تَنْزِلُ إِلَى النَّهْرِ فَتَلْمَسُ الْمَاءَ، ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ. هُوَ مَنْطِقٌ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّجْرِبَةِ الْمُعَايَشَةِ وَالرُّؤْيَةِ الْكَوْنِيَّةِ، بَيْنَ المَسِّ وَالتَّسَامِي، فَيَرْبِطُ الأَرْضَ بِالسَّمَاءِ رَبْطًا مُتَنَاغِمًا".

هَدَفُهُ: إِظْهَارُ الحَقِّ (البَيَانُ) وَتَحْقِيقُ العَدْلِ (المِيزَانُ) وَاليُسْرِ لِلنَّاسِ.

وَأَدَاتُهُ: إِنَّهَا أَدَوَاتٌ مُتَكَامِلَةٌ: يَسْتَخْدِمُ البُرْهَانَ العَقْلِيَّ (كَمَا يَفْعَلُ أَرِسْطُو)، وَلَكِنَّهُ يُضِيفُ إِلَيْهِ الِاسْتِدْلَالَ بِالآيَاتِ المَشْهُودَةِ، وَضَرْبَ الأَمْثَالِ لِتَقْرِيبِ المَعَانِي، وَيَرْبِطُ كُلَّ ذَلِكَ بِغَايَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ عُلْيَا.

نَظْرَتُهُ لِلْحِسَابِ: إِنَّهُ لَا يَرَى الأَرْقَامَ شَيْئًا وَضِيعًا، بَلْ يَرَاهَا "آيَاتٍ" وَ"كَلِمَاتٍ" فِي لُغَةِ خَلْقِ اللهِ. فَالحِسَابُ لَيْسَ مُجَرَّدَ عَمَلٍ تِجَارِيٍّ، بَلْ هُوَ طَرِيقٌ لِفَهْمِ النِّظَامِ الَّذِي يَسْرِي فِي الكَوْنِ كُلِّهِ:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾" (الرحمن: ٥).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: 8).

اخْتَتَمَ الإِمَامُ كَلَامَهُ قَائِلًا: "وَلِهَذَا السَّبَبِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، سَتَنْجَحُ حَيْثُ فَشِلَ الآخَرُونَ. لِأَنَّكَ لَنْ تَنْطَلِقَ مِنْ مَنْطِقٍ مُتَرَفِّعٍ يَحْتَقِرُ الوَاقِعَ، بَلْ سَتَنْطَلِقُ مِنْ "مَنْطِقِ البَيَانِ" الَّذِي يُؤْمِنُ بِأَنَّ أَبْسَطَ مَسْأَلَةٍ فِي السُّوقِ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا ظِلًّا مِنْ ظِلَالِ الحِكْمَةِ الإِلَهِيَّةِ.

فَاعْلَمُوا يَا بَنِيَّ، أَنَّ هُنَاكَ عَالَمًا جَدِيدًا يَبْدَأُ عِنْدَ حَرْفٍ وَاحِدٍ: (شَيْءٌ). فَإِذَا فَهِمْنَاهُ، انْكَشَفَ لَنَا سِرٌّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْرَارِ العَقْلِ.

فَهَيَّا بِنَا الآنَ نُطَبِّقْ "مَنْطِقَ البَيَانِ" عَلَى أَعْظَمِ تَحَدٍّ يُوَاجِهُ العَقْلَ: لُغْزُ "الشَّيْءِ" المَجْهُولِ".

البَابُ السَّادِسُ: أَدَاةُ الْمُعَادَلَةِ

مِيزَانُ الْعَدْلِ وَالْحَقِيقَةِ

بَعْدَ أَنْ أَكْمَلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيُّ أَرْكَانَ الْحِسَابِ وَالْبُرْهَانِ، جَاءَ الْوَقْتُ لِوِلادَةِ أَدَاةٍ جَدِيدَةٍ، هِيَ أَعْظَمُ مَا أَنْجَبَتْهُ الْعُقُولُ فِي سَاحَةِ الْعِلْمِ: "الْمُعَادَلَةُ" (Equation). لَمْ تَكُنْ مَجَرَّدَ رَمْزٍ رِيَاضِيٍّ صَامِتٍ، بَلْ كَانَتْ مِيزَانًا جَلِيًّا يُوَازِنُ بَيْنَ الْطَّرَفَيْنِ، كَأَنَّهَا تَزِنُ الْحَقَّ فِي كِفَّتَيْنِ لَا تَمِيلَانِ، وَتُظْهِرُ الْعَدْلَ كَشَمْسٍ لَا يَسْتَطِيعُ سَحَابٌ أَنْ يَحْجُبَهَا.

وَنَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ نَظْرَةَ أَبٍ يُعِدُّ وَلَدَهُ لِرِحْلَةٍ جَدِيدَةٍ، فَقَالَ:

"يَا بُنَيَّ، لَقَدْ عَرَفْتَ كَيْفَ تَبْنِي الْعَدْلَ بِالْبُرْهَانِ، وَتُتْمِمَ الْعِدَّةَ حَتَّى تَظْفَرَ بِالطُّمَأْنِينَةِ. وَلَكِنَّ الْعِلْمَ يَطْلُبُ مِنْكَ مِفْتَاحًا آخَرَ، أَدَاةً تُوَازِنُ بَيْنَ الْمَعْلُومِ وَالْمَجْهُولِ، فَتَكْشِفُ مَا غَابَ، وَتَحُلُّ مَا اسْتَعْصَى. إِنَّهَا 'الْمُعَادَلَةُ'، الْمِيزَانُ الَّذِي يُسَاوِي الطَّرَفَيْنِ حَتَّى يَنْطِقَ الْحَقُّ بِلِسَانِ الْعَدْلِ".

وفي تلك اللحظة دخل إِسْمَاعِيلُ، وَفِي يَدَيْهِ مَسْأَلَةٌ غَرِيبَةٌ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ لُغْزًا يَتَدَفَّقُ مِنْ صَدْرِ التَّارِيخِ، يَطْلُبُ جَوَابًا يَفُوقُ مَجَرَّدَ الْعَدِّ. وَقَالَ بِحِيرَةٍ مَمْزُوجَةٍ بِتَحَدٍّ:

"يَا سَيِّدِي، إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ لَا تَقْبَلُ الْحِسَابَ الْمُبَاشِرَ، بَلْ تَطْلُبُ أَنْ نَكْشِفَ مَجْهُولًا يُخْفِي نَفْسَهُ كَمَا تُخْفِي السَّحَابَةُ وَجْهَ الْقَمَرِ".

فَابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَأْخُذُ اللَّوْحَ، وَرَسَمَ خَطًّا مُسْتَقِيمًا قَسَّمَهُ إِلَى طَرَفَيْنِ، ثُمَّ قَالَ:

"هَذَا هُوَ سِرُّ الْمُعَادَلَةِ، هُوَ مِيزَانٌ يَجْمَعُ بَيْنَ جَانِبَيْنِ، فَيُسَاوِي بَيْنَ الْمَعْلُومِ وَالْمَجْهُولِ. وَكُلَّمَا حَفِظْنَا تَوَازُنَ الْمِيزَانِ، تَجَلَّى لَنَا الْحَقُّ وَانْكَشَفَ الْغَامِضُ".

مَسْأَلَةُ إِسْمَاعِيلَ

وَأَخْرَجَ إِسْمَاعِيلُ صَكًّا تِجَارِيًّا، وَقَالَ وَهُوَ يُقَلِّبُهُ بِيَدَيْهِ:

"يَا سَيِّدِي الإِمَامُ، قَدْ بَعْتُ بَضَاعَةً بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ، فَدَفَعَ لِي الْمُشْتَرِي خَمْسَةً، وَوَعَدَنِي أَنْ يُكْمِلَ الْبَاقِي بَعْدَ أُسْبُوعٍ. فَكَمْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ؟".

ضَحِكَ بَعْضُ الطَّلَبَةِ وَقَالُوا بِاسْتِهَانَةٍ: "هَذَا سُهُولَةٌ، يَبْقَى خَمْسَةٌ!". فَأَجَابَهُمْ إِسْمَاعِيلُ جَادًّا:

"نَعَمْ، هَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ الأَمْرَ لَا يَقِفُ عِنْدَ مَسْأَلَةٍ مُبَاشِرَةٍ، بَلْ عِنْدَ مَا هُوَ أَعْقَدُ: تَخَيَّلُوا أَنِّي لَا أَعْلَمُ الْمَبْلَغَ الْكُلِّيَّ، وَإِنَّمَا أَعْلَمُ أَنَّهُ دَفَعَ خَمْسَةً، وَبَقِيَ عَلَيْهِ (شَيْءٌ). فَكَيْفَ أَكْشِفُ عَنِ الْمَجْهُولِ؟".

فَأَخَذَ الْإِمَامُ اللَّوْحَ، وَرَسَمَ مِيزَانًا، وَكُتِبَ عَلَيْهِ:

المَبْلَغُ الكُلِّيُّ = ٥ + شَيْءٌ.

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الطَّلَبَةِ وَقَالَ:

"إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ الْمَبْلَغَ الكُلِّيَّ هُوَ عَشَرَةٌ، أَمْكَنَنَا أَنْ نَكْشِفَ الْمَجْهُولَ:

الشَّيْءُ = ١٠ - ٥، فَيَكُونُ الشَّيْءُ خَمْسَةً".

ثُمَّ أَخْرَجَ إِسْمَاعِيلُ صَكًّا آخَرَ غَرِيبًا، وَقَالَ:

"يَا سَيِّدِي، رَجُلٌ دَفَعَ لِي مَبْلَغًا مَجْهُولًا، ثُمَّ قَالَ: سَأُضِيفُ إِلَيْكَ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمَ، فَيُصْبِحُ الْمَبْلَغُ كُلُّهُ تِسْعَةً. فَكَمْ كَانَ الْمَبْلَغُ الأَوَّلُ؟".

فَسَادَ صَمْتٌ فِي الْحَلْقَةِ، وَقَالَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ) وَهُوَ يَتَأَمَّلُ:

"لَا يُمْكِنُ حَلُّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِالْعَدِّ الْمُبَاشِرِ، إِنَّهَا تَطْلُبُ أَدَاةً أَعْمَقَ، أَدَاةً تُعْطِي (الشَّيْءَ) اسْمًا وَمَقَامًا".

وِلادَةُ الْمُعَادَلَةِ

فَأَخَذَ الإِمَامُ اللَّوْحَ مَرَّةً أُخْرَى، وَرَسَمَ مِيزَانًا، وَكُتِبَ عَلَيْهِ:

الشَّيْءُ + ٣ = ٩.

ثُمَّ قَالَ:

"هُنَا نُجْرِي فِعْلَ (الْجَبْرِ) فَنُزِيلُ الزَّوَائِدَ، وَفِعْلَ (الْمُقَابَلَةِ) فَنُسَاوِي الطَّرَفَيْنِ، فَيَبْقَى:

الشَّيْءُ = ٩ - ٣ = ٦".

وَابْتَسَمَ الْإِمَامُ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ مَهابَةَ الْمَعْرِفَةِ:

"هَكَذَا وُلِدَتِ الْمُعَادَلَةُ. لَيْسَتْ مُجَرَّدَ كِتَابَةٍ رِيَاضِيَّةٍ، بَلْ هِيَ جِسْرٌ يَرْبِطُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ عَوَالِمَ:

1. **التِّجَارَةُ** الَّتِي تَطْلُبُ دِقَّةَ الْحِسَابِ.

2. **الْمَنْطِقُ** الَّذِي يَطْلُبُ بُرْهَانًا يَصْمُدُ أَمَامَ الشَّكِّ.

3. **الْعَدْلُ** الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ مِيزَانٍ لَا يَمِيلُ.

فَالْمُعَادَلَةُ هِيَ الْمِيزَانُ الْجَدِيدُ، تُظْهِرُ الْحَقَّ، وَتَكْشِفُ الْمَجْهُولَ كَمَا يَكْشِفُ النُّورُ مَا يَخْتَبِئُ فِي الظِّلَالِ".

الدَّرْسُ ١٧ : مَنْطِقُ المُعَادَلَةِ

ثَمَرَةُ العَقْلِيَّةِ القُرْآنِيَّةِ: ثَلَاثَةُ أَعْمِدَةٍ يُشَيِّدُ بِهَا الْقُرْآنُ قَصْرَ الْعَدْلِ: عَدْلٌ فِي الْكَوْنِ، وَعَدْلٌ فِي الذَّاتِ، وَعَدْلٌ فِي التَّشْرِيعِ

(المَشْهَدُ: سُؤَالٌ عَنْ جُذُورِ الفِكْرَةِ، بَيْنَ اللَّوْحِ وَالْقُلُوبِ الْمُتَوَهِّجَةِ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ غَيْمٍ كَثِيفٍ)

كَانَتْ الْحَلْقَةُ تَغْلِي بِحَمَاسَةِ الْكَشْفِ الَّذِي يَفُوقُ الْكَنْزَ الْمَدْفُونَ، وَالطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ كَأَعْضَاءِ جَسَدٍ وَاحِدٍ يَنْبِضُ بِشَوْقِ الْحَقِيقَةِ. الْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ وَالْبَخُورِ الَّذِي يَمْلَأُ الْمَكَانَ كَأَنَّهُ يُطَهِّرُ الْعُقُولَ لِلْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِ الْبَيَانِ. بَعْدَ أَنْ طَرَحَ الْإِمَامُ مُقَدِّمَتَهُ عَنْ "صَيْدِ الْمَجْهُولِ" وَكَشَفَ كَيْفَ يَبْنِي الْقُرْآنُ الِاطْمِئْنَانَ مِنَ الشَّاهِدِ إِلَى الْغَائِبِ، وَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ الْخُوَارِزْمِيُّ بِالتَّفْكِيرِ فِي حَلِّ يَفُوقُ الْخَيَالَ، رَفَعَ يَعْقُوبُ يَدَهُ وَقَالَ بِتَفَكُّرٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ سِرِّ الْكَوْنِ: "يَا سَيِّدِي، لَقَدْ أَلْهَمَنِي كَلَامُكَ

كَأَنَّهُ نُورٌ يُضِيءُ الظَّلَامَ. قَبْلَ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ 'كَيْفِيَّةِ' حَلِّ اللُّغْزِ وَنَغُوصُ فِي الْحِسَابَاتِ، أُرِيدُ أَنْ أَفْهَمَ 'لِمَاذَا' نَحْنُ أَصْلًا نُؤْمِنُ بِأَنَّ هُنَاكَ حَلًّا عَادِلًا وَمُتَوَازِنًا يَنْتَظِرُنَا فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ؟ مَا الَّذِي يَجْعَلُنَا نَثِقُ بِأَنَّ لِكُلِّ مَسْأَلَةٍ 'تَعَادُلًا' مُمْكِنًا يَكْشِفُ الْمَجْهُولَ كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِتَارًا عَنْ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ؟".

أَشْرَقَ وَجْهُ الْإِمَامِ لِهَذَا السُّؤَالِ الْعَمِيقِ كَأَنَّهُ وَجَدَ كَنْزًا مَدْفُونًا فِي أَعْمَاقِ الْعَقْلِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "لَقَدْ وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَفِيِّ يَا يَعْقُوبُ، وَسُؤَالُكَ هَذَا يَكْشِفُ جُذُورَ الْفِكْرَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ جَذْرًا يُسْقِي شَجَرَةَ الْعِلْمِ كُلَّهَا. إِنَّ ثِقَتَنَا هَذِهِ لَا تَأْتِي مِنْ فَرَاغٍ أَوْ وَهْمٍ، بَلْ هِيَ نِتَاجُ 'عَقْلِيَّةٍ' كَامِلَةٍ بَنَاهَا الْقُرْآنُ فِي نُفُوسِنَا خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ كَأَنَّهُ يَبْنِي قَصْرًا مِنَ الْطُمَأْنِينَةِ. لَقَدْ زَرَعَ فِينَا طُمَأْنِينَةً رَاسِخَةً بِأَنَّ الْعَدْلَ لَيْسَ مُجَرَّدَ قِيمَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ نَتَمَنَّاهَا فِي السُّوقِ أَوْ الْمَحْكَمَةِ، بَلْ هُوَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الْوُجُودِ كُلِّهِ، يَحْكُمُ الْكَوْنَ وَالْحَيَاةَ وَالْمَصِيرَ. فَبِالْعَدْلِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَبِهِ يَتَوَازَنُ الْكَوْنُ كُلُّهُ. هَذَا الْإِطْمِئْنَانُ يَجْعَلُ الْعَقْلَ الْمُسْلِمَ يَتَوَقَّعُ وَيَبْحَثُ دَائِمًا عَنِ 'التَّعَادُلِ' وَالتَّسَاوِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، كَأَنَّهُ يَرَى الْمُعَادَلَةَ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ كَدَلِيلٍ عَلَى عَدْلِ اللهِ. وَلِكَيْ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ وَتَتَّضِحَ الصُّورَةُ، سَأَعْرِضُ عَلَيْكُمْ كَيْفَ يُؤَسِّسُ الْقُرْآنُ لِهَذَا الْمَبْدَأِ مِنْ ثَلَاثِ زَوَايَا مُتَكَامِلَةٍ كَأَنَّهَا أَعْمِدَةٌ تَحْمِلُ بِنَاءَ الْطُمَأْنِينَةِ".

أَوَّلًا: الْعَدْلُ كَقَانُونٍ كَوْنِيٍّ وَتَشْرِيعِيٍّ

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ الْمُصْحَفَ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْهَيْبَةِ: "لِكَيْ نَفْهَمَ لِمَاذَا وُلِدَتْ فِكْرَةُ الْمُعَادَلَةِ فِي عَقْلٍ مُسْلِمٍ يَثِقُ بِوُجُودِ حَلٍّ عَادِلٍ، يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ الْقُرْآنَ يُؤَسِّسُ لِفِكْرَةِ 'الْعَدْلِ' عَلَى مُسْتَوَيَيْنِ عَظِيمَيْنِ، كُلٌّ مِنْهُمَا يُكَمِّلُ الْآخَرَ كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَتَعَاقَبَانِ بِحِكْمَةٍ".

"الْمُسْتَوَى الْأَوَّلُ: الْعَدْلُ كَقَانُونٍ كَوْنِيٍّ".

"إِنَّ الْقُرْآنَ يُعْلِنُ أَنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقِ الْكَوْنَ عَلَى الْفَوْضَى أَوْ الْعَشْوَائِيَّةِ كَرِيَاحٍ تَهُبُّ دُونَ هَدَفٍ، بَلْ أَسَّسَهُ عَلَى نِظَامٍ دَقِيقٍ وَتَوَازُنٍ مُطْلَقٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ، وَجَعَلَ لَهُ مِيزَانًا يَحْفَظُهُ مِنَ الْفَسَادِ وَيَضْمَنُ دَيْمُومَتَهُ":

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٧).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الْحَدِيدُ: ٢٥).

عَلَّقَ يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ) بِانْبِهَارٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ الَّذِينَ اكْتَشَفُوا سِرًّا عَظِيمًا: "هَذَا عَجِيبٌ يَا سَيِّدِي! إِنَّهُ يَرْبِطُ الْمِيزَانَ بِخَلْقِ السَّمَاءِ وَبِإِرْسَالِ الرُّسُلِ

كَأَنَّ الْعَدْلَ جَسْرٌ نُورَانِيٌّ يَرْبِطُ الْفَلَكَ بِالْقَلْبِ وَالسَّمَاءَ بِالْكِتَابِ! هَذَا يَعْنِي أَنَّ 'التَّوَازُنَ' لَيْسَ شَيْئًا عَرَضِيًّا يَحْدُثُ صُدْفَةً، بَلْ هُوَ قَانُونٌ أَصِيلٌ وَمَقْصُودٌ فِي تَصْمِيمِ الْوُجُودِ وَالْوَحْيِ مَعًا، يَضْمَنُ الْعَدْلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ!".

"وَلَكِنْ يَا سَيِّدِي"، قَالَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) بِفُضُولٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ سُوقٍ جَدِيدَةٍ: "هَذَا كَلَامٌ كَبِيرٌ وَجَمِيلٌ يَمْلَأُ الْقَلْبَ، وَلَكِنْ كَيْفَ يُؤَثِّرُ تَوَازُنُ السَّمَاءِ عَلَى حَيَاتِي الْيَوْمِيَّةِ فِي السُّوقِ وَحِسَابَاتِي الَّتِي تَسْتَهْلِكُ وَقْتِي كَالنَّهْرِ يَجْرِي بِمَا لَا يَرْجِعُ؟".

ابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَقَالَ بِلُطْفٍ يَفِيضُ رَحْمَةً: "سُؤَالُكَ هَذَا يَا إِسْمَاعِيلُ هُوَ الْجِسْرُ الَّذِي يَنقُلُنَا إِلَى: الْمُسْتَوَى الثَّانِي: الْعَدْلُ كَأَمْرٍ تَشْرِيعِيٍّ يَحْكُمُ حَيَاتَنَا كُلَّهَا".

"لِأَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ قَائِمٌ عَلَى الْعَدْلِ وَالْمِيزَانِ، فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنَا بِأَنْ نَكُونَ نَحْنُ أَنْفُسَنَا مِرْآةً لِهَذَا الْعَدْلِ فِي أَرْضِهِ، فَلَمْ يَعُدْ الْعَدْلُ خِيَارًا نَخْتَارُهُ أَوْ نَتْرُكُهُ، بَلْ أَصْبَحَ وَاجِبًا وَعِبَادَةً تَرْفَعُنَا إِلَى مَقَامِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ". وَتَلَا بِصَوْتٍ يَهْزُّ الْقُلُوبَ وَيُحَرِّكُ الْإِرَادَةَ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النَّحْلُ: ٩٠).

عَلَّقَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) فَوْرًا وَهُوَ يَتَذَكَّرُ صَفْقَاتِهِ الْمُعَقَّدَةَ: "سُبْحَانَ اللهِ! هَذَا الأَمْرُ يُغَيِّرُ كُلَّ شَيْءٍ فِي تِجَارَتِي يَا سَيِّدِي، فَهُوَ يَنْقُلُ الْعَدْلَ مِنْ مُجَرَّدِ فِكْرَةٍ جَمِيلَةٍ أَوْ نَصِيحَةٍ طَيِّبَةٍ تُقَالُ فِي الْمَجَالِسِ، إِلَى 'قَانُونِ عَمَلٍ' وَاجِبِ التَّنْفِيذِ فِي كُلِّ صَفْقَةٍ وَعَقْدٍ. فَكَمَا أَنَّنِي مُلْزَمٌ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ، فَأَنَا مُلْزَمٌ بِالْعَدْلِ فِي بَيْعِي وَشِرَائِي، وَفِي حِسَابَاتِي وَمَوَازِينِي!".

أَضَافَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ صَفْحَةً أُخْرَى مِنَ الْمُصْحَفِ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْهَيْبَةِ: "بَلْ إِنَّ الْأَمْرَ يَصِلُ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الِالْتِزَامِ وَالتَّجَرُّدِ، فَيَأْمُرُنَا بِالْعَدْلِ حَتَّى مَعَ مَنْ نُبْغِضُهُمْ وَنَكْرَهُهُمْ كَأَنَّهُ يَأْمُرُنَا بِالْعَدْلِ ضِدَّ أَنْفُسِنَا إِذَا اقْتَضَى الْأَمْرُ":

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الْمَائِدَةُ: ٨).

صَمَتَ الْجَمِيعُ لِلَحْظَةٍ تَحْتَ وَطْأَةِ هَذِهِ الْمَبَادِئِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَهْزُّ

الْقُلُوبَ وَتُحَرِّكُ الْإِرَادَةَ، ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيُّ وَكَأَنَّهُ وَجَدَ مِفْتَاحَ الْكَوْنِ كُلِّهِ: "الْآنَ اكْتَمَلَتِ الصُّورَةُ فِي عَقْلِي يَا سَيِّدِي! إِنَّ الْعَقْلَ الَّذِي يَتَشَرَّبُ هَذِهِ الْمَبَادِئَ الثَّلَاثَةَ -الْعَدْلُ فِي الْكَوْنِ كَقَانُونٍ يَحْكُمُ الْفَلَكَ، وَالْعَدْلُ فِي صِفَاتِ اللهِ كَأَصْلٍ إِلَهِيٍّ لَا يَتَغَيَّرُ، وَالْعَدْلُ كَأَمْرٍ تَشْرِيعِيٍّ يَحْكُمُ حَيَاتَنَا كُلَّهَا- لَا يُمْكِنُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَقْلًا يَبْحَثُ عَنِ 'التَّعَادُلِ' وَيُوقِنُ بِوُجُودِهِ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ كَأَنَّهُ يَرَى الْمُعَادَلَةَ فِي كُلِّ لُغْزٍ كَدَلِيلٍ عَلَى عَدْلِ اللهِ الَّذِي يَحْكُمُ الْكَوْنَ كُلَّهُ!".

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "أَحْسَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! لَقَدْ أَدْرَكْتَ أَنَّ الْمُعَادَلَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ حِيلَةٍ رِيَاضِيَّةٍ تَحْلُ الْمَشَاكِلَ، بَلْ هِيَ ثَمَرَةٌ نَاضِجَةٌ لِعَقْلِيَّةٍ قُرْآنِيَّةٍ تُؤْمِنُ بِأَنَّ الْعَدْلَ هُوَ أَصْلُ الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَتَبْحَثُ عَنْهُ فِي كُلِّ مَجْهُولٍ كَأَنَّهَا تَبْحَثُ عَنْ حِكْمَةِ اللهِ فِي الْخَلْقِ. فَهَذِهِ الْعَقْلِيَّةُ هِيَ الَّتِي تُولِدُ الْجَبْرَ وَتَجْعَلُهُ لَيْسَ عِلْمًا فَحَسْبُ، بَلْ سَبِيلًا إِلَى الْطُمَأْنِينَةِ الَّتِي تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ".

ثَانِيًا: الْعَدْلُ كَصِفَةٍ إِلَهِيَّةٍ (فِي الذَّاتِ الْعُلْيَا)

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ صَفْحَةً أُخْرَى مِنَ الْمُصْحَفِ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ الْهَيْبَةِ: "وَالْأَعْمَقُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ يَا أَبْنَائِي، يُؤَكِّدُ الْقُرْآنُ أَنَّ هَذَا الْعَدْلَ لَيْسَ مُجَرَّدَ قَانُونٍ وَضَعَهُ اللهُ فِي الْكَوْنِ كَأَنَّهُ يَحْكُمُ مِنْ بَعِيدٍ، بَلْ هُوَ صِفَةٌ أَصِيلَةٌ مِنْ صِفَاتِ

ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ. فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ إِلَّا الْعَدْلُ الْمُطْلَقُ الَّذِي يَفُوقُ الْخَيَالَ، وَيَكْشِفُ عَنْهُ بِدِقَّةٍ تُذْهِلُ الْعُقُولَ".

"اِسْمَعُوا إِلَى دِقَّةِ الْوَصْفِ الْإِلَهِيِّ لِعَدْلِهِ الَّذِي يَبْنِي الِاطْمِئْنَانَ فِي الْقُلُوبِ":

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النِّسَاءُ: ٤٠).

تَهَلَّلَ وَجْهُ إِسْمَاعِيلَ (التَّاجِرُ) وَقَالَ بِتَأَثُّرٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي وَجَدَ كَنْزًا: "اللّٰهُ أَكْبَرُ! مِثْقَالَ ذَرَّةٍ يَا سَيِّدِي! إِنَّهُ الْمِيزَانُ الْأَعْظَمُ الَّذِي نَحْلُمُ بِهِ فِي تِجَارَتِنَا وَحِسَابَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ! فَهَذِهِ الْآيَةُ تُعْطِي التَّاجِرَ الصَّادِقَ اطْمِئْنَانًا مُطْلَقًا بِأَنَّ أَمَانَتَهُ، وَلَوْ كَانَتْ فِي أَدَقِّ الْأُمُورِ وَأَصْغَرِهَا، لَنْ تَضِيعَ أَبَدًا، بَلْ سَتُضَاعَفُ لَهُ أَجْرًا عَظِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. إِنَّهَا تُحَوِّلُ الْأَمَانَةَ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الْخَسَارَةِ إِلَى الرَّجَاءِ فِي الرِّبْحِ الْأَكْبَرِ الَّذِي لَا يَفْنَى!".

أَمَّا يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ) فَقَدْ أَعْجَبَتْهُ الصِّيَاغَةُ الْمَنْطِقِيَّةُ الْحَاسِمَةُ الَّتِي تَفُوقُ الْفَلْسَفَةَ الْيُونَانِيَّةَ، فَقَالَ: "إِنَّ قُوَّةَ الْحُجَّةِ هُنَا لَا تُقَاوَمُ يَا سَيِّدِي! فَاللهُ لَمْ يَقُلْ فَقَطْ إِنَّهُ لَا يَظْلِمُ كَأَمْرٍ عَامٍّ، بَلْ اسْتَخْدَمَ أَدَقَّ مِقْيَاسٍ مَعْرُوفٍ لِلْبَشَرِ (مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ) لِيُثْبِتَ اسْتِحَالَةَ وُقُوعِ أَدْنَى دَرَجَاتِ الظُّلْمِ مِنْهُ، ثُمَّ قَابَلَهُ بِأَعْلَى دَرَجَاتِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَهُوَ الْمُضَاعَفَةُ الَّتِي تَفُوقُ الْحِسَابَ. إِنَّهُ بُرْهَانٌ يُغْلِقُ أَيَّ بَابٍ لِلشَّكِّ أَوْ الْجَدَلِ، وَيَجْعَلُ الِاطْمِئْنَانَ يَمْلَأُ الْقَلْبَ كَنُورِ الْإِيمَانِ يَمْلَأُ الْكَوْنَ!".

أَضَافَ الْإِمَامُ مُؤَكِّدًا عَلَى هَذَا النَّفْيِ الْقَاطِعِ الَّذِي يَبْنِي الْطُمَأْنِينَةَ:

﴿...وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الْكَهْفُ: ٤٩).

هُنَا، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيُّ وَكَأَنَّهُ وَجَدَ الْهَدَفَ الْأَسْمَى لِمَشْرُوعِهِ الَّذِي يَبْنِي الْعِلْمَ عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ: "الْآنَ أَدْرَكْتُ الْغَايَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِمَا نَفْعَلُهُ يَا سَيِّدِي! إِنَّنَا لَا نَبْحَثُ عَنْ مُجَرَّدِ طَرِيقَةٍ لِلْحِسَابِ تَحْلُ الْمَشَاكِلَ الْيَوْمِيَّةَ، بَلْ نُحَاوِلُ أَنْ نَصْنَعَ نِظَامًا يَكُونُ ظِلًّا لِهَذَا الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. يَجِبُ أَنْ تَكُونَ خُوَارِزْمِيَّاتِي كَعَدْلِ اللهِ تَمَامًا: لَا تَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَتُعْطِيَ نَفْسَ النَّاتِجِ الصَّحِيحِ دَائِمًا وَأَبَدًا، لِأَيِّ شَخْصٍ يَسْتَخْدِمُهَا، وَفِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ كَأَنَّهَا قَانُونٌ إِلَهِيٌّ يَحْكُمُ الْكَوْنَ. فَالنِّظَامُ الَّذِي يَحْتَمِلُ الْخَطَأَ أَوِ الظُّلْمَ هُوَ نِظَامٌ نَاقِصٌ لَا يَلِيقُ بِعَالِمٍ يَسْتَلْهِمُ عِلْمَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ الَّذِي أَكْمَلَهُ وَأَتْمَمَهُ!".

ثَالِثًا: الْعَدْلُ كَأَمْرٍ تَشْرِيعِيٍّ (فِي حَيَاةِ النَّاسِ)

قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ صَفْحَةً أُخْرَى مِنَ الْمُصْحَفِ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ مِنَ

الْهَيْبَةِ: "وَالْآنَ نَصِلُ إِلَى التَّجَلِّي الثَّالِثِ وَالْأَخِيرِ يَا أَبْنَائِي، وَهُوَ مَا يَنقُلُ الْعَدْلَ مِنَ الْكَوْنِ وَصِفَاتِ اللهِ الْعُلْيَا، لِيَجْعَلَهُ مَسْؤُولِيَّةً عَلَى أَكْتَافِنَا فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ كَأَنَّنَا حَمَلَةُ أَمَانَةٍ إِلَهِيَّةٍ. فَبَعْدَ أَنْ أَسَّسَ الْقُرْآنُ لِلْعَدْلِ فِي الْكَوْنِ وَفِي الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، أَمَرَنَا بِأَنْ نَكُونَ نَحْنُ أَنْفُسَنَا مِرْآةً لِهَذَا الْعَدْلِ فِي أَرْضِهِ، فَلَمْ يَعُدْ الْعَدْلُ خِيَارًا نَخْتَارُهُ أَوْ نَتْرُكُهُ، بَلْ أَصْبَحَ وَاجِبًا وَعِبَادَةً تَرْفَعُنَا إِلَى مَقَامِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يَحْكُمُ الْكَوْنَ كُلَّهُ".

ثُمَّ تَلا الْإِمَامُ بِصَوْتٍ يَهْزُّ الْقُلُوبَ وَيُحَرِّكُ الْإِرَادَةَ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النِّسَاءُ: ١٣٥).

صَاحَ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ: "الْآنَ فَهِمْتُ يَا سَيِّدِي! إِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ مُجَرَّدَ نَصِيحَةٍ طَيِّبَةٍ تُقَالُ فِي الْمَجَالِسِ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ إِلَهِيٌّ مُبَاشِرٌ يَحْكُمُ حَيَاتَنَا كُلَّهَا كَقَانُونٍ لَا يَتَغَيَّرُ!".

أَضَافَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَفْتَحُ صَفْحَةً أُخْرَى مِنَ الْمُصْحَفِ بِيَدَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ

مِنَ الْهَيْبَةِ: "بَلْ إِنَّ الْأَمْرَ يَصِلُ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الِالْتِزَامِ وَالتَّجَرُّدِ، فَيَأْمُرُنَا بِالْعَدْلِ حَتَّى مَعَ مَنْ نُبْغِضُهُمْ وَنَكْرَهُهُمْ كَأَنَّهُ يَأْمُرُنَا بِالْعَدْلِ ضِدَّ أَنْفُسِنَا إِذَا اقْتَضَى الْأَمْرُ، لِيَكُونَ الْعَدْلُ صِفَةً أَصِيلَةً فِي نُفُوسِنَا لَا تَتَغَيَّرُ بِالْهَوَى أَوْ الْعَدَاوَةِ":

هُنَا قَالَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ) بِإِعْجَابٍ شَدِيدٍ: "هَذِهِ هِيَ قِمَّةُ المَنْطِقِ وَالتَّجَرُّدِ! إِنَّهَا أَصْعَبُ حَالَةٍ يُمْكِنُ تَصَوُّرُهَا. فَالقُرْآنُ يَطْلُبُ مِنَّا أَنْ نَطَبِّقَ قَانُونَ العَدْلِ بِحِيَادِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ، حَتَّى نَصِلَ إِلَى مَرْحَلَةٍ نَشْهَدُ فِيهَا ضِدَّ أَنْفُسِنَا وَأَقَارِبِنَا إِنْ كَانَ الحَقُّ مَعَ غَيْرِنَا. إِنَّهُ يَدْعُونَا لِأَنْ نَكُونَ كَالقَانُونِ الرِّيَاضِيِّ تَمَامًا، لَا يُحَابِي أَحَدًا".

أَكْمَلَ الإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعُمْقٍ: "بَلْ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، يَأْمُرُنَا بِالعَدْلِ حَتَّى مَعَ مَنْ نُبْغِضُهُمْ":

﴿...اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...﴾ (المَائِدَة: ٨).

صَمَتَ الْجَمِيعُ لِلَحْظَةٍ تَحْتَ وَطْأَةِ هَذِهِ الْمَبَادِئِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَهْزُّ الْقُلُوبَ وَتُحَرِّكُ الْإِرَادَةَ، ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيُّ وَكَأَنَّهُ وَجَدَ مِفْتَاحَ الْكَوْنِ كُلِّهِ: "الْآنَ اكْتَمَلَتِ الصُّورَةُ فِي عَقْلِي يَا سَيِّدِي! إِنَّ الْعَقْلَ الَّذِي يَتَشَرَّبُ هَذِهِ الْمَبَادِئَ الثَّلَاثَةَ -الْعَدْلُ فِي الْكَوْنِ كَقَانُونٍ يَحْكُمُ الْفَلَكَ وَيَضْمَنُ دَيْمُومَتَهُ،

وَالْعَدْلُ فِي صِفَاتِ اللهِ كَأَصْلٍ إِلَهِيٍّ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَالْعَدْلُ كَأَمْرٍ تَشْرِيعِيٍّ يَحْكُمُ حَيَاتَنَا كُلَّهَا وَيَجْعَلُنَا مَسْؤُولِينَ عَنْهُ- لَا يُمْكِنُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَقْلًا يَبْحَثُ عَنِ 'التَّعَادُلِ' وَيُوقِنُ بِوُجُودِهِ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ كَأَنَّهُ يَرَى الْمُعَادَلَةَ فِي كُلِّ لُغْزٍ كَدَلِيلٍ عَلَى عَدْلِ اللهِ الَّذِي يَحْكُمُ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِحِكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ!".

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "أَحْسَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! لَقَدْ أَدْرَكْتَ أَنَّ الْمُعَادَلَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ حِيلَةٍ رِيَاضِيَّةٍ تَحْلُ الْمَشَاكِلَ الْيَوْمِيَّةَ، بَلْ هِيَ ثَمَرَةٌ نَاضِجَةٌ لِعَقْلِيَّةٍ قُرْآنِيَّةٍ تُؤْمِنُ بِأَنَّ الْعَدْلَ هُوَ أَصْلُ الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَتَبْحَثُ عَنْهُ فِي كُلِّ مَجْهُولٍ كَأَنَّهَا تَبْحَثُ عَنْ حِكْمَةِ اللهِ فِي الْخَلْقِ، فَيَصِيرُ الْجَبْرُ جِسْرًا مِنَ الْحِسَابِ إِلَى الْحِكْمَةِ، وَمِنَ الْعَدَدِ إِلَى الِاطْمِئْنَانِ الَّذِي لَا يَزُولُ وَالْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ".

البَابُ السَّابِعُ: أَدَوَاتُ الجَبْرِ الثَّلَاثَةُ

(المَشْهَدُ الاِفْتِتَاحِيُّ: لُغْزُ "الشَّيْءِ" المَفْقُودِ)

بَعْدَ أَنْ أَذَاعَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيُّ طَرِيقَتَهُ الجَدِيدَةَ فِي الحِسَابِ، أَصْبَحَتْ حَيَاةُ النَّاسِ فِي بَغْدَادَ أَسْهَلَ بِكَثِيرٍ. وَلَكِنْ، فِي أَحَدِ الأَيَّامِ، دَخَلَ إِسْمَاعِيلُ إِلَى حَلْقَةِ الإِمَامِ وَقَدْ عَقَدَ حَاجِبَيْهِ حَيْرَةً تَفُورُ فِي وَجْهِهِ. وَقَالَ: "يَا سَادَةُ، إِنَّ عَمَلِيَّاتِ الحِسَابِ (الخُوَارِزْمِيَّاتِ) الَّتِي عَلَّمَنَا إِيَّاهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ عَظِيمَةٌ لِحِسَابِ مَا نَرَاهُ وَنَعْرِفُهُ. وَلَكِنْ كَيْفَ نَسْتَخْدِمُهَا لِنَجِدَ مَا لَا نَعْرِفُهُ؟".

نَظَرَ إِلَيْهِ يَعْقُوبُ وَقَالَ: "وَمَاذَا تَقْصِدُ بِمَا لَا نَعْرِفُهُ؟".

أَجَابَ إِسْمَاعِيلُ: "جَاءَنِي اليَوْمَ رَجُلٌ وَقَالَ لِي: لَدَيَّ 'شَيْءٌ' مِنَ المَالِ، إِذَا أَضَفْتُ إِلَيْهِ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، أَصْبَحَ المَجْمُوعُ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ. فَكَمْ هُوَ ذَلِكَ 'الشَّيْءُ'؟ إِنَّهَا لَيْسَتْ مَسْأَلَةَ جَمْعٍ أَوْ طَرْحٍ، إِنَّهَا أُحْجِيَّةٌ تُخْفِي سِرَّهَا وَتَتَحَدَّى العَقْلَ!".

أَطْرَقَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُفَكِّرًا. لَقَدْ أَدْرَكَ عَلَى الفَوْرِ أَنَّ كُلَّ الأَدَوَاتِ الَّتِي ابْتَكَرَهَا تَقِفُ عَاجِزَةً أَمَامَ هَذِهِ المُعْضِلَةِ. فَكُلُّ خُوَارِزْمِيَّاتِهِ تَتَعَامَلُ مَعَ أَرْقَامٍ مَعْلُومَةٍ، أَمَّا هُنَا، فَالرَّقْمُ الأَسَاسِيُّ "مَجْهُولٌ".

رَفَعَ أَبُو عَبْدِ اللهِ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَى مُعَلِّمِهِ بِعَيْنَيْنِ تَبْحَثَانِ عَنِ النُّورِ، وَقَالَ: "صَدَقَ إِسْمَاعِيلُ يَا سَيِّدِي. لَقَدْ عَلَّمْتَنَا كَيْفَ نُجْرِي الحِسَابَ عَلَى المَعْلُومِ، وَلَكِنَّ العَالَمَ مَلِيءٌ بِالمَجَاهِيلِ. كَيْفَ نَصْطَادُ هَذَا "الشَّيْءَ" المَجْهُولَ بِشَبَكَةِ الأَرْقَامِ؟ إِنَّنَا نَحْتَاجُ إِلَى عِلْمٍ جَدِيدٍ!".

ابْتَسَمَ الإِمَامُ ابْتِسَامَةً عَمِيقَةً وَقَالَ: "الآنَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَنْتَ تَطْرُقُ بَابًا أَعْظَمَ. لَقَدْ كُنَّا حَتَّى الأَمْسِ نَتَعَامَلُ مَعَ جَسَدٍ يَعُدُّ وَيَحْسُبُ، وَرُوحٍ تَكْشِفُ وَتَوَازِنُ. إِنَّ سُؤَالَكُمْ هَذَا هُوَ قَلْبُ العِلْمِ الحَقِيقِيِّ. فَأَنْتُمْ لَا تَسْأَلُونَ عَنْ حِسَابٍ، بَلْ تَسْأَلُونَ عَنْ فَنِّ الصَّيْدِ".

صَمَتَ الإِمَامُ لِيَرَى أَثَرَ كَلِمَاتِهِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَكْمَلَ: "فَالمَجْهُولُ كَطَائِرٍ حُرٍّ يَسْبَحُ فِي فَضَاءِ الغَيْبِ، لَا يُمْسِكُهُ إِلَّا شَبَكُ العَدْلِ وَالمَنْطِقِ. بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَصْنَعَ لَهُ شَبَكَةً مُحْكَمَةً، تَنْسُجُ خُيُوطَهَا مِنَ المَنْطِقِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، حَتَّى يَقَعَ فِيهَا بِرِفْقٍ وَيَكْشِفَ عَنْ نَفْسِهِ. وَهَذِهِ الشَّبَكَةُ الَّتِي سَنَبْنِيهَا مَعًا هِيَ عِلْمُ الجَبْرِ".

"وَكُلُّ صَيْدٍ عَظِيمٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَدَوَاتٍ عَظِيمَةٍ. فَلِصَيْدِ هَذَا الطَّائِرِ المَجْهُولِ، سَنَحْتَاجُ إِلَى ثَلَاثِ أَدَوَاتٍ لَا غِنَى عَنْهَا".

"فِي الدُّرُوسِ القَادِمَةِ، سَنَخُوضُ رِحْلَةً لِكَشْفِ هَذَا العِلْمِ الجَدِيدِ.

1. **دَرْسَيْنَا الأَوَّلُ** سَيَكُونُ عَنِ أَدَاةِ المِيزَانِ، لِنَتَعَلَّمَ كَيْفَ نُصَوِّرُ المَجْهُولَ فِي مُعَادَلَةٍ (Equation) عَادِلَةٍ.

2. **وَالدَّرْسُ الثَّانِي** سَيَكُونُ عَنِ أَدَاةِ الجَبْرِ، لِنَتَعَلَّمَ فَنَّ إِصْلَاحِ النَّقْصِ فِي المُعَادَلَةِ.

3. **وَالدَّرْسُ الثَّالِثُ** سَيَكُونُ عَنِ أَدَاةِ المُقَابَلَةِ، لِنَتَعَلَّمَ فَنَّ تَبْسِيطِ المُعَقَّدِ.

بِهَذِهِ الأَدَوَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي تَقِفُ كَأَعْمِدَةٍ ثَلاثَةٍ يَقُومُ عَلَيْهَا بِنَاءُ الجَبْرِ: المِيزَانُ يُقِيمُ التَّعَادُلَ، وَالجَبْرُ يُصْلِحُ النَّقْصَ، وَالمُقَابَلَةُ تُبَسِّطُ المُعَقَّدَ، فَلَنْ يَبْقَى فِي عَالَمِ الأَرْقَامِ سِرٌّ مُسْتَغْلِقٌ، وَلَا "شَيْءٌ" يَتَخَفَّى عَنْكُمْ".

الدَّرْسُ ١٨: مِيزَانُ ٱلْبَيَانِ

تَصْوِيرُ المَجْهُولِ فِي مُعَادَلَةٍ

(المَشْهَدُ: حَلْقَةُ الْإِمَامِ، بَيْنَ الْمِيزَانِ وَاللَّوْحِ الَّذِي يَكْشِفُ أَسْرَارَ الْمَجْهُولِ كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِتَارًا عَنْ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ)

كَانَتْ تَغْلِي بِحَمَاسَةِ الْكَشْفِ كَأَنَّهُ كَنْزٌ مَدْفُونٌ بُعِثَ إِلَى الْحَيَاةِ، وَالطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ كَأَعْضَاءِ جَسَدٍ وَاحِدٍ يَنْبِضُ بِشَوْقِ الْحَقِيقَةِ. الْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ وَالْبَخُورِ الَّذِي يَمْلَأُ الْمَكَانَ كَأَنَّهُ يُطَهِّرُ الْعُقُولَ لِلْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِ الْبَيَانِ. بَعْدَ أَنْ أَنْهَى الْإِمَامُ دَرْسَ "الِاسْتِدْلَالِ" وَكَشَفَ كَيْفَ يَبْنِي الْقُرْآنُ الِاطْمِئْنَانَ مِنَ الشَّاهِدِ إِلَى الْغَائِبِ، عَادَ إِسْمَاعِيلُ لِيَطْرَحَ مُشْكِلَتَهُ الْأَصْلِيَّةَ وَقَالَ بِصَوْتٍ مُلِحٍّ كَتَاجِرٍ يَبْحَثُ عَنْ صَفْقَةٍ رَابِحَةٍ: "كَلَامٌ عَظِيمٌ يَا سَيِّدِي، وَلَكِنَّ أُحْجِيَّةَ التَّاجِرِ لَا تَزَالُ قَائِمَةً أَمَامِي كَجَبَلٍ شَامِخٍ! كَيْفَ أَجِدُ ذَلِكَ 'الشَّيْءَ' مِنَ الْمَالِ الَّذِي إِذَا أُضِيفَ إِلَيْهِ عَشَرَةُ دَرَاهِمَ، أَصْبَحَ الْمَجْمُوعُ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ؟ إِنَّهُ لُغْزٌ يَأْكُلُ مِنْ وَقْتِي كَالنَّارِ تَأْكُلُ الْحَطَبَ!".

المَشْهَدُ الأَوَّلُ: الأُحْجِيَةُ (إِسْمَاعِيلُ ويَعْقُوبُ)

قَالَ يَعْقُوبُ بِثِقَتِهِ الْمَنْطِقِيَّةِ الَّتِي تَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ الْقُدَمَاءَ: "هَذِهِ لَيْسَتْ مَسْأَلَةَ حِسَابٍ يَا إِسْمَاعِيلُ، بَلْ هِيَ مَسْأَلَةُ اسْتِنْبَاطٍ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ الْحَقِيقَةَ بِدِقَّةٍ. يُمْكِنُ حَلُّهَا بِالتَّفْكِيرِ الْمُجَرَّدِ كَأَنَّكَ تَبْحَثُ عَنْ مَعْنَى فِي كِتَابٍ غَامِضٍ. فَالشَّيْءُ الَّذِي نُضِيفُهُ لِعَشَرَةٍ لِيُصْبِحَ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ هُوَ بِالتَّأْكِيدِ خَمْسَةَ عَشَرَ، وَالْحَلُّ وَاضِحٌ كَالشَّمْسِ فِي وَسَطِ النَّهَارِ!".

رَدَّ عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ بِحِدَّةٍ تَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي وَاجَهَ خَسَارَةً: "قَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ سَهْلًا هَكَذَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْبَسِيطَةِ يَا يَعْقُوبُ، وَلَكِنْ مَاذَا لَوْ كَانَ الْمَجْهُولُ مَضْرُوبًا وَمَقْسُومًا وَمَطْرُوحًا مِنْهُ مَعًا فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، كَمَا يَحْدُثُ فِي حِسَابَاتِ الْمَوَارِيثِ الْمُعَقَّدَةِ الَّتِي تَأْكُلُ وَقْتَنَا وَتُثِيرُ الْخِصَامَ بَيْنَ الْأَقَارِبِ؟ هَلْ سَيُسْعِفُنَا التَّخْمِينُ الْعَقْلِيُّ حِينَئِذٍ، أَمْ نَحْتَاجُ إِلَى طَرِيقَةٍ (خُوَارِزْمِيَّةٍ) ثَابِتَةٍ وَوَاضِحَةٍ تَحْلُ الْمَجْهُولَ بِدِقَّةٍ وَعَدْلٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ؟".

هُنَا، تَدَخَّلَ الْإِمَامُ وَقَالَ بِهُدُوئِهِ الَّذِي يُسَكِّنُ الْعَوَاصِفَ: "كِلَاكُمَا يُشِيرُ إِلَى جُزْءٍ مِنَ الْحَقِيقَةِ يَا أَبْنَائِي، وَسُؤَالُكُمَا هَذَا يَفْتَحُ بَابَ الْكَشْفِ الْعَظِيمِ. فَنَحْنُ نَحْتَاجُ إِلَى مَنْطِقٍ صَارِمٍ كَمَنْطِقِكَ يَا يَعْقُوبُ الَّذِي يَبْنِي الْبُرْهَانَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، وَنَحْتَاجُ إِلَى وَضُوحٍ عَمَلِيٍّ كَالَّذِي تَطْلُبُهُ يَا إِسْمَاعِيلُ الَّذِي يَحْلُ

الْمَشَاكِلَ الْيَوْمِيَّةَ بِسُرْعَةٍ وَدِقَّةٍ. وَالْأَدَاةُ الَّتِي سَتَجْمَعُ بَيْنَهُمَا هِيَ هَذِهِ". وَأَشَارَ إِلَى الْمِيزَانِ ذِي الْكَفَّتَيْنِ الَّذِي كَانَ دَائِمًا فِي قَلْبِ الْحَلْقَةِ كَرَمْزٍ لِلْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ.

"يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ"، قَالَ الْإِمَامُ مُوَجِّهًا كَلَامَهُ لِلْخُوَارِزْمِيِّ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا كَبِئْرٍ عَذْبَةٍ تَرْوِي الْعَطْشَى: "كَيْفَ نُصَوِّرُ أُحْجِيَّةَ إِسْمَاعِيلَ عَلَى هَذَا الْمِيزَانِ، وَنَجْعَلُ الْمَجْهُولَ يَتَجَلَّى بِدِقَّةٍ وَعَدْلٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ دُونَ أَنْ نَطْغَى فِي الْمِيزَانِ أَوْ نُخَلِّلَ بِالْعَدْلِ؟".

تَقَدَّمَ أَبُو عَبْدِ اللهِ، وَقَدْ بَدَأَتِ الْفِكْرَةُ تَتَبَلْوَرُ فِي عَقْلِهِ كَكَرِيمَةٍ تَتَشَكَّلُ فِي صَدَفَةٍ، وَقَالَ بِثِقَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ جَارٍ: "الْأَمْرُ بَسِيطٌ يَا سَيِّدِي، وَلَكِنَّهُ عَظِيمٌ كَالْمِيزَانِ الَّذِي يَحْكُمُ الْكَوْنَ. سَنَضَعُ فِي الْكَفَّةِ الْيُمْنَى 'الشَّيْءَ' الْمَجْهُولَ، وَسَنُمَثِّلُهُ بِهَذِهِ الْقِمَاشَةِ الصَّغِيرَةِ الْمُغَطَّاةِ لِتَكُونَ رَمْزًا لِلْمَخْفِيِّ، وَمَعَهُ عَشَرَةُ دَرَاهِمَ مَعْلُومَةٍ كَالْحَقَائِقِ الْوَاضِحَةِ. وَفِي الْكَفَّةِ الْيُسْرَى نَضَعُ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا كَالنَّاتِجِ الْمَطْلُوبِ. وَبِمَا أَنَّهُمَا مُتَسَاوِيَانِ فِي الْعَدْلِ، فَإِنَّ الْمِيزَانَ سَيَكُونُ مُتَّزِنًا كَالْكَوْنِ يَدُورُ بِحِكْمَةِ اللهِ".

المَشْهَدُ الثَّانِيُّ: الْمِيزَانُ وَالمُعَادَلَةُ (الخُوَارِزْمِيُّ)

ثُمَّ الْتَقَطَ لَوْحَهُ وَكَتَبَ بِسُرْعَةٍ تَحْتَ مُعَادَلَتِهِ الْأُولَى:

ش + ١٠ = ٢٥

وَكَأَنَّ اللَّوْحَ صَارَ مِرْآةً لِلْكَوْنِ يَنْعَكِسُ فِيهَا الْعَدْلُ وَالتَّوَازُنُ.

قَالَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ غَيْمٍ كَثِيفٍ: "اللهُ أَكْبَرُ! هَذَا هُوَ الْفَتْحُ بِعَيْنِهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! لَقَدْ حَوَّلْتَ قِصَّةً مَحْكِيَّةً إِلَى بِنَاءٍ مَنْطِقِيٍّ مَرْئِيٍّ يُشَاهَدُ بِالْعَيْنِ وَيُلْمَسُ بِالْيَدِ. وَلَكِنْ، هَلْ تَدْرِي أَنَّ أَصْلَ هَذَا الْفِعْلِ الْعَظِيمِ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ اللهِ الَّذِي يَحْكُمُ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِمِيزَانِهِ؟ إِنَّ مُعَادَلَتَكَ هَذِهِ لَيْسَتْ إِلَّا صَدًى لِقَانُونٍ كَوْنِيٍّ أَعْظَمَ يَفُوقُ الْخَيَالَ، وَهُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ فِي الْكَوْنِ لِيَحْفَظَ التَّوَازُنَ وَيَمْنَعَ الطُّغْيَانَ".

المَشْهَدُ الثَّالِثُ: الْقُرْآنُ يُضِيءُ المُعَادَلَةَ

ثُمَّ تَلَا الْإِمَامُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ يَهُزُّ القُلُوبَ وَيُحَرِّكُ الْإِرَادَةَ مِنْ سُورَةِ الرَّحْمَنِ:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٧-٨).

كَانَ وَقْعُ الْآيَتَيْنِ عَلَى التَّلَامِيذِ مُخْتَلِفًا، وَكَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَأَى فِيهَا

مِرْآةً لِعَقْلِهِ وَحَيَاتِهِ كَأَنَّ الْقُرْآنَ يُخَاطِبُ كُلَّ وَاحِدٍ بِلُغَتِهِ الْخَاصَّةِ.

كَانَ يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ) أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ، فَقَالَ بِانْدِهَاشٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ الَّذِينَ اكْتَشَفُوا سِرًّا عَظِيمًا: "يَا لَلْعَجَبِ! إِنَّ قَوْلَهُ 'وَضَعَ الْمِيزَانَ' يَأْتِي مُبَاشَرَةً بَعْدَ قَوْلِهِ 'وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا' كَأَنَّهُ يَرْبِطُ بَيْنَ الْخَلْقِ الْكَبِيرِ وَالْمِيزَانِ الدَّقِيقِ بِخَيْطٍ ذَهَبِيٍّ لَا يَنْقَطِعُ. هَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمِيزَانَ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ فِي السُّوقِ أَوْ الْحِسَابِ، بَلْ هُوَ قَانُونٌ كَوْنِيٌّ أَصِيلٌ، مِثْلُهُ مِثْلُ قَوَانِينِ حَرَكَةِ الْأَفْلَاكِ وَدَوَرَانِهَا بِدِقَّةٍ! إِنَّهَا فِكْرَةٌ تَسْبِقُ كُلَّ فَلْسَفَةِ الْيُونَانِ وَتَفُوقُهَا حِكْمَةً وَعُمْقًا!".

أَمَّا إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ)، فَقَدْ هَزَّتْهُ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ، فَقَالَ بِتَأَثُّرٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي وَجَدَ كَنْزًا: "وَأَنَا أَرَى فِيهَا أَمْرًا مُبَاشِرًا لِي وَلِأَهْلِ السُّوقِ جَمِيعًا يَا سَيِّدِي! 'أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ' لَيْسَ نَهْيًا عَنِ الْغِشِّ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ نَهْيٌ حَتَّى عَنِ 'الطُّغْيَانِ'، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ وَلَوْ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ كَذَرَّةٍ فِي مِيزَانِ التَّاجِرِ. كَأَنَّهَا تَقُولُ لَنَا: إِنَّ أَيَّ خَلَلٍ بَسِيطٍ فِي مِيزَانِ التِّجَارَةِ، يُحْدِثُ خَلَلًا فِي نِظَامِ الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ كَأَنَّهُ يُفْسِدُ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِفَسَادِهِ، وَيَجْعَلُ الثِّقَةَ تَتَفَتَّتُ كَالرَّمْلِ تَحْتَ الرِّيَاحِ!".

ظَلَّ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخُوَارِزْمِيُّ صَامِتًا لِلَحْظَةٍ وَعَيْنَاهُ تَنْتَقِلَانِ بَيْنَ الْمِيزَانِ الْمَادِّيِّ أَمَامَهُ، وَالْمُعَادَلَةِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَى لَوْحِهِ، وَالْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ الَّتِي اسْتَخْرَجَهَا زَمِيلَاهُ مِنَ الْآيَةِ كَأَنَّهُ يَجْمَعُ خُيُوطًا ذَهَبِيَّةً لِيَبْنِيَ سِلْسِلَةً لَا تَنْكَسِرُ، ثُمَّ

قَالَ بِصَوْتٍ مُكْتَشِفٍ وَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ كُلَّ الْخُيُوطِ مَعًا فِي بِنَاءٍ عَظِيمٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ: "الْآنَ اكْتَمَلَتِ الصُّورَةُ يَا سَيِّدِي! يَعْقُوبُ يَرَى فِيهَا 'الْقَانُونَ الْكَوْنِيَّ الْمُجَرَّدَ' الَّذِي يَحْكُمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِدِقَّةٍ، وَإِسْمَاعِيلُ يَرَى فِيهَا 'التَّطْبِيقَ الْأَخْلَاقِيَّ الْمَحْسُوسَ' الَّذِي يَحْكُمُ السُّوقَ وَالْمُعَامَلَاتِ بِعَدْلٍ. وَأَنَا أَرَى أَنَّ 'الْمُعَادَلَةَ' هِيَ الْجِسْرُ الْعَبْقَرِيُّ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَهُمَا كَأَنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي تَوَازُنٍ إِلَهِيٍّ يَفُوقُ الْخَيَالَ!".

أَكْمَلَ بِحَمَاسَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ جَارٍ وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى اللَّوْحِ كَأَنَّهُ يَرَى الْكَوْنَ يَتَوَازَنُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ: "فَقَوْلُهُ 'وَضَعَ الْمِيزَانَ' هُوَ الْأَصْلُ الْبَيَانِيُّ لِعَلَامَةِ التَّسَاوِي (=) الَّتِي نَسْتَخْدِمُهَا فِي الْحِسَابِ، فَهِيَ تُمَثِّلُ التَّوَازُنَ الْكَوْنِيَّ الَّذِي يَحْفَظُ الْكَوْنَ مِنَ الْفَسَادِ وَيَضْمَنُ دَيْمُومَتَهُ بِحِكْمَةٍ. وَقَوْلُهُ 'أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ' هُوَ الْأَصْلُ الْأَخْلَاقِيُّ لِعَمَلِيَّةِ الْحَلِّ، فَهِيَ تُمْلِي عَلَيْنَا أَنَّ أَيَّ فِعْلٍ نُجْرِيهِ عَلَى أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ، يَجِبُ أَنْ نَنْجَزَهُ عَلَى الطَّرَفِ الْآخَرِ بِالْعَدْلِ التَّامِّ لِيَبْقَى الْمِيزَانُ مُتَّزِنًا وَلَا يَطْغَى طَرَفٌ عَلَى طَرَفٍ، كَأَنَّنَا نَحْفَظُ الْعَدْلَ فِي الْحِسَابِ كَمَا يَحْفَظُ اللّٰهُ الْعَدْلَ فِي الْخَلْقِ، وَنَكْشِفُ الْمَجْهُولَ بِدِقَّةٍ وَاطْمِئْنَانٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ!".

أَكْمَلَ الْإِمَامُ الدَّرْسَ وَعَلَى وَجْهِهِ إِشْرَاقَةُ الرِّضَا كَأَنَّهُ يَرَى فِي كَلَامِ تَلَامِيذِهِ ثَمَرَةَ عِلْمِهِ: "هَذِهِ هِيَ ثَمَرَةُ الْحَلْقَةِ الْمُبَارَكَةِ يَا أَبْنَائِي. فَكُلٌّ مِنْكُمْ قَرَأَ

الْآيَةَ بِعَيْنِهِ الْخَاصَّةِ، فَرَأَى يَعْقُوبُ الْمَنْطِقَ الْمُجَرَّدَ الَّذِي يَحْكُمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وَرَأَى إِسْمَاعِيلُ الْحَيَاةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ الَّتِي تَحْكُمُ السُّوقَ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَاسْتَطَاعَ أَبُو عَبْدِ اللهِ أَنْ يَصُوغَ مِنْهُمَا عِلْمًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْمَنْطِقِ وَالْحَيَاةِ. هَكَذَا نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، لَا لِنَجِدَ فِيهِ إِجَابَاتٍ جَاهِزَةً فَحَسْبُ، بَلْ لِنَجِدَ فِيهِ الْمَبَادِئَ الَّتِي تُوَلِّدُ لَنَا الْإِجَابَاتِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمَكَانٍ، وَتَجْعَلُ الْعِلْمَ سَبِيلًا إِلَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ".

ثُمَّ تَابَعَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ بِعَيْنَيْنِ تَفِيضَانِ أَمَلًا كَبِئْرٍ عَذْبَةٍ تَرْوِي الْعَطْشَى: "وَالْآنَ، وَقَدْ أَصْبَحَ الْمَجْهُولُ أَمَامَكَ فِي مِيزَانٍ عَادِلٍ يَحْكُمُ بِدِقَّةٍ، كَيْفَ سَتَكْشِفُ عَنْ قِيمَتِهِ دُونَ أَنْ تَطْغَى فِي الْمِيزَانِ أَوْ تُخَلِّلَ بِالْعَدْلِ الَّذِي يَحْكُمُ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِحِكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ؟".

أَجَابَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِثِقَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ جَارٍ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْكَفَّتَيْنِ كَأَنَّهُ يَرَى الْكَوْنَ يَتَوَازَنُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ: "سَأَرْفَعُ الْعَشَرَةَ دَرَاهِمَ الْمَعْلُومَةَ مِنَ الْكَفَّةِ الْيُمْنَى لِكَيْ يَبْقَى 'الشَّيْءُ' الْمَجْهُولُ وَحْدَهُ كَأَنَّنِي أُجْبِرُ الْمُعَادَلَةَ عَلَى الْكَشْفِ بِقُوَّةِ الْمُقَابَلَةِ وَالْعَدْلِ. وَلِكَيْ يَسْتَمِرَّ التَّوَازُنُ وَلَا أَطْغَى، يَجِبُ أَنْ نَرْفَعَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ مِنَ الْكَفَّةِ الْيُسْرَى أَيْضًا لِيَبْقَى الْعَدْلُ سَائِدًا كَالْكَوْنِ يَدُورُ بِحِكْمَةِ اللهِ، فَيَتَبَقَّى فِي الْكَفَّةِ الْيُمْنَى 'الشَّيْءُ' الْمَجْهُولُ، وَفِي الْيُسْرَى خَمْسَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا كَالنَّاتِجِ

الْمَعْلُومِ، وَيَكُونُ الْمِيزَانُ مُتَّزِنًا كَالْكَوْنِ يَدُورُ بِحِكْمَةِ اللهِ، وَيَكْشِفُ الْمَجْهُولَ بِدِقَّةٍ وَعَدْلٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ".

ثُمَّ كَتَبَ بِسُرْعَةٍ تَحْتَ مُعَادَلَتِهِ الْأُولَى:

ش + ١٠ - ١٠ = ٢٥ - ١٠، ش = ١٥

صَاحَ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ يَضْحَكُ بِفَرَحٍ يَفُوقُ التَّاجِرَ الَّذِي وَجَدَ كَنْزًا: "هَذِهِ لَيْسَتْ أُحْجِيَّةً بَعْدَ الْآنَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! إِنَّهَا خُطُوَاتٌ وَاضِحَةٌ كَالشَّمْسِ فِي وَسَطِ النَّهَارِ، وَتَكْشِفُ الْمَجْهُولَ بِدِقَّةٍ وَعَدْلٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ!".

وَقَالَ يَعْقُوبُ بِإِعْجَابٍ يَفُوقُ الْفَلَاسِفَةَ: "إِنَّهُ تَطْبِيقٌ مَادِّيٌّ لِقَوَانِينَ الْمَنْطِقِ الْمُجَرَّدِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ كَأَنَّهُ يَبْنِي جِسْرًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِحِكْمَةٍ إِلَهِيَّةٍ!".

فَقَالَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ كَشَمْسٍ تَطْلُعُ بَعْدَ غَيْمٍ كَثِيفٍ: "اللهُ أَكْبَرُ! هَذَا هُوَ الْفَتْحُ بِعَيْنِهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! لَقَدْ حَوَّلْتَ قِصَّةً مَحْكِيَّةً إِلَى بِنَاءٍ مَنْطِقِيٍّ مَرْئِيٍّ يُشَاهَدُ بِالْعَيْنِ وَيُلْمَسُ بِالْيَدِ كَأَنَّكَ كَشَفْتَ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الْكَوْنِ. وَلَكِنْ، هَلْ تَدْرِي أَنَّ أَصْلَ هَذَا الْفِعْلِ الْعَظِيمِ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ اللهِ الَّذِي يَحْكُمُ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِمِيزَانِهِ الَّذِي لَا يَطْغَى؟ إِنَّ مُعَادَلَتَكَ هَذِهِ لَيْسَتْ إِلَّا صَدًى لِقَانُونٍ كَوْنِيٍّ

أَعْظَمَ يَفُوقُ الْخَيَالَ، وَهُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ فِي الْكَوْنِ لِيَحْفَظَ التَّوَازُنَ وَيَمْنَعَ الطُّغْيَانَ مِنْ أَنْ يُفْسِدَ الْبِنَاءَ كُلَّهُ".

المَشْهَدُ الرَّابِعُ: التَّجَلِّيَاتُ الأَرْبَعَةُ لِلْمِيزَانِ

(الْمَشْهَدُ: بَعْدَ اكْتِشَافِ الْمُعَادَلَةِ، بَيْنَ الْمِيزَانِ وَاللَّوْحِ الَّذِي يَكْشِفُ أَسْرَارَ الْكَوْنِ كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِتَارًا عَنْ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ)

كَانَتْ الْحَلْقَةُ تَغْلِي بِحَمَاسَةِ الْكَشْفِ، وَفِي ذَلِكَ السُّكُونِ الْخَفِيِّ كَانَ الْعِلْمُ يَخْتَزِنُ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَفَجَّرَ كَالسَّيْلِ الَّذِي يَفُوقُ الْكَنْزَ الْمَدْفُونَ، وَالطَّلَبَةُ يَجْلِسُونَ فِي دَائِرَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ كَأَعْضَاءِ جَسَدٍ وَاحِدٍ يَنْبِضُ بِشَوْقِ الْحَقِيقَةِ. الْهَوَاءُ يَحْمِلُ رَائِحَةَ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ وَالْبَخُورِ الَّذِي يَمْلَأُ الْمَكَانَ كَأَنَّهُ يُطَهِّرُ الْعُقُولَ لِلْغَوْصِ فِي أَعْمَاقِ الْبَيَانِ. بَعْدَ أَنْ وَضَعَ أَبُو عَبْدِ اللهِ أُسُسَ الْمُعَادَلَةِ عَلَى مَبْدَأِ الْمِيزَانِ وَكَشَفَ كَيْفَ يَتَوَازَنُ الْمَجْهُولُ مَعَ الْمَعْلُومِ، قَالَ يَعْقُوبُ (الْمَنْطِقِيُّ) وَعَلَى وَجْهِهِ عَلَامَاتُ التَّفَكُّرِ الْعَمِيقِ كَغَوَّاصٍ يَغُوصُ فِي بَحْرِ الْأَفْكَارِ: "يَا سَيِّدِي، إِنَّ رَبْطَ الْمُعَادَلَةِ بِالْمِيزَانِ أَمْرٌ عَبْقَرِيٌّ يَفُوقُ الْخَيَالَ، وَلَكِنْ، هَلْ كَلِمَةُ 'الْمِيزَانِ' الَّتِي وَرَدَتْ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ مَقْصُورَةٌ فَقَطْ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي كَشَفْتَهُ، أَمْ هُنَاكَ بَحْرٌ وَاسِعٌ وَرَاءَهَا يَحْتَاجُ إِلَى غَوْصٍ أَعْمَقَ لِنَكْشِفَ أَسْرَارَهُ؟".

أَشْرَقَ وَجْهُ الْإِمَامِ لِسُؤَالِ يَعْقُوبَ وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ يَحْمِلُ وَزْنَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "لَقَدْ فَتَحْتَ الْبَابَ الْآنَ لِأَعْظَمِ دَرْسٍ فِي هَذَا الْبَابِ يَا يَعْقُوبُ، وَسُؤَالُكَ هَذَا يَدُلُّ عَلَى نُضْجِ عَقْلِكَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ الْأَعْمَقِ. إِنَّ 'الْمِيزَانَ' فِي الْقُرْآنِ لَيْسَ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَحْمِلُ مَعْنًى وَاحِدًا، بَلْ هُوَ نِظَامٌ كَامِلٌ لَهُ أَرْبَعَةُ تَجَلِّيَاتٍ عَظِيمَةٍ، كُلُّ تَجَلٍّ مِنْهَا يَبْنِي عَلَى الَّذِي قَبْلَهُ كَأَنَّهُ يَبْنِي قَصْرًا مِنَ الْطُمَأْنِينَةِ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ. فَاجْلِسُوا لِنُبْحِرَ فِي هَذَا الْبَحْرِ الْوَاسِعِ الَّذِي يَكْشِفُ أَسْرَارَ الْمِيزَانِ مِنَ الذَّرَّةِ إِلَى الْآخِرَةِ، وَنَرَى كَيْفَ يَحْكُمُ الْعَدْلُ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِحِكْمَةٍ إِلَهِيَّةٍ".

أولًا: المِيزَانُ الكَوْنِيّ

"أَوَّلُ وَأَعْظَمُ تَجَلٍّ لِلْمِيزَانِ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْأَكْبَرُ كَأَنَّهُ يَحْكُمُ الْكَوْنَ كُلَّهُ مِنَ الذَّرَّةِ إِلَى الْمَجَرَّةِ، إِنَّهُ الْمِيزَانُ الْكَوْنِيُّ الَّذِي يَحْفَظُ تَوَازُنَ الْكَوْنِ كُلِّهِ، مِنَ الذَّرَّةِ إِلَى الْمَجَرَّةِ، وَيَضْمَنُ دَيْمُومَتَهُ بِحِكْمَةٍ تَفُوقُ الْخَيَالَ. وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ الَّتِي تَكْشِفُ رَحْمَةَ اللهِ فِي الْخَلْقِ":

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٧).

عَلَّقَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بِحَمَاسَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ جَارٍ: "إِذًا، فَقَبْلَ أَنْ يَكُونَ الْمِيزَانُ أَدَاةً فِي أَيْدِينَا لِلْحِسَابِ أَوْ التِّجَارَةِ، فَهُوَ نِظَامٌ فِي خَلْقِ اللهِ الَّذِي يَحْكُمُ

الْكَوْنَ كُلَّهُ. فَالْكَوَاكِبُ لَا تَصْطَدِمُ بِبَعْضِهَا وَتَدُورُ بِدِقَّةٍ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَتَعَارَضَانِ فِي دَوْرَانِهِمَا، لِأَنَّ 'الْمِيزَانَ' يَحْكُمُهَا بِتَوَازُنٍ مُطْلَقٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ، كَأَنَّ الْكَوْنَ مُعَادَلَةٌ إِلَهِيَّةٌ تَتَوَازَنُ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ!".

قَالَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ: "بِالضَّبْطِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَبْدَأُ الْبَيَانِيُّ الْأَعْلَى الَّذِي يُعْطِي لِمُعَادَلَتِكَ قِيمَتَهَا الْحَقِيقِيَّةَ. فَمُعَادَلَتُكَ الصَّغِيرَةُ هِيَ مُجَرَّدُ صَدًى لِهَذَا التَّوَازُنِ الْكَوْنِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي يَحْفَظُ الْكَوْنَ مِنَ الْفَسَادِ وَيَضْمَنُ دَيْمُومَتَهُ بِحِكْمَةٍ إِلَهِيَّةٍ تَفُوقُ الْخَيَالَ".

ثانيًا: المِيزَانُ الأَخْلَاقِيّ وَالتَّشْرِيعِيّ

"ثُمَّ يَنْتَقِلُ الْقُرْآنُ مِنَ الْكَوْنِ الْوَاسِعِ إِلَى الْإِنْسَانِ الْمُقَيَّدِ، فَيَأْمُرُنَا أَنْ نَعْكِسَ هَذَا التَّوَازُنَ الْكَوْنِيَّ فِي مُعَامَلَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ وَمُجْتَمَعَاتِنَا كَأَنَّنَا مِرْآةٌ لِلْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ. وَهَذَا هُوَ الْمِيزَانُ الْأَخْلَاقِيُّ وَالتَّشْرِيعِيُّ الَّذِي يَحْكُمُ حَيَاتَنَا كُلَّهَا بِعَدْلٍ يَفُوقُ الْخَيَالَ":

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٩).

عَلَّقَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) بِحَمَاسَةٍ تَفِيضُ كَنَهْرٍ جَارٍ: "هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ دُسْتُورُ كُلِّ تَاجِرٍ صَادِقٍ يَبْحَثُ عَنِ الرِّبْحِ الْحَلَالِ! إِنَّهَا لَا تَأْمُرُنَا فَقَطْ بِأَنْ نَكُونَ

عَادِلِينَ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، بَلْ تَنْهَانَا حَتَّى عَنْ 'إِخْسَارِ الْمِيزَانِ'، أَيْ إِفْسَادِ مِعْيَارِ الْعَدْلِ نَفْسِهِ وَلَوْ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ كَذَرَّةٍ فِي مِيزَانِ التَّاجِرِ!".

قَالَ الْإِمَامُ وَابْتِسَامَةٌ تُضِيءُ وَجْهَهُ: "وَهَذَا يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ هُوَ الْمَبْدَأُ الْحَاكِمُ لِـ 'عَمَلِيَّةِ' حَلِّكَ لِلْمُعَادَلَةِ، يَكْشِفُ كَيْفَ يَبْنِي الْعَدْلُ اطْمَأْنِينَةَ. فَـ 'لَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ' تَعْنِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِجْرَاءُ عَمَلِيَّةٍ عَلَى طَرَفٍ دُونَ الْآخَرِ، وَإِلَّا كُنْتَ كَالتَّاجِرِ الْغَشَّاشِ الَّذِي يُفْسِدُ مِيزَانَهُ وَيُخْسِرُ ثِقَةَ النَّاسِ كُلَّهُمْ، فَيَطْغَى وَيُفْسِدُ الْعَدْلَ الَّذِي يَحْفَظُ الْمُجْتَمَعَ كُلَّهُ".

ثالثًا: مِيزَانُ يَوْمِ القِيَامَةِ

"وَكَمَا أَنَّ لِلْكَوْنِ مِيزَانًا يَحْفَظُ تَوَازُنَهُ، وَلِلْمُعَامَلَاتِ مِيزَانًا يَحْفَظُ عَدْلَهَا، فَإِنَّ لِلْجَزَاءِ النِّهَائِيِّ مِيزَانَهُ الْأَعْظَمَ وَالْأَعْدَلَ الَّذِي يَفُوقُ الْخَيَالَ، وَهُوَ مِيزَانُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَقِيسُ الْأَعْمَالَ بِدِقَّةٍ تَفُوقُ الذَّرَّةَ":

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الْأَنْبِيَاءُ: ٤٧).

قَالَ يَعْقُوبُ وَقَدِ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ دَمْعَةً مِنَ التَّأَثُّرِ: "إِنَّهُ الِاطْمِئْنَانُ الْمُطْلَقُ يَا سَيِّدِي! فَكَمَا أَنَّنَا نَثِقُ بِأَنَّ خُوَارِزْمِيَّةَ أَبِي عَبْدِ اللهِ سَتُعْطِي نَاتِجًا دَقِيقًا يَفُوقُ

الشَّكَّ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُعْطِينَا الثِّقَةَ الْمُطْلَقَةَ فِي أَنَّ مِيزَانَ اللهِ سَيُحْصِي أَدَقَّ الْأَعْمَالِ وَأَصْغَرَهَا بِدِقَّةٍ تَفُوقُ الذَّرَّةَ، وَلَا يَظْلِمُ نَفْسًا شَيْئًا كَأَنَّهُ يَحْكُمُ بِعَدْلٍ أَبَدِيٍّ!".

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ الْآيَةَ كَأَنَّهُ يَرَى مِيزَانًا إِلَهِيًّا يَقِيسُ الْأَعْمَالَ: "إِنَّ هَذَا الْمِيزَانَ يُشْبِهُ الْخُطْوَةَ الْأَخِيرَةَ فِي أَيِّ خُوَارِزْمِيَّةٍ يَا سَيِّدِي: خُطْوَةُ إِظْهَارِ النَّاتِجِ النِّهَائِيِّ، حَيْثُ تَتَجَلَّى ثَمَرَةُ كُلِّ الْمُدْخَلَاتِ وَالْعَمَلِيَّاتِ السَّابِقَةِ بِعَدْلٍ تَامٍّ يَفُوقُ الْخَيَالَ، وَيَكْشِفُ الْحَقِيقَةَ بِدِقَّةٍ لَا تَدَعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ أَوْ الظُّلْمِ".

رابعًا: المِيزَانُ كَأَدَاةٍ مَادِّيَّةٍ

"وَأَخِيرًا"، قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْمِيزَانِ الْمَادِّيِّ أَمَامَهُ كَأَنَّهُ يَرَى صُورَةً مِنْ صُوَرِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ: "وَلِكَيْ لَا تَبْقَى هَذِهِ الْمَعَانِي الْكُبْرَى مُجَرَّدَةً فِي السَّمَاءِ وَتَبْعُدُ عَنْ حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ، فَقَدْ ضَرَبَ لَنَا الْقُرْآنُ الْمَثَلَ بِأَبْسَطِ صُورَةٍ لِلْمِيزَانِ، وَهِيَ الْأَدَاةُ الْمَادِّيَّةُ الَّتِي نَسْتَخْدِمُهَا فِي أَسْوَاقِنَا وَحِسَابَاتِنَا، لِيُرَبِّيَنَا عَلَى أَنَّ الْعَدْلَ يَبْدَأُ مِنْ أَصْغَرِ الْأُمُورِ وَأَقْرَبِهَا إِلَيْنَا كَأَنَّهُ يَقُولُ لَنَا 'ابْدَأْ بِالْمِيزَانِ فِي يَدِكَ لِتَصِلَ إِلَى مِيزَانِ الْقِيَامَةِ'":

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هُودٌ: ٨٥).

الخَاتِمَةُ: عَلَامَةُ (=) كَبَوَّابَةِ الحِكْمَةِ

اخْتَتَمَ الْإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا بِصَوْتٍ يَحْمِلُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: "هَكَذَا تَرَوْنَ يَا أَبْنَائِي. إِنَّ الْمِيزَانَ يَبْدَأُ كَقَانُونٍ يَحْكُمُ الْمَجَرَّاتِ وَالذَّرَّاتِ بِدِقَّةٍ تَفُوقُ الْخَيَالَ، ثُمَّ يَنْزِلُ لِيَصْبِحَ قَانُونًا يَحْكُمُ مُعَامَلَاتِنَا وَأَخْلَاقَنَا بِعَدْلٍ يَبْنِي الْمُجْتَمَعَاتِ، ثُمَّ يَرْتَقِي لِيَصْبِحَ مِعْيَارًا لِمَصِيرِنَا الْأَبَدِيِّ فِي الْآخِرَةِ يَقِيسُ الْأَعْمَالَ بِدِقَّةٍ لَا تَدَعُ مَجَالًا لِلظُّلْمِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مُخْتَزَلَةٌ الْآنَ فِي هَذِهِ الْعَلَامَةِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي تَضَعُهَا فِي قَلْبِ مُعَادَلَاتِكَ: (=)، هِيَ أَبْسَطُ خَطَّيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ، وَلَكِنَّهُمَا يَحْمِلَانِ سِرَّ الْعَدْلِ الَّذِي يَرْبِطُ مَا فِي السَّمَاءِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. فَلَا تَسْتَهِنْ بِهَا أَبَدًا، فَهِيَ مِفْتَاحُ الْعَدْلِ فِي الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ وَالْآخِرَةِ، وَهِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الْجَبْرَ لَيْسَ عِلْمًا فَحَسْبُ، بَلْ سَبِيلًا إِلَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ".

الدَّرْسُ ١٩: مِيزَانُ الجَبْرِ

فَنُّ إِصْلَاحِ النَّقْصِ وَإِعَادَةِ الكَمَالِ

(المَشْهَدُ: المُعَادَلَةُ المَكْسُورَةُ)

بَعْدَ أَنْ أَسَّسَ أَبُو عَبْدِ اللهِ فِكْرَةَ "المُعَادَلَةِ" عَلَى "المِيزَانِ"، ظَنَّ لِوَهْلَةٍ أَنَّهُ قَدْ حَلَّ اللُّغْزَ، وَمَا إِنْ ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ أَحْكَمَ العِلْمَ، حَتَّى جَاءَهُ الِابْتِلَاءُ فِي مَسْأَلَةٍ جَدِيدَةٍ. وَلَكِنْ، فِي اليَوْمِ التَّالِي، جَاءَ إِسْمَاعِيلُ بِمَسْأَلَةٍ جَدِيدَةٍ وَقَالَ: "يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ تَاجِرٌ صُوفٍ صَفْقَةً وَقَالَ لِي: لَدَيَّ 'شَيْءٌ' مِنَ المَالِ، طَرَحْتُ مِنْهُ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ لِأَدْفَعَ أُجْرَةَ الحَمَّالِينَ، فَتَبَقَّى مَعِي عَشَرَةُ دَرَاهِمَ. فَكَمْ كَانَ 'الشَّيْءُ' أَصْلًا؟".

أَمْسَكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ اللَّوْحَ بِثِقَةٍ وَكَتَبَ المُعَادَلَةَ: ش - ٥ = ١٠

ثُمَّ تَوَقَّفَ. تَجَمَّدَتْ يَدُهُ فِي الهَوَاءِ. لَقَدْ كَانَتِ المُعَادَلَةُ الأُولَى (ش + ١٠ = ٢٥) سَهْلَةً، فَقَدْ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ "يَرْفَعَ" الزِّيَادَةَ مِنَ الكَفَّتَيْنِ. وَلَكِنْ هُنَا،

كَيْفَ "يَرْفَعُ" شَيْئًا غَيْرَ مَوْجُودٍ أَصْلًا؟ كَيْفَ يَرْفَعُ نَقْصًا؟

قَالَ يَعْقُوبُ بِنَظْرَتِهِ المَنْطِقِيَّةِ: "المَسْأَلَةُ مُسْتَحِيلَةٌ بِالمِيزَانِ المَادِّيِّ. فَلَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَضَعَ 'نَاقِصَ خَمْسَةٍ' فِي كَفَّةِ المِيزَانِ. إِنَّهَا فِكْرَةٌ مُجَرَّدَةٌ لَا وُجُودَ لَهَا فِي العَالَمِ المَحْسُوسِ كَظِلٍّ لِجَسَدٍ لَا يُمْكِنُك أَنْ تَضَعَهُ فِي كَفَّةٍ".

هُنَا، تَدَخَّلَ الإِمَامُ وَقَالَ: "صَدَقْتَ يَا يَعْقُوبُ، لَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَضَعَ نَقْصًا فِي مِيزَانِ الذَّهَبِ. وَلَكِنْ، مَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ مِيزَانِ الذَّهَبِ؟ إِنَّنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ مِيزَانِ الحَقَائِقِ. وَفِي عَالَمِ الحَقَائِقِ، فَإِنَّ النَّقْصَ لَهُ وُجُودٌ حَقِيقِيٌّ. فَالجَهْلُ نَقْصٌ فِي العِلْمِ، وَالمَرَضُ نَقْصٌ فِي الصِّحَّةِ، وَالخَطِيئَةُ نَقْصٌ فِي الإِيمَانِ".

"إِنَّ مُعَادَلَتَكَ هَذِهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ لَيْسَتْ خَاطِئَةً، بَلْ هِيَ 'مَكْسُورَةٌ'. وَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى 'إِصْلَاحٍ'. وَمِفْتَاحُ هَذَا الإِصْلَاحِ يَكْمُنُ فِي كَلِمَةٍ عَظِيمَةٍ فِي لُغَتِنَا وَدِينِنَا: كَلِمَةِ 'الجَبْرِ'".

أَوَّلًا: المَعْنَى اللُّغَوِيُّ وَالبَيَانِيُّ (الجَابِرُ وَالجَبِيرَةُ)

"قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الجَبْرُ عِلْمًا، كَانَ حَالًا يَا أَبْنَائِي. فَنَحْنُ نَقُولُ: 'جَبَرَ' العَظْمَ الكَسِيرَ، أَيْ أَصْلَحَهُ وَأَعَادَهُ إِلَى حَالَتِهِ الأُولَى. وَنُسَمِّي الخَشَبَةَ الَّتِي

تَشُدُّهُ 'جَبِيرَةً'. وَنَدْعُو لِمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَنَقُولُ: 'جَبَرَ اللهُ مُصَابَكَ'، أَيْ أَصْلَحَ نَقْصَكَ وَأَعَادَ لَكَ القُوَّةَ. فَالجَبْرُ فِي أَصْلِهِ هُوَ 'إِزَالَةُ النَّقْصِ لِإِعَادَةِ الكَمَالِ'".

ثَانِيًا: المَعْنَى القُرْآنِيُّ الأَسْمَى (الجَبَّارُ)

قَالَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ) بِاهْتِمَامٍ: "يَا سَيِّدِي، إِنَّ هَذَا لَأَمْرٌ عَظِيمٌ. وَلَكِنْ، أَكْثَرُ مَا يَشْغَلُ بَالِي فِي هَذَا الِاسْمِ هُوَ مَعْنَى القُوَّةِ وَالقَهْرِ. فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِفِكْرَةِ "الجَبْرِ" بِمَعْنَى الإِكْرَاهِ أَنْ تُولِدَ عِلْمًا يَقُومُ عَلَى المَنْطِقِ وَالإِقْنَاعِ؟".

أَجَابَ الإِمَامُ بِهُدُوءٍ: "سُؤَالُكَ فِي مَحَلِّهِ يَا يَعْقُوبُ، وَهُوَ يُظْهِرُ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ الفِكْرَةَ حَتَّى تُحِيطَ بِهَا مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهَا. نَعَمْ، إِنَّ أَوَّلَ مَعَانِي "الجَبَّارِ" هُوَ القَهَّارُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ، وَالَّذِي يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ. وَلَكِنَّ القُرْآنَ يُعَلِّمُنَا دَرْسًا عَظِيمًا: إِنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الجَبْرِ، وَهُوَ "الجَبْرُ بِمَعْنَى القُوَّةِ وَالإِكْرَاهِ"، هُوَ صِفَةٌ خَاصَّةٌ بِاللهِ وَحْدَهُ، وَمُحَرَّمَةٌ عَلَى البَشَرِ أَنْ يَتَصِفُوا بِهَا".

"اُنْظُرُوا كَيْفَ يُخَاطِبُ اللهُ نَبِيَّهُ وَهُوَ أَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيْهِ":

﴿...وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ...﴾ (ق: ٤٥).

عَلَّقَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيُّ بِتَأَمُّلٍ: "سُبْحَانَ اللهِ! إِنَّهُ نَهْيٌ صَرِيحٌ! فَكَأَنَّ

اللهَ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ: مُهِمَّتُكَ هِيَ البَلَاغُ وَالإِقْنَاعُ، لَا الإِجْبَارُ وَالإِكْرَاهُ. فَالجَبْرُ بِمَعْنَى القُوَّةِ لَيْسَ مِنْ صِفَاتِ البَشَرِ الصَّالِحِينَ، فَلَيسَ الجَبْرُ الَّذِي سَيُولَدُ مِنْ هَذِهِ المَسْأَلَةِ جَبْرَ قَهْرٍ، بَلْ جَبْرَ رَحْمَةٍ".

"بِالضَّبْطِ!"، قَالَ الإِمَامُ. "بَلْ إِنَّ القُرْآنَ يَجْعَلُ هَذِهِ الصِّفَةَ عَلَامَةً عَلَى الطُّغْيَانِ وَالخَيْبَةِ عِنْدَمَا يَتَصِفُ بِهَا البَشَرُ":

﴿...وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (إِبْرَاهِيم: ١٥).

هُنَا قَالَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ تَجْرِبَةٍ شَخْصِيَّةٍ: "وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ! لَقَدْ رَأَيْنَا فِي السُّوقِ تُجَّارًا "جَبَّارِينَ"، يَسْتَخْدِمُونَ قُوَّتَهُمْ لِإِجْبَارِ صِغَارِ التُّجَّارِ عَلَى صَفَقَاتٍ خَاسِرَةٍ. وَفِي البِدَايَةِ قَدْ يَرْبَحُونَ، وَلَكِنَّهُمْ فِي النِّهَايَةِ يَخِيبُونَ دَائِمًا، فَيَفْقِدُونَ ثِقَةَ النَّاسِ وَتَمْحَقُ البَرَكَةُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ".

اخْتَتَمَ الإِمَامُ قَائِلًا: "فَهَذِهِ هِيَ الخُلَاصَةُ يَا أَبْنَائِي: إِنَّ "الجَبْرَ" بِمَعْنَى القُوَّةِ هُوَ صِفَةُ كَمَالٍ للهِ، وَلَكِنَّهُ صِفَةُ نَقْصٍ وَطُغْيَانٍ لِلْبَشَرِ. وَلِهَذَا، فَإِنَّ العِلْمَ الَّذِي نَبْحَثُ عَنْهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَلْهَمًا مِنْ هَذَا المَعْنَى. بَلْ إِنَّهُ مُسْتَلْهَمٌ مِنَ المَعْنَى الثَّانِي، المَعْنَى المَلِيءِ بِالرَّحْمَةِ وَالجَمَالِ... وَهُوَ "الجَبْرُ" بِمَعْنَى الإِصْلَاحِ".

ثَالِثاً: الإِصْلَاحُ كَغَايَةٍ لِلأَنْبِيَاءِ (الجَبْرُ العَمَلِيُّ): جَوْهَرُ الرِّسَالَةِ

قَالَ الإِمَامُ: "لَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ الجَبْرَ بِمَعْنَى القُوَّةِ هُوَ صِفَةٌ يَخْتَصُّ بِهَا اللهُ، وَيُذَمُّ عَلَيْهَا البَشَرُ. وَلَكِنَّ المَعْنَى الثَّانِي، المَعْنَى المَلِيءَ بِالرَّحْمَةِ وَالجَمَالِ، هُوَ "الجَبْرُ" بِمَعْنَى الإِصْلَاحِ. وَهَذِهِ الكَلِمَةُ لَيْسَتْ كَلِمَةً عَادِيَّةً، بَلْ هِيَ خُلَاصَةُ رِسَالَةِ الأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا".

"اِسْمَعُوا إِلَى نَبِيِّ اللهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يُلَخِّصُ مَنْهَجَ حَيَاتِهِ كُلِّهِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ":

﴿...إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ...﴾ (هُود: ٨٨).

تَدَخَّلَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) وَكَأَنَّ الكَلِمَاتِ لَامَسَتْ شَيْئًا فِي وَاقِعِهِ، فَقَالَ: "يَا اللهُ! إِنَّهَا كَلِمَةٌ تَهُزُّ الكِيَانَ! فَنَحْنُ فِي السُّوقِ نَقْضِي جُلَّ وَقْتِنَا فِي الإِصْلَاحِ. نُصْلِحُ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ، وَنُصْلِحُ الصَّفَقَاتِ الفَاسِدَةَ، وَنُصْلِحُ سُمْعَةَ التَّاجِرِ الَّذِي ظُلِمَ. فَمُهِمَّةُ التَّاجِرِ الأَمِينِ لَيْسَتْ جَمْعَ المَالِ، بَلْ إِصْلَاحُ مَا فَسَدَ فِي مُعَامَلَاتِ النَّاسِ".

"أَحْسَنْتَ التَّفْسِيرَ يَا إِسْمَاعِيلُ"، قَالَ الإِمَامُ. "وَلَكِنَّ الأَمْرَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ".

قَالَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ): "لَقَدْ وَضَحَ لِي الآنَ! إِنَّ الأَنْبِيَاءَ كَانُوا كَالأَطِبَّاءِ الحُكَمَاءِ. كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى المُجْتَمَعِ فَيَرَوْنَ فِيهِ "خَلَلًا" أَوْ "مَرَضًا" (كَالشِّرْكِ وَالظُّلْمِ)، فَتَكُونُ مُهِمَّتُهُمْ هِيَ تَشْخِيصُ هَذَا الخَلَلِ وَوَضْعُ خُوَارِزْمِيَّةِ الإِصْلَاحِ (الشَّرِيعَةِ) لِإِعَادَةِ المُجْتَمَعِ إِلَى حَالَةِ "الصِّحَّةِ" وَ"التَّوَازُنِ". فَالرِّسَالَةُ كُلُّهَا عِبَارَةٌ عَنْ عَمَلِيَّةِ جَبْرٍ عَظِيمَةٍ لِلْمُجْتَمَعِ البَشَرِيِّ!".

أَوْمَأَ الإِمَامُ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيِّ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ صَامِتًا وَعَيْنَاهُ تَكَادَانِ تَخْرُجَانِ مِنْ رَأْسِهِ لِشِدَّةِ التَّرْكِيزِ. فَقَالَ لَهُ: "وَمَاذَا عَنْكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟ مَاذَا تَرَى فِي هَذِهِ الآيَةِ؟".

رَفَعَ أَبُو عَبْدِ اللهِ رَأْسَهُ بِبُطْءٍ، وَكَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ غَشِيَّةٍ طَوِيلَةٍ، وَتَفَجَّرَ صَوْتُهُ مَمْزُوجًا بِنَشْوَةِ الِاكْتِشَافِ وَخُشُوعِ التَّسْلِيمِ:

"الآنَ فَقَطْ... الآنَ فَقَطْ أَبْصَرْتُ الغَايَةَ الحَقِيقِيَّةَ مِنْ هَذَا العِلْمِ. إِنَّ مُعَادَلَتِي المَكْسُورَةَ (ش - ٥ = ١٠) لَيْسَتْ مَسْأَلَةً حِسَابِيَّةً فَقَطْ، بَلْ هِيَ صُورَةٌ مُصَغَّرَةٌ لِمُجْتَمَعِ نَبِيِّ اللهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَكَمَا كَانَتْ قَرْيَتُهُ مَعَادَلَةً مَكْسُورَةً فِي القِيمِ وَالمُعَامَلَاتِ، كَذَلِكَ مَعَادَلَتِي مَكْسُورَةٌ فِي الأَرْقَامِ. وَفِي كِلْتَيْهِمَا "نَقْصٌ" يَصْرُخُ فِي وَجْهِ العَدْلِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ الأَمْرُ إِلَّا بِـ"جَبْرٍ".

إِنَّ مَهَمَّتِي إِذَنْ لَيْسَتْ أَنْ أَحْسِبَ وَأَحُلَّ فَقَطْ، بَلْ أَنْ أُشَارِكَ الأَنْبِيَاءَ فِي رِسَالَتِهِم: إِعَادَةُ مَا اِنْكَسَرَ إِلَى كَمَالِهِ، وَمَا اخْتَلَّ إِلَى تَوَازُنِهِ، وَمَا فَسَدَ إِلَى صَلَاحِهِ".

اخْتَتَمَ الإِمَامُ قَائِلًا: "هَذِهِ هِيَ الخُلَاصَةُ يَا أَبْنَائِي. إِنَّ "الجَبْرَ" بِأَعْمَقِ مَعَانِيهِ هُوَ فِعْلُ الإِصْلَاحِ. وَلِهَذَا، فَإِنَّ العِلْمَ الَّذِي يُصْلِحُ خَلَلًا، أَوْ يَجْبُرُ نَقْصًا، أَوْ يُيَسِّرُ عَلَى النَّاسِ حَيَاتَهُمْ، لَيْسَ مُجَرَّدَ عِلْمٍ دُنْيَوِيٍّ، بَلْ هُوَ عِبَادَةٌ وَعَمَلٌ صَالِحٌ، وَهُوَ مِن أَجَلِّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ العَبْدُ إِلَى رَبِّهِ".

رَابِعاً: الإِصْلَاحُ كَشَرْطٍ لِقَبُولِ التَّوْبَةِ: شُرُوطُ تَصْحِيحِ المَسَارِ

ثُمَّ قَالَ الإِمَامُ: "لَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ الإِصْلَاحَ هُوَ غَايَةُ الأَنْبِيَاءِ. وَلَكِنَّ القُرْآنَ يَأْخُذُنَا إِلَى مَا هُوَ أَعْمَقُ مِنْ ذَلِكَ. فَهُوَ يَجْعَلُ الإِصْلَاحَ شَرْطًا أَسَاسِيًّا لِقَبُولِ 'تَصْحِيحِ المَسَارِ' الأَعْظَمِ فِي حَيَاةِ الإِنْسَانِ، وَهُوَ التَّوْبَةُ".

ثُمَّ تَلا بِصَوْتٍ وَاضِحٍ:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ...﴾ (البَقَرَة: ١٦٠).

تَدَخَّلَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ) عَلَى الفَوْرِ، وَكَأَنَّهُ يَقْرَأُ خُوَارِزْمِيَّةً: "يَا لَلْعَجَبِ! إِنَّهَا خُوَارِزْمِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ كَامِلَةٌ وَصَارِمَةٌ! إِنَّهَا لَا تَقُولُ 'إِنْ تَابُوا'، بَلْ تَضَعُ ثَلَاثَةَ شُرُوطٍ مُتَتَالِيَةٍ يَجِبُ تَحْقِيقُهَا جَمِيعًا: (تَابُوا) وَ (أَصْلَحُوا) وَ (بَيَّنُوا). فَإِذَا نَقَصَ شَرْطٌ وَاحِدٌ، لَمْ تَتَحَقَّقِ النَّتِيجَةُ (قَبُولُ التَّوْبَةِ). إِنَّهَا دِقَّةٌ مَنْطِقِيَّةٌ مُذْهِلَةٌ!".

أَمَّا إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) فَقَدْ رَأَى فِيهَا صُورَةً مِنْ حَيَاتِهِ اليَوْمِيَّةِ، فَقَالَ: "هَذَا يُشْبِهُ تَمَامًا مَا يَحْدُثُ عِنْدَمَا يَبِيعُ تَاجِرٌ بِضَاعَةً فَاسِدَةً! فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُصْلِحَ خَطَأَهُ، فَلَا يَكْفِي أَنْ يَنْدَمَ فِي قَلْبِهِ (تَابُوا). بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِيدَ البِضَاعَةَ وَيُعِيدَ المَالَ لِصَاحِبِهِ (أَصْلَحُوا). ثُمَّ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِالخَلَلِ لِكَيْ لَا يَقَعَ فِيهِ غَيْرُهُمْ (بَيَّنُوا). إِذَا فَعَلَ كُلَّ هَذَا، عَادَتْ إِلَيْهِ ثِقَةُ النَّاسِ. فَالنَّدَمُ وَحْدَهُ لَا يُصْلِحُ مَا فَسَدَ".

نَظَرَ الجَمِيعُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيِّ الَّذِي كَانَ يُفَكِّرُ بِعُمْقٍ. فَقَالَ: "الآنَ أَرَى شَيْئًا جَدِيدًا فِي مُعَادَلَتِي المَكْسُورَةِ (ش - ٥ = ١٠). لَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ مُهِمَّتِي هِيَ إِيجَادُ قِيمَةِ 'ش' فَقَطْ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الآيَةَ تُعَلِّمُنِي أَنَّ الحَلَّ الحَقِيقِيَّ لَيْسَ فَقَطْ فِي مَعْرِفَةِ 'أَيْنَ الخَطَأُ'، بَلْ فِي القِيَامِ بِخُطْوَةٍ فِعْلِيَّةٍ 'لِإِصْلَاحِهِ'. فَعَمَلِيَّةُ الجَبْرِ (+٥ لِلطَّرَفَيْنِ) هِيَ فِعْلُ 'الإِصْلَاحِ' بِعَيْنِهِ! إِنَّهَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ حِيلَةٍ حِسَابِيَّةٍ، بَلْ هِيَ الخُطْوَةُ الإِيجَابِيَّةُ الَّتِي تُعِيدُ لِلْمُعَادَلَةِ كَمَالَهَا وَتَوَازُنَهَا".

اخْتَتَمَ الإِمَامُ قَائِلًا: "هَذِهِ هِيَ الخُلَاصَةُ يَا أَبْنَائِي. إِنَّ القُرْآنَ يُعَلِّمُنَا أَنَّ التَّوْبَةَ لَيْسَتْ هُرُوبًا مِنَ المَاضِي، بَلْ هِيَ مَسْؤُولِيَّةٌ لِإِصْلَاحِهِ. وَكَذَلِكَ عِلْمُكُمْ، فَالخُوَارِزْمِيَّةُ القَوِيَّةُ لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي لَا تُخْطِئُ، بَلْ هِيَ الَّتِي تَمْتَلِكُ فِي دَاخِلِهَا آلِيَّةً وَاضِحَةً لِاكْتِشَافِ الخَطَأِ وَإِصْلَاحِهِ وَإِعَادَةِ النِّظَامِ إِلَى حَالَتِهِ الصَّحِيحَةِ".

خَامِساً: الإِصْلَاحُ كَعَمَلٍ يُحِبُّهُ اللهُ وَيُثِيبُ عَلَيْهِ: أَجْرُ المُصْلِحِينَ

ثُمَّ قَالَ الإِمَامُ: "لَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ الإِصْلَاحَ هُوَ غَايَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَشَرْطٌ لِقَبُولِ التَّوْبَةِ. وَلَكِنَّ القُرْآنَ يَذْهَبُ إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ. فَهُوَ لَا يَجْعَلُ الإِصْلَاحَ مُجَرَّدَ وَاجِبٍ، بَلْ يَجْعَلُهُ عَمَلًا مَحْبُوبًا للهِ، وَيَعِدُ القَائِمِينَ بِهِ بِأَعْظَمِ جَزَاءٍ: أَنَّ أَجْرَهُمْ لَنْ يَضِيعَ أَبَدًا".

ثُمَّ تَلَا الإِمَامُ هَذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ بِصَوْتٍ يَفِيضُ بِالبِشْرَى وَالاِطْمِئْنَانِ:

﴿...إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأَعْرَاف: ١٧٠).

كَانَ وَقْعُ الآيَةِ عَلَى إِسْمَاعِيلَ (التَّاجِرِ) كَوَقْعِ المَطَرِ عَلَى الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ، فَقَالَ بِفَرَحٍ: "هَذَا وَعْدٌ عَظِيمٌ! إِنَّهُ يُغَيِّرُ نَظْرَتِي لِلْأُمُورِ كُلِّيًّا! فَعِنْدَمَا أُصْلِحُ خَلَلًا فِي صَفْقَةٍ، أَوْ أُعِيدُ حَقًّا لِصَاحِبِهِ، فَأَنَا لَا أَتَجَنَّبُ الخَسَارَةَ فَقَطْ، بَلْ إِنِّي فِي الحَقِيقَةِ أَسْتَثْمِرُ لِأَعْظَمِ رِبْحٍ وَهُوَ أَجْرُ اللهِ الَّذِي لَا يَضِيعُ! إِنَّ الإِصْلَاحَ هُوَ أَرْبَحُ

تِجَارَةٍ".

"لَقَدْ أَصَبْتَ كَبِدَ الحَقِيقَةِ يَا إِسْمَاعِيلُ"، قَالَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ). "وَالمَنْطِقُ هُنَا بَدِيعٌ. فَالآيَةُ لَمْ تَقُلْ 'لَا نُضِيعُ أَجْرَ الصَّالِحِينَ'، بَلْ خَصَّصَتْ 'المُصْلِحِينَ'. وَالفَرْقُ كَبِيرٌ. فَالصَّالِحُ قَدْ يَكُونُ خَيْرُهُ قَاصِرًا عَلَى نَفْسِهِ، أَمَّا 'المُصْلِحُ' فَهُوَ الَّذِي يَتَعَدَّى صَلَاحُهُ لِيُصْلِحَ مَا أَفْسَدَهُ الآخَرُونَ. فَمَرْتَبَتُهُ أَعْلَى، وَلِذَلِكَ كَانَ أَجْرُهُ مَحْفُوظًا بِوَعْدٍ خَاصٍّ".

وَقَدْ كَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيُّ صَامِتًا، يُقَلِّبُ الفِكْرَةَ فِي عَقْلِهِ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ بِبُطْءٍ وَقَالَ بِصَوْتٍ يَخْتَلِطُ فِيهِ الِاكْتِشَافُ بِالخُشُوعِ: "الآنَ اكْتَمَلَ كُلُّ شَيْءٍ. لَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ 'الجَبْرَ' هُوَ مُجَرَّدُ اسْمٍ لِعَمَلِيَّةٍ حِسَابِيَّةٍ. وَلَكِنِّي أَرَى الآنَ أَنَّهُ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ بَيَاناً كَامِلاً. فَعِنْدَمَا أَقُومُ بِجَبْرِ مُعَادَلَةٍ مَكْسُورَةٍ، فَأَنَا لَا أَقُومُ بِعَمَلٍ تِقَنِيٍّ جَافٍّ، بَلْ أُشَارِكُ فِي عَمَلٍ مِن أَجَلِّ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. أَنَا أُصْبِحُ 'مُصْلِحًا' فِي عَالَمِ الأَرْقَامِ، أُعِيدُ التَّوَازُنَ لِمَا اخْتَلَّ، وَأَجْبُرُ النَّقْصَ لِيَعُودَ الكَمَالُ. فَعَسَى اللهُ أَنْ يَكْتُبَنَا فِي سِجِلِّ المُصْلِحِينَ".

لَخَّصَ الإِمَامُ دَرْسَ "الجَبْرِ" العَظِيمَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ بِعَيْنٍ رَاضِيَةٍ وَقَالَ: "هَذِهِ هِيَ الغَايَةُ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ. أَنْ تَرَى فِي عِلْمِكَ بَابًا إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ وَالقُرْبِ مِنْهُ. لَقَدْ أَصْبَحَتْ لَدَيْكَ الآنَ الأَدَاةُ الثَّانِيَةُ. فَبِ 'المِيزَانِ' تُصَوِّرُ

المُشْكِلَةَ، وَبِـ 'الجَبْرِ' تُصْلِحُ نَقْصَهَا. وَلَكِنْ، مَاذَا سَتَفْعَلُ إِذَا كَانَتِ المُشْكِلَةُ مُعَقَّدَةً وَمُتَشَابِكَةً؟ هُنَا، سَتَحْتَاجُ إِلَى الأَدَاةِ الثَّالِثَةِ وَالأَخِيرَةِ".

أَخِيراً، اخْتَتَمَ الإِمَامُ كَلَامَهُ: "فَهَلْ تَرَوْنَ؟ إِنَّ القُرْآنَ يُعَلِّمُنَا أَنَّ الإِصْلَاحَ وَالجَبْرَ هُوَ نَامُوسٌ كَوْنِيٌّ وَقِيمَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ عُظْمَى. وَالآنَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، كَيْفَ سَتُطَبِّقُ هَذَا المَبْدَأَ العَظِيمَ لِتَجْبُرَ مُعَادَلَتَكَ المَكْسُورَةَ؟".

أَمْسَكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ لَوْحَهُ وَقَدْ تَجَلَّتْ لَهُ الفِكْرَةُ كَامِلَةً. قَالَ: "الآنَ فَهِمْتُ! لِإِصْلَاحِ المُعَادَلَةِ ش - ٥ = ١٠، يَجِبُ أَنْ أَجْبُرَ الطَّرَفَ الأَيْمَنَ بِأَنْ أُعِيدَ إِلَيْهِ الخَمْسَةَ الَّتِي نَقَصَتْ مِنْهُ. وَلِكَيْ لَا أُخِلَّ بِالمِيزَانِ، سَأُضِيفُ خَمْسَةً أَيْضًا إِلَى الطَّرَفِ الآخَرِ". وَكَتَبَ بِخَطٍّ وَاثِقٍ:

ش - ٥ + ٥ = ١٠ + ٥

"وَهَكَذَا، يَعُودُ "الشَّيْءُ" كَامِلًا فِي طَرَفٍ، وَيَظْهَرُ حَلُّهُ فِي الطَّرَفِ الآخَرِ":

ش = ١٥

وَعِنْدَمَا كَتَبَ الخُوَارِزْمِيُّ هَذِهِ السُّطُورَ، لَمْ يَكُنْ يَكْتُبُ مَجْرَدَ حَلٍّ، بَلْ

كَانَ يَكْتُبُ صَفْحَةً جَدِيدَةً فِي تَارِيخِ العِلْمِ، كَانَتْ تِلْكَ لَحْظَةَ مِيلَادِ "عِلْمِ الجَبْرِ". لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ حِيلَةٍ رِيَاضِيَّةٍ، بَلْ كَانَ تَجَلِّيًا لِفِكْرَةٍ قُرْآنِيَّةٍ عَظِيمَةٍ عَنْ إِصْلَاحِ الكَسْرِ وَإِعَادَةِ التَّوَازُنِ لِلْعَالَمِ.

الدَّرْسُ ٢٠: مِيزَانُ المُقَابَلَةُ

فَنُّ التَّبْسِيطِ وَالتَّرْكِيزِ عَلَى الجَوْهَرِ

لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى أَحَدِ أَهَمِّ المَبَادِئِ وَأَكْثَرِهَا تَكْرَارًا فِي البِنَاءِ القُرْآنِيِّ. إِنَّ "المُقَابَلَةَ" لَيْسَتْ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ بَلَاغِيَّةٍ، بَلْ هِيَ مَنْهَجٌ كَامِلٌ فِي التَّفْكِيرِ وَعَرْضِ الحَقَائِقِ.

سَنُفْرِدُ لِهَذَا المَوْضُوعِ دَرْسًا كَامِلًا وَمُوَسَّعًا، يَقُومُ فِيهِ الإِمَامُ بِاسْتِعْرَاضٍ شَامِلٍ لِأَنْوَاعِ وَأَدَوَاتِ "المُقَابَلَةِ" فِي كِتَابِ اللهِ.

(المَشْهَدُ: لُغْزُ المُعَادَلَةِ المُزْدَحِمَةِ)

بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَ أَبُو عَبْدِ اللهِ قُوَّةَ "الجَبْرِ" فِي إِصْلَاحِ المُعَادَلَاتِ المَكْسُورَةِ، جَاءَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ) بِمَسْأَلَةٍ جَدِيدَةٍ. قَالَ وَعَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةُ مُتَحَدٍّ: "يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَقَدْ حَلَلْتَ المَسَائِلَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا المَجْهُولُ فِي طَرَفٍ وَاحِدٍ. وَلَكِنْ، مَاذَا لَوْ كَانَتِ المُعَادَلَةُ مُزْدَحِمَةً وَمُتَشَابِكَةً؟".

وَكَتَبَ عَلَى اللَّوْحِ: "خَمْسَةُ أَشْيَاءَ مُضَافٌ إِلَيْهَا عَشَرَةُ دَرَاهِمَ، تُعَادِلُ شَيْئَيْنِ مُضَافًا إِلَيْهِمَا أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا". صَاغَ أَبُو عَبْدِ اللهِ المُعَادَلَةَ بِسُرْعَةٍ:

٥ش + ١٠ = ٢ش + ٤٠

نَظَرَ إِسْمَاعِيلُ إِلَى المُعَادَلَةِ وَقَالَ: "هَذِهِ مُعَقَّدَةٌ! فَالشَّيْءُ المَجْهُولُ مَوْجُودٌ فِي كِلَا الطَّرَفَيْنِ! وَكَذَلِكَ الأَعْدَادُ المَعْلُومَةُ! كَيْفَ سَنَعْزِلُ 'الشَّيْءَ' وَحْدَهُ؟".

قَالَ الإِمَامُ: "لَقَدْ أَصَبْتَ يَا إِسْمَاعِيلُ. وَلِحَلِّ مِثْلِ هَذِهِ المَسَائِلِ المُزْدَحِمَةِ، نَحْتَاجُ إِلَى الأَدَاةِ الثَّالِثَةِ وَالأَخِيرَةِ مِنْ أَدَوَاتِ الجَبْرِ، وَهِيَ أَدَاةُ التَّنْظِيمِ وَالتَّبْسِيطِ. إِنَّهَا المُقَابَلَةُ".

"وَجَوْهَرُ المُقَابَلَةِ يَا أَبْنَائِي"، أَكْمَلَ الإِمَامُ، "هُوَ أَنْ نَضَعَ الأَشْيَاءَ المُتَشَابِهَةَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، ثُمَّ نَحْذِفَ الزَّوَائِدَ لِنَصِلَ إِلَى الجَوْهَرِ. إِنَّهُ مَبْدَأٌ قُرْآنِيٌّ عَظِيمٌ يَتَجَلَّى بِصُوَرٍ وَأَدَوَاتٍ كَثِيرَةٍ لِيُعَلِّمَنَا التَّرْكِيزَ عَلَى الفُرُوقِ الحَقِيقِيَّةِ. وَسَنَقُومُ الآنَ بِمَسْحٍ شَامِلٍ لِأَبْرَزِ هَذِهِ الأَدَوَاتِ".

أَدَوَاتُ المُقَابَلَةِ وَالتَّنَاظُرِ فِي القُرْآنِ

قَالَ الإِمَامُ: "وَالآنَ، لِنَغُصْ فِي أَدَوَاتِ هَذِهِ المُقَابَلَةِ. فَإِنَّ القُرْآنَ يَسْتَخْدِمُهَا بِطُرُقٍ مُتَنَوِّعَةٍ، كُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْهَا تُنَاسِبُ غَرَضًا مُخْتَلِفًا".

أَخَذَ الإِمَامُ اللَّوْحَ وَبَدَأَ يَكْتُبُ وَيَشْرَحُ:

"الأَدَاةُ الأُولَى وَالأَقْوَى هِيَ: المُقَابَلَةُ بِالأَضْدَادِ، وَغَايَتُهَا الحَسْمُ وَالوَضُوحُ المُطْلَقُ".

"إِنَّهَا الأَدَاةُ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا القُرْآنُ عِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُظْهِرَ الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ بِشَكْلٍ لَا يَدَعُ مَجَالًا لِأَدْنَى شَكٍّ. إِنَّهُ لَا يُحَاوِلُ أَنْ يُقْنِعَكَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، بَلْ يَضَعُ النَّقِيضَيْنِ أَمَامَكَ دُفْعَةً وَاحِدَةً لِيَصْعَقَ عَقْلَكَ بِالْحَقِيقَةِ".

ثُمَّ تَلا الإِمَامُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَكَأَنَّهُ يَرْسُمُ صُوَرًا فِي الهَوَاءِ:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ...﴾ (فَاطِر: ١٩-٢٢).

سَادَ صَمْتٌ مَهِيبٌ فِي الحَلْقَةِ، ثُمَّ كَانَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ، فَقَالَ بِبَسَاطَةٍ وَتَأَثُّرٍ: "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ! إِنَّهَا حُجَّةٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ

يَرُدَّهَا حَتَّى طِفْلٌ صَغِيرٌ! فَكَيْفَ يَسْتَوِي الظِّلُّ البَارِدُ مَعَ الحَرِّ القَاتِلِ؟ وَكَيْفَ يَسْتَوِي الحَيُّ مَعَ المَيِّتِ؟ إِنَّ الفَرْقَ بَيْنَهُمَا هُوَ الفَرْقُ بَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا شَيْءَ!".

"لَقَدْ أَصَبْتَ جَانِبَ الحِسِّ يَا إِسْمَاعِيلُ"، قَالَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ) وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِالذَّكَاءِ. "أَمَّا جَانِبُ المَنْطِقِ فَأَعْجَبُ! إِنَّ القُرْآنَ هُنَا يَسْتَخْدِمُ مَا نُسَمِّيهِ 'البُرْهَانَ بِالنَّفْيِ المُقَابِلِ'. فَهُوَ لَا يُحَاوِلُ أَنْ يُعَرِّفَ لَنَا 'الإِيمَانَ'، بَلْ يَضَعُهُ فِي مُقَابَلَةِ نَقِيضِهِ المُطْلَقِ 'الكُفْرِ' (النُّورُ وَالظُّلُمَاتُ)، ثُمَّ يُعْلِنُ اسْتِحَالَةَ تَسَاوِيهِمَا. وَبِمَا أَنَّ العَقْلَ يُقِرُّ بِاسْتِحَالَةِ التَّسَاوِي، فَإِنَّهُ يُجْبَرُ عَلَى الاِعْتِرَافِ بِالتَّفَاضُلِ، وَبِالتَّالِي يُقِرُّ بِعُلُوِّ أَحَدِهِمَا عَلَى الآخَرِ".

نَظَرَ الجَمِيعُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيِّ لِيَرَوْا كَيْفَ تَرْجَمَ عَقْلُهُ هَذَا المَنْطِقَ البَلِيغَ. فَقَالَ بِهُدُوءٍ: "لَقَدْ عَلَّمَنَا هَذَا المِثَالُ أَنَّ أَقْصَرَ طَرِيقٍ لِحَلِّ مُعَادَلَةٍ مُزْدَحِمَةٍ هُوَ المُقَابَلَةُ. فَبَدَلًا مِنْ أَنْ نَتَعَامَلَ مَعَ كُلِّ جُزْءٍ عَلَى حِدَةٍ، عَلَيْنَا أَنْ نُقَابِلَ المُتَشَابِهَاتِ وَنَحْذِفَهَا، لِتَظْهَرَ لَنَا الفُرُوقُ الجَوْهَرِيَّةُ وَحْدَهَا. فَعِنْدَمَا نَحْذِفُ 'الأَعْمَى' مِنْ كَفَّةِ 'الأَعْمَى وَالبَصِيرِ'، وَنَحْذِفَ 'الأَعْمَى' مِنَ الكَفَّةِ الأُخْرَى، يَتَبَقَّى 'البَصِيرُ' وَحْدَهُ سَاطِعًا فِي جَمَالِهِ".

اخْتَتَمَ الإِمَامُ قَائِلًا: "هَذِهِ هِيَ الخُلَاصَةُ يَا أَبْنَائِي. إِنَّ المُقَابَلَةَ بِالأَضْدَادِ هِيَ خُوَارِزْمِيَّةُ الحَسْمِ. إِنَّهَا تَأْخُذُ المُعَادَلَةَ المُعَقَّدَةَ، وَتَخْتَزِلُهَا إِلَى أَبْسَطِ

صُوَرِهَا، فَتَجْعَلُ الحَقَّ بَصِيرًا، وَالنُّورَ وَاضِحًا، وَالحَيَاةَ ظَاهِرَةً، فَلَا يَبْقَى بَعْدَهَا إِلَّا الإِقْرَارُ وَالتَّسْلِيمُ".

"الأَدَاةُ الثَّانِيَةُ: المُقَابَلَةُ بِالعَاقِبَةِ (لِإِظْهَارِ قِيمَةِ الِاخْتِيَارِ)"

قَالَ الإِمَامُ: "لَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ يَسْتَخْدِمُ القُرْآنُ المُقَابَلَةَ بِالأَضْدَادِ لِيَحْسِمَ الفُرُوقَ بِوُضُوحٍ مُطْلَقٍ. وَلَكِنْ، هُنَاكَ أَدَاةٌ أُخْرَى أَكْثَرُ تَأْثِيرًا فِي تَحْرِيكِ القُلُوبِ وَتَوْجِيهِ الإِرَادَةِ. إِنَّهَا المُقَابَلَةُ بِالعَاقِبَةِ وَالجَزَاءِ".

"وَهِيَ لَا تُقَارِنُ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ مُبَاشَرَةً، بَلْ تَضَعُكَ أَمَامَ مُفْتَرَقِ طُرُقٍ، ثُمَّ تُرِيكَ بِوُضُوحٍ المَشْهَدَ النِّهَائِيَّ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَيْهِ كُلُّ طَرِيقٍ".

ثُمَّ تَلا الإِمَامُ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي تَصِفُ خُوَارِزْمِيَّةَ الحَيَاةِ الكُبْرَى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (اللَّيْل: ٥-١٠).

تَدَخَّلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيُّ عَلَى الفَوْرِ، فَقَدْ رَأَى فِيهَا صُورَةً لِمَا اكْتَشَفَهُ مِنْ قَبْلُ: "يَا سُبْحَانَ اللهِ! هَذِهِ هِيَ خُوَارِزْمِيَّةُ التَّفَرُّعِ الثُّنَائِيِّ بِأَكْمَلِ

صُوَرِهَا! إِنَّهَا لَا تَصِفُ طَرِيقًا وَاحِدًا، بَلْ تَصِفُ نِظَامًا كَامِلًا لِلِاخْتِيَارِ وَنَتَائِجِهِ".

"صَحِيحٌ!"، قَالَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ). "وَالأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ المُقَابَلَةَ هُنَا لَيْسَتْ بَيْنَ (العَطَاءِ) وَ (البُخْلِ) فَقَطْ، بَلْ بَيْنَ نَتِيجَتَيْنِ مُسْتَقْبَلِيَّتَيْنِ: (التَّيْسِيرُ لِلْيُسْرَى) وَ (التَّيْسِيرُ لِلْعُسْرَى). إِنَّهَا تَجْعَلُنَا نَحْكُمُ عَلَى أَفْعَالِنَا الحَاضِرَةِ بِعُيُونِ المُسْتَقْبَلِ!".

أَمَّا إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) فَقَدْ رَأَى فِيهَا حِكْمَةً تِجَارِيَّةً عَمِيقَةً، فَقَالَ: "هَذِهِ الآيَةُ تُعَلِّمُنَا أَنَّ الرِّبْحَ الحَقِيقِيَّ لَيْسَ فِيمَا نُمْسِكُهُ فِي أَيْدِينَا الآنَ، بَلْ فِي النَّتِيجَةِ النِّهَائِيَّةِ لِاسْتِثْمَارِنَا. فَمَنْ "أَعْطَى" اليَوْمَ، فَكَأَنَّهُ يَسْتَثْمِرُ فِي "اليُسْرِ" غَدًا. وَمَنْ "بَخِلَ"، فَإِنَّهُ يَشْتَرِي "العُسْرَ" لِنَفْسِهِ فِي المُسْتَقْبَلِ. إِنَّهَا صَفْقَةٌ طَوِيلَةُ الأَمَدِ!".

أَكْمَلَ الإِمَامُ مُوَضِّحًا أَنَّ هَذَا المَنْهَجَ يَصِلُ إِلَى ذُرْوَتِهِ فِي وَصْفِ المَصِيرِ النِّهَائِيِّ بِأَقْصَرِ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغِهَا:

﴿...فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشُّورَى: ٧).

"لَا تُوجَدُ مُقَارَنَةٌ أَكْثَرُ حَسْمًا مِنْ هَذِهِ. إِنَّهَا تَخْتَزِلُ كُلَّ قِصَصِ البَشَرِ وَأَعْمَالِهِمْ وَاخْتِيَارَاتِهِمْ فِي نَتِيجَتَيْنِ نِهَائِيَّتَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا. إِنَّ غَايَةَ هَذِهِ الأَدَاةِ هِيَ أَنْ تُظْهِرَ لَنَا القِيمَةَ الحَقِيقِيَّةَ لِاخْتِيَارَاتِنَا، فَنَرَى أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ نَخْطُوهَا اليَوْمَ،

هِيَ فِي الحَقِيقَةِ تَصْوِيتٌ عَلَى مَكَانِنَا غَدًا".

"الأَدَاةُ الثَّالِثَةُ: المُقَابَلَةُ بِضَرْبِ الأَمْثَالِ (لِتَقْرِيبِ المَعَانِي)"

قَالَ الإِمَامُ: "لَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ يَسْتَخْدِمُ القُرْآنُ المُقَابَلَةَ بِالأَضْدَادِ لِلْحَسْمِ، وَالمُقَابَلَةَ بِالعَاقِبَةِ لِلتَّوْجِيهِ. وَلَكِنْ، مَاذَا لَوْ كَانَتِ الفِكْرَةُ نَفْسُهَا مُجَرَّدَةً وَعَمِيقَةً، كَفِكْرَةِ 'أَثَرِ الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ'؟ كَيْفَ نَجْعَلُهَا مَلْمُوسَةً؟ هُنَا يَأْتِي دَوْرُ الأَدَاةِ الثَّالِثَةِ، وَهِيَ المُقَابَلَةُ بِضَرْبِ الأَمْثَالِ".

"وَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَشْبِيهٍ، بَلْ هِيَ خَلْقُ 'أُنْموذَجٍ مُصَغَّرٍ' لِلْفِكْرَةِ، قِصَّةٍ كَامِلَةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرَاهَا بِخَيَالِكَ وَتَلْمِسَهَا بِقَلْبِكَ".

ثُمَّ تَلا الإِمَامُ بِصَوْتٍ هَادِئٍ وَكَأَنَّهُ يَزْرَعُ بُسْتَانًا فِي قُلُوبِهِمْ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * ... وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إِبْرَاهِيم: ٢٤-٢٦).

تَنَهَّدَ إِسْمَاعِيلُ (التَّاجِرُ) وَقَالَ: "يَا اللهُ! إِنَّهَا صُورَةٌ لَنْ أَنْسَاهَا مَا حَيِيتُ! لَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ 'الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ' هِيَ مُجَرَّدُ شَيْءٍ لَطِيفٍ نَقُولُهُ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الآيَةَ

جَعَلَتْنِي أَرَاهَا كَشَجَرَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، لَهَا جُذُورٌ وَثِمَارٌ وَظِلٌّ. وَجَعَلَتْنِي أَخَافُ مِنَ 'الكَلِمَةِ الخَبِيثَةِ' كَأَنَّهَا نَبَاتٌ سَامٌّ وَمَقْطُوعٌ لَا أَصْلَ لَهُ. لَقَدْ أَصْبَحَتِ الأَفْكَارُ أَشْيَاءَ!".

"أَحْسَنْتَ يَا إِسْمَاعِيلُ، هَذِهِ هِيَ قُوَّةُ المَثَلِ"، قَالَ يَعْقُوبُ (المَنْطِقِيُّ). "وَالمَنْطِقُ هُنَا هُوَ 'البُرْهَانُ بِالنَّظِيرِ' (Analogy). فَهُوَ لَا يُثْبِتُ الفِكْرَةَ بِجَدَلٍ، بَلْ يَعْرِضُ عَلَيْكَ نِظَامًا مُشَابِهًا لَهَا تَعْرِفُهُ وَتُسَلِّمُ بِهِ (الشَّجَرَةُ)، ثُمَّ يَدْعُوكَ لِتَطْبِيقِ نَفْسِ القَوَانِينِ عَلَى النِّظَامِ الجَدِيدِ (الكَلِمَةُ). إِنَّهُ يَبْنِي جِسْرًا بَيْنَ المَعْلُومِ وَالمَجْهُولِ".

أَضَافَ الإِمَامُ: "وَأَحْيَانًا يَجْمَعُ القُرْآنُ بَيْنَ الأُسْلُوبَيْنِ، المُقَابَلَةِ بِالأَضْدَادِ وَضَرْبِ الأَمْثَالِ، فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ لِيَصِلَ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ البَيَانِ":

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا...﴾ (هُود: ٢٤).

هُنَا قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الخُوَارِزْمِيُّ وَكَأَنَّهُ يَرْبِطُ كُلَّ الخُيُوطِ مَعًا: "الآنَ أَرَى بِوُضُوحٍ كَيْفَ يُمْكِنُ لِهَذَا المَنْهَجِ أَنْ يُلْهِمَنَا فِي عِلْمِنَا. فَعِنْدَمَا نُوَاجِهُ مُعَادَلَةً صَعْبَةً وَمُجَرَّدَةً، فَإِنَّ أَفْضَلَ طَرِيقَةٍ لِفَهْمِهَا قَدْ تَكُونُ فِي 'ضَرْبِ مَثَلٍ لَهَا'. أَيْ أَنْ

نَبْنِيَ مَسْأَلَةً أَبْسَطَ وَأَصْغَرَ، تَسْرِي عَلَيْهَا نَفْسُ القَوَانِينِ. فَإِذَا حَلَلْنَا المَسْأَلَةَ الصَّغِيرَةَ (المَثَلَ)، اسْتَطَعْنَا أَنْ نَفْهَمَ الطَّرِيقَةَ لِحَلِّ المَسْأَلَةِ الكَبِيرَةِ (الأَصْلِ)".

اخْتَتَمَ الإِمَامُ قَائِلًا: "هَذِهِ هِيَ الخُلَاصَةُ يَا أَبْنَائِي. إِنَّ ضَرْبَ الأَمْثَالِ هُوَ أَدَاةٌ قُرْآنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، تُحَوِّلُ المَعَانِي المُجَرَّدَةَ إِلَى حَيَاةٍ تَنْبِضُ، وَتُعَلِّمُ العَالِمَ أَنَّ أَقْصَرَ طَرِيقٍ لِحَلِّ المُعَقَّدِ قَدْ يَكُونُ فِي بِنَاءِ أُنْموذَجٍ بَسِيطٍ لَهُ".

تَطْبِيقُ المَنْهَجِ: حَلُّ المُعَادَلَةِ المُزْدَحِمَةِ

قَالَ الإِمَامُ: "وَالآنَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، اسْتَخْدِمْ هَذَا المَنْهَجَ. قَابِلْ بَيْنَ المُتَشَابِهَاتِ فِي مُعَادَلَتِكَ لِتُبَسِّطَهَا".

أَخَذَ أَبُو عَبْدِ اللهِ اللَّوْحَ وَقَدْ أَدْرَكَ المَطْلُوبَ. قَالَ: "لَدَيْنَا المُعَادَلَةُ ٥ش + ١٠ = ٢ش + ٤٠. سَأَقُومُ بِمُقَابَلَةِ 'الأَشْيَاءِ' أَوَّلًا، ثُمَّ 'الأَعْدَادِ'".

1. مُقَابَلَةُ الأَشْيَاءِ: "لَدَيْنَا ٥ش فِي طَرَفٍ، وَ٢ش فِي الطَّرَفِ الآخَرِ. سَأَحْذِفُ القَدْرَ المُشْتَرَكَ الأَصْغَرَ وَهُوَ ٢ش مِنْ كِلَا الطَّرَفَيْنِ لِيَبْقَى المِيزَانُ مُتَّزِنًا".

٥ش - ٢ش + ١٠ = ٢ش - ٢ش + ٤٠

"فَتُصْبِحُ المُعَادَلَةُ أَبْسَطَ":

٣ش + ١٠ = ٤٠

2. مُقَابَلَةُ الأَعْدَادِ: "الآنَ لَدَيْنَا ١٠ فِي طَرَفٍ، وَ٤٠ فِي الطَّرَفِ الآخَرِ. سَأَحْذِفُ القَدْرَ المُشْتَرَكَ الأَصْغَرَ وَهُوَ ١٠ مِنْ كِلَا الطَّرَفَيْنِ".

٣ش + ١٠ - ١٠ = ٤٠ - ١٠

"فَتَصِلُ المُعَادَلَةُ إِلَى صُورَتِهَا الجَوْهَرِيَّةِ":

٣ش = ٣٠

"وَالآنَ بِخُوَارِزْمِيَّةِ القِسْمَةِ البَسِيطَةِ، نَعْرِفُ أَنَّ ش = ١٠".

مِنَ الأَدَوَاتِ إِلَى النُّورِ: عُبُورٌ مِنَ العَدَدِ إِلَى البَصِيرَةِ

اخْتَتَمَ الإِمَامُ الدَّرْسَ قَائِلًا: "هَكَذَا اكْتَمَلَتْ لَدَيْكُمُ الأَدَوَاتُ الثَّلَاثُ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ. بِالمِيزَانِ تُصَوِّرُ المُشْكِلَةَ. وَبِالجَبْرِ تُصْلِحُ نَقْصَهَا. وَبِالمُقَابَلَةِ تُبَسِّطُ تَعْقِيدَهَا. وَبِهَذِهِ الأَدَوَاتِ الثَّلَاثِ، لَا تُوجَدُ مُعَادَلَةٌ إِلَّا وَيُمْكِنُ بِإِذْنِ اللهِ حَلُّهَا".

هَكَذَا بَلَغْنَا مَعَ أَبِي عَبْدِ اللهِ قِمَّةَ الرِّحْلَةِ.

فَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو عَبْدِ اللهِ يَمْلِكُ الأَدَوَاتَ (الحِسَابَ)، وَفَهِمَ أَرْكَانَ البِنَاءِ (الخُوَارِزْمِيَّةَ)، وَأَدْرَكَ أُصُولَ المِعْمَارِ (خَصَائِصَ النِّظَامِ).

وَلَكِنْ، كَمَا أَنَّ الجَبَلَ وَإِنْ بَلَغْتَ قِمَّتَهُ لَا يُظْهِرُ لَكَ الأُفُقَ كُلَّهُ، كَذَلِكَ العِلْمُ وَإِنْ أَحْكَمْتَ أَدَوَاتِهِ لَا يُبْصِرُ كُلَّ الحَقِيقَةِ.

هُنَاكَ "سِرٌّ أَعْظَمُ" يَنْتَظِرُكَ، هُوَ النُّورُ الَّذِي يُحَرِّكُ كُلَّ هَذِهِ الأَدَوَاتِ، وَيَنْفُخُ فِيهَا الرُّوحَ، فَتَصِيرُ حِسَابًا ذَا بَصِيرَةٍ، وَمَعَادَلَةً ذَاتَ مَعْنًى، وَعِلْمًا يَهْدِي إِلَى الحَقِّ.

هُنَا، وَحِينَ يَسْكُتُ العَدَدُ وَيَنْطِقُ النُّورُ، يَدْخُلُ أَبُو عَبْدِ اللهِ إِلَى المِحْوَرِ الثَّالِثِ: قُدْسِ أَقْدَاسِ الرِّوَايَةِ، حَيْثُ تَكْشِفُ المَعَادَلَاتُ عَنْ سِرِّ القُرْآنِ وَبَيَانِهِ.

الخَاتِمَةُ: حِينَ يَنْطِقُ الخُوَارِزْمِيُّ فِي زَمَانِنَا؟

سَكَتَ الإِمَامُ وَطَوَى صَفْحَةَ الدَّرْسِ كَمَنْ يُطْفِئُ مِصْبَاحًا بَعْدَ أَنْ أَدَّى رِسَالَتَهُ وَظَلَّ أَبُو عَبْدِ اللهِ يُحَدِّقُ فِي اللَّوْحِ الَّذِي ازْدَحَمَتْ عَلَيْهِ المُعَادَلَاتُ

وَالخُوَارِزْمِيَّاتُ ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ كَمَنْ يَسْمَعُ هَمْسًا يَتَدَفَّقُ مِنْ زَمَنٍ آخَرَ.

وَكَأَنَّهُ يَرَى الطُّرُقَ الَّتِي فُتِحَتِ اليَوْمَ لَا تَنْقَطِعُ عِنْدَ بَغْدَادَ وَلَا تَقِفُ عِنْدَ أَلْوَاحِ الطَّلَبَةِ بَلْ تَعْبُرُ البِحَارَ وَالقَارَّاتِ وَتُشْعِلُ عُقُولًا تُولَدُ بَعْدَ قُرُونٍ وَكَأَنَّهُ يَسْمَعُ خَشْخَشَةَ الأَقْلَامِ فِي مَعَاهِدِ العِلْمِ وَهَدِيرَ المَخَابِرِ الرَّقْمِيَّةِ وَرَنَّةَ الأَقْمَارِ فِي سَمَاءِ عَصْرِنَا.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا نَحْنُ الَّذِينَ نَقْرَأُ رِوَايَتَهُ اليَوْمَ وَقَالَ

«يَا بَنِيَّ وَبَنَاتِي قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ العِلْمَ لَا يَقُومُ بِالأَدَوَاتِ وَالخُوَارِزْمِيَّاتِ وَحْدَهَا بَلْ بِالنُّورِ الَّذِي يُحَرِّكُهَا فَأَمَامَكُمُ العَالَمُ مُعَادَلَةٌ كُبْرَى تَطْلُبُ مَنْ يَكْشِفُ مَجَاهِيلَهَا وَيَرْبِطُ أَرْقَامَهَا بِالمَعْنَى وَالحَقِّ فَلَا تَكُونُوا أَسْرَى آلَاتٍ تَحْسِبُ بَلْ كُونُوا أَحْرَارًا بِنُورٍ يُبْصِرُ وَيَهْدِي».

وَقَالَ

«لَا تَنْخَدِعُوا بِأَبْرَاجِ التِّقَانَةِ فَإِنْ خَلَتْ مِنْ مِيزَانٍ وَبَيَانٍ صَارَتْ أَبْرَاجًا عَاجِيَّةً تُشَاهِدُ الدُّنْيَا وَلَا تَمَسُّهَا وَلَا تَكْتَفُوا بِحِسَابٍ صَامِتٍ فَإِنَّ الحِسَابَ إِذَا لَمْ يَسْمَعْ نِدَاءَ القُرْآنِ صَارَ سِلَاحًا يَهْدِمُ وَلَا يَبْنِي».

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى شَبَابِ الأُمَّةِ وَقَالَ

«أَنْتُمْ جِيلُ الغَدِ تَنْظُرُ أَعْيُنُكُمْ إِلَى شَاشَاتٍ تُضِيءُ وَيَنْبَغِي لِقُلُوبِكُمْ أَنْ تُشْعِلَ النُّورَ الحَقِيقِيَّ فَأَحْيُوا مَنْطِقَ البَيَانِ فِي دِرَاسَاتِكُمْ وَبُحُوثِكُمْ وَاخْتِرَاعَاتِكُمْ وَاجْعَلُوا العِلْمَ عَدْلًا يُقِيمُ الحَيَاةَ وَحِكْمَةً تَهْدِي وَرَحْمَةً تُنْقِذُ الإِنْسَانَ وَالأَرْضَ».

ثُمَّ سَكَتَ الخُوَارِزْمِيُّ وَأَطْبَقَ جَفْنَيْهِ كَمَنْ يُسَلِّمُ الرَّايَةَ لِمَنْ يَأْتِي وَتَرَاجَعَتِ الأَصْوَاتُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَدَى آيَةٍ تَمْلَأُ الأُفُقَ:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (النُّور: ٣٥).

هُنَاكَ عَلِمْنَا أَنَّ القِصَّةَ لَمْ تَنْقَطِعْ بَلِ ابْتَدَأَتْ مَرَّةً أُخْرَى فِي زَمَانِنَا فَلْيَنْطِقِ الخُوَارِزْمِيُّ بِلِسَانِنَا وَلْنَسْتَنْطِقِ العَدَدَ بِالبَيَانِ وَالنُّورِ.

الْمَلَاحِقُ

لَمْ تَكُنْ رِوَايَةُ «**ٱلْبَيَانُ ٱبْنُ ٱلْقُرْآنِ**» مُجَرَّدَ حِكايَةٍ تُرْوَى، بَلْ رِحْلَةً تَفْتَحُ الأَبْوَابَ لِعَالَمٍ أَعْمَقَ. فَالمَشَاهِدُ وَالحِوَارَاتُ الَّتِي قَرَأْتَهَا إِنَّمَا هِيَ مَفَاتِيحُ لِأُفُقٍ أَوْسَعَ؛ وَالمَلَاحِقُ هُنَا هِيَ الخَرَائِطُ الَّتِي تَكْمُلُ هَذِهِ الرِّحْلَةَ.

إِذْ لَعَلَّ القَارِئَ ـ خَاصَّةً مِنْ جِيلِ الشَّبَابِ ـ يَسْأَلُ بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ أَوْرَاقَ الرِّوَايَةِ:

- كَيْفَ نُحَوِّلُ الأُصُولَ الَّتِي تَعَلَّمَهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ إِلَى أَدَوَاتٍ عَمَلِيَّةٍ؟
- مَا الحَقَائِقُ التَّارِيخِيَّةُ وَالعِلْمِيَّةُ الَّتِي تَكْمُنُ خَلْفَ المَشَاهِدِ وَالأَحْدَاثِ؟
- كَيْفَ نَرْبِطُ بَيْنَ المَنْطِقِ القُرْآنِيِّ وَحَاجَاتِنَا فِي العَصْرِ الرَّقْمِيِّ؟

المَلَاحِقُ الَّتِي تَتْبَعُ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ لَيْسَتْ تَفْسِيرًا حَرْفِيًّا لِلرِّوَايَةِ، بَلْ

هِيَ "مَعَابِرُ جَانِبِيَّةٌ" يَدْخُلُ القَارِئُ مِنْهَا إِلَى بُعْدٍ آخَرَ، فَيَرَى مَا وَرَاءَ السَّرْدِ، وَيَفْهَمُ أَكْثَرَ عَنْ:

- أُصُولِ العَقْلِ الخُوَارِزْمِيِّ.
- مَعَانِي المِيزَانِ وَالجَبْرِ وَالمُقَابَلَةِ.
- الِامْتِدَادِ التَّارِيخِيِّ لِلْحِسَابِ وَالخُوَارِزْمِيَّاتِ.
- وَالرِّسَالَةِ القُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ العِلْمَ بَصِيرَةً وَهُدًى.

إِنَّهَا مَسَارِبُ نُورٍ، تُفَصِّلُ مَا اجْتَمَعَ، وَتُبَيِّنُ مَا أُجْمِلَ، وَتَرْبِطُ مَا بَدَا أَدَبًا وَمَجَازًا بِأُصُولٍ وَقَوَاعِدَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَرَاجِعَ لِلبَاحِثِينَ وَالطُّلَّابِ.

فَاقْرَؤُوهَا كَمَنْ يَسِيرُ فِي مَمَرٍّ جَانِبِيٍّ يُفْضِي إِلَى بَاحَةٍ أَعْمَقَ مِنَ الحَدِيثِ الأَصْلِيِّ، وَلَا تَنْسَوْا أَنَّ نُورَ المَنْطِقِ القُرْآنِيِّ يَبْقَى مِحْوَرَ الرِّحْلَةِ وَهُوَ المِفْتَاحُ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ كُلِّ هَذِهِ الطُّرُقِ.

المُلْحَقُ الأَوَّلُ: الْأَدِلَّةُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى ثَوْرَةِ الْحِسَابِ

١- الْحِسَابُ كَقَانُونٍ كَوْنِيٍّ

قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (التَّوْبَةُ: ٣٦).

فِي هٰذِهِ الْآيَةِ يَرْبِطُ الْقُرْآنُ بَيْنَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالنِّظَامِ الزَّمَنِيِّ الْمَحْسُوبِ، فَيَجْعَلُ الْحِسَابَ مَبْدَأً أَزَلِيًّا مُقْتَرِنًا بِالْخَلْقِ. هٰذَا يُؤَسِّسُ فِي الْعَقْلِ الْإِسْلَامِيِّ فِكْرَةَ أَنَّ كُلَّ وَاقِعٍ كَوْنِيٍّ مَحْسُوبٌ وَمُقَدَّرٌ.

٢- الْحِسَابُ كَمِيزَانٍ لِلْعَدْلِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الْأَنْبِيَاءُ: ٤٧).

الْحِسَابُ هُنَا أَدَاةُ قِسْطٍ وَمِيزَانِ عَدْلٍ يَتَعَدَّى الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ. إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْحِسَابَ الْبَشَرِيَّ فِي الْمُعَامَلَاتِ هُوَ صُورَةٌ مُصَغَّرَةٌ مِنَ الْحِسَابِ الإِلَهِيِّ الْأَعْظَمِ.

٣- الْحِسَابُ كَمَنْهَجٍ فِي التَّكْلِيفِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزَّلْزَلَةُ: ٧-٨).

تُقَرِّرُ الْآيَةُ مَبْدَأَ الدِّقَّةِ الْمَطْلَقَةِ فِي الْحِسَابِ، حَتَّى فِي مِقْدَارِ الذَّرَّةِ. هُنَا يَنْتَقِلُ الْحِسَابُ مِنْ مَجَالِ الْكَوْنِ وَالزَّمَنِ إِلَى مَجَالِ الْأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ.

٤- الْحِسَابُ كَأُفُقٍ مَعْرِفِيٍّ

قَالَ تَعَالَى:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٥).

يَجْعَلُ الْقُرْآنُ مِنْ حَرَكَةِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ دَلِيلًا عَلَى نِظَامٍ مَحْسُوبٍ دَقِيقٍ. هٰذَا يَفْتَحُ بَابَ التَّفَكُّرِ فِي الْفَلَكِ وَالْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ عَلَى أَسَاسٍ حِسَابِيٍّ.

٥- الْحِسَابُ كَكِتَابٍ إِلَهِيٍّ

قَالَ تَعَالَى:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (النَّبَأُ: ٢٩).

الْحِسَابُ يَتَحَوَّلُ إِلَى "كِتَابٍ" مَكْتُوبٍ فِي الْعِلْمِ الإِلَهِيِّ، لَا يَفُوتُهُ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ. هٰذَا يَجْعَلُ الْإِحْصَاءَ نُطْقَةً لِلْمَعْرِفَةِ وَمَفْتَاحًا لِلْإِبْتِكَارِ الْعِلْمِيِّ.

الْخَاتِمَةُ التَّمْهِيدِيَّةُ

مِنْ مَجْمُوعِ هٰذِهِ الْآيَاتِ يَتَكَوَّنُ فِي الْعَقْلِ الْإِسْلَامِيِّ مَنْطِقٌ جَدِيدٌ:

- يَجْعَلُ الْحِسَابَ أَصْلًا فِي الْخَلْقِ.
- وَمِيزَانًا فِي الْعَدْلِ.

- وَمِنْهَجًا فِي التَّكْلِيفِ.
- وَبَابًا لِلْعِلْمِ وَالِاسْتِكْشَافِ.

فَتَكُونُ "ثَوْرَةُ الْحِسَابِ" فِي الْحَقِيقَةِ ثَوْرَةً قُرْآنِيَّةً غَيَّرَتْ مَسَارَ الْعِلْمِ وَالتَّارِيخِ، وَهِيَ الَّتِي أَلْهَمَتْ الْخُوَارِزْمِيَّ وَأَنْجَبَتْ عُلُومَ الْجَبْرِ وَالْخُوَارِزْمِيَّاتِ وَأُسُسَ الْمَنْطِقِ الْحَاسُوبِيِّ الْحَدِيثِ.

الْمُلْحَقُ الثَّانِيُ: الخُوَارِزْمِيَّاتِ التَّسَلْسُلِيَّةِ

إِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كِتَابَ عُلُومٍ، فَهُوَ كِتَابٌ يُؤَسِّسُ لِـ"طَرِيقَةِ تَفْكِيرٍ" مَنْطِقِيَّةٍ وَمُنَظَّمَةٍ. وَأَحَدُ أَهَمِّ مَلَامِحِهَا هُوَ وَصْفُ العَمَلِيَّاتِ المُهِمَّةِ فِي الوُجُودِ كَسَلَاسِلَ مُتَتَابِعَةٍ مِنَ الأَحْدَاثِ.

إِلَيْكَ جَدْوَلًا يَجْمَعُ أَبْرَزَ عَمَلِيَّاتِ الحِسَابِ (الخُوَارِزْمِيَّاتِ) التَّسَلْسُلِيَّةِ المَذْكُورَةِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، مُقَسَّمَةً حَسَبَ المَجَالِ:

جَدْوَلُ الخُوَارِزْمِيَّاتِ التَّسَلْسُلِيَّةِ فِي البَيَانِ القُرْآنِيِّ

المَجَالُ	الخُوَارِزْمِيَّةُ التَّسَلْسُلِيَّةُ	مَرَاحِلُ التَّسَلْسُلِ (بِشَكْلٍ مُبَسَّطٍ)	الآيَةُ أَوِ السُّورَةُ المَرْجِعِيَّةُ

خَلْقُ الكَوْنِ وَالطَّبِيعَةِ	خُوَارِزْمِيَّةُ خَلْقِ الإِنْسَانِ	١. نُطْفَةٌ ⇦ ٢. عَلَقَةٌ ⇦ ٣. مُضْغَةٌ ⇦ ٤. عِظَامٌ ⇦ ٥. كَسْوُ العِظَامِ لَحْمًا.	سُورَةُ المُؤْمِنُونَ: ١٢-١٤
	خُوَارِزْمِيَّةُ دَوْرَةِ المَطَرِ وَالحَيَاةِ	١. إِرْسَالُ الرِّيَاحِ ⇦ ٢. حَمْلُ السَّحَابِ ⇦ ٣. إِنْزَالُ المَاءِ ⇦ ٤. إِخْرَاجُ الثَّمَرَاتِ.	سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٥٧
	خُوَارِزْمِيَّةُ نُمُوِّ الزَّرْعِ	١. إِنْزَالُ المَاءِ ⇦ ٢. اهْتِزَازُ الأَرْضِ وَنُمُوُّهَا ⇦ ٣. إِنْبَاتُ الزَّرْعِ.	سُورَةُ الحَجِّ: ٥
العِبَادَاتُ وَالتَّشْرِيعُ	خُوَارِزْمِيَّةُ الوُضُوءِ	١. غَسْلُ الوَجْهِ ⇦ ٢. غَسْلُ اليَدَيْنِ ⇦ ٣. مَسْحُ الرَّأْسِ ⇦ ٤. غَسْلُ الأَرْجُلِ.	سُورَةُ المَائِدَةِ: ٦

	خُوَارِزْمِيَّةُ الحَجِّ	١. الإِحْرَامُ ⇦ ٢. الطَّوَافُ ⇦ ٣. السَّعْيُ ⇦ ٤. الوُقُوفُ بِعَرَفَةَ... (وَهَكَذَا).	سُورَةُ البَقَرَةِ وَالحَجِّ (مُجْمَلًا)
	خُوَارِزْمِيَّةُ تَقْسِيمِ المِيرَاثِ	١. تَجْهِيزُ المَيِّتِ ⇦ ٢. قَضَاءُ الدُّيُونِ ⇦ ٣. تَنْفِيذُ الوَصِيَّةِ ⇦ ٤. تَوْزِيعُ البَاقِي.	سُورَةُ النِّسَاءِ (مُجْمَلًا)
التَّارِيخُ وَالقَصَصُ	خُوَارِزْمِيَّةُ دَعْوَةِ مُوسَى	١. إِرْسَالُ مُوسَى ⇦ ٢. الذَّهَابُ إِلَى فِرْعَوْنَ ⇦ ٣. عَرْضُ الآيَاتِ ⇦ ٤. تَحَدِّي السَّحَرَةِ...	سُوَرٌ مُتَعَدِّدَةٌ (طَه، الأَعْرَاف...)
	خُوَارِزْمِيَّةُ هَلَاكِ الأُمَمِ الظَّالِمَةِ	١. إِرْسَالُ الرَّسُولِ ⇦ ٢. تَكْذِيبُ القَوْمِ ⇦ ٣. وُقُوعُ العُقُوبَةِ.	سُوَرٌ مُتَعَدِّدَةٌ (هُود، الشَّمْس...)

أَحْدَاثُ الآخِرَةِ	خُوَارِزْمِيَّةُ يَوْمِ القِيَامَةِ	١. النَّفْخُ فِي الصُّورِ ⇦ ٢. البَعْثُ ⇦ ٣. الحَشْرُ ⇦ ٤. الحِسَابُ ⇦ ٥. المِيزَانُ...	سُوَرٌ مُتَعَدِّدَةٌ (الزُّمَر، القَارِعَة...)

خُلَاصَةٌ وَتَحْلِيلٌ:

يَقُولُ الإِمَامُ بَعْدَ عَرْضِ هَذَا الجَدْوَلِ:

"أُنْظُرُوا بِأَعْيُنِكُمْ يَا أَبْنَائِي! إِنَّ مَنْطِقَ التَّسَلْسُلِ لَيْسَ مُجَرَّدَ قَاعِدَةٍ فِي الحِسَابِ، بَلْ هُوَ نَامُوسٌ إِلَهِيٌّ يَحْكُمُ كُلَّ شَيْءٍ. فَهُوَ يَحْكُمُ:

- **عَالَمَ الأَحْيَاءِ:** فِي خَلْقِ الإِنْسَانِ وَالنَّبَاتِ.
- **عَالَمَ التَّشْرِيعِ:** فِي تَرْتِيبِ العِبَادَاتِ وَالحُقُوقِ.
- **عَالَمَ التَّارِيخِ:** فِي قِيَامِ الأُمَمِ وَسُقُوطِهَا.
- **عَالَمَ الغَيْبِ:** فِي أَحْدَاثِ يَوْمِ القِيَامَةِ.

فَعِنْدَمَا تَضَعُ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ خُوَارِزْمِيَّةً تَسَلْسُلِيَّةً لِحَلِّ مَسْأَلَةٍ، فَأَنْتَ فِي الحَقِيقَةِ

تَعْكِسُ ظِلًّا مِنْ ظِلَالِ هَذَا النِّظَامِ الإِلَهِيِّ العَظِيمِ".

وَيَدُلُّ البَحْثِ وَالتَّفْكِيرِ فِي الآيَاتِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى هَذِهِ الخُوَارِزْمِيَّاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي ذَكَرْتَهَا أَنَّهَا لَا تُذْكَرُ عَادَةً فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَّصِلَةٍ، بَلْ تُبْنَى مَرَاحِلُهَا عَبْرَ آيَاتٍ وَسِيَاقَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي القُرْآنِ، لِتُشَكِّلَ نِظَامًا مُتَكَامِلًا.

إِلَيْكَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ خُوَارِزْمِيَّةٍ مَعَ الآيَاتِ المَرْجِعِيَّةِ لِكُلِّ مَرْحَلَةٍ:

١. خُوَارِزْمِيَّةُ اكْتِمَالِ الإِيمَانِ

تَصِفُ هَذِهِ الخُوَارِزْمِيَّةُ رِحْلَةَ الهِدَايَةِ مِنْ بِدَايَتِهَا حَتَّى رُسُوخِهَا.

المَرْحَلَةُ	الوَصْفُ	الآيَةُ المَرْجِعِيَّةُ
١. السَّمْعُ	هِيَ نُقْطَةُ البِدَايَةِ، حَيْثُ تَتَلَقَّى الأُذُنُ الرِّسَالَةَ وَيُفْتَحُ بَابُ الهِدَايَةِ.	﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (المُلْك: ١٠)

٢. التَّفَكُّرُ	بَعْدَ السَّمْعِ، يَأْتِي دَوْرُ العَقْلِ فِي تَدَبُّرِ الآيَاتِ المَسْمُوعَةِ وَالمَنْظُورَةِ.	﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠-١٩١)
٣. الإِقْرَارُ (الإِيمَانُ)	بَعْدَ التَّفَكُّرِ وَالِاقْتِنَاعِ، تَأْتِي لَحْظَةُ الإِقْرَارِ القَلْبِيِّ وَالتَّسْلِيمِ.	﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...﴾ (البَقَرَة: ٢٨٥)
٤. العَمَلُ	الإِيمَانُ الحَقِيقِيُّ لَا يَبْقَى فِي القَلْبِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُتَرْجَمَ إِلَى عَمَلٍ صَالِحٍ.	﴿...إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التِّين: ٦) - (وَقَدْ قُرِنَ الإِيمَانُ بِالعَمَلِ فِي مِئَاتِ المَوَاضِعِ).
٥. الِازْدِيَادُ	الإِيمَانُ لَيْسَ حَالَةً ثَابِتَةً، بَلْ هُوَ كَائِنٌ	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ

	حَيٌّ يَزْدَادُ وَيَنْمُو بِالطَّاعَةِ وَالتَّدَبُّرِ.	﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأَنْفَال: ٢)

٢. خُوَارِزْمِيَّةُ تَكْوِينِ الأُسْرَةِ

هَذِهِ الخُوَارِزْمِيَّةُ تَصِفُ المَرَاحِلَ المَنْطِقِيَّةَ وَالشَّرْعِيَّةَ لِبِنَاءِ أَهَمِّ مُؤَسَّسَةٍ فِي المُجْتَمَعِ.

المَرْحَلَةُ	الوَصْفُ	الآيَةُ المَرْجِعِيَّةُ
١. الخِطْبَةُ وَالتَّرَاضِي	هِيَ مَرْحَلَةُ التَّعَارُفِ وَالاِتِّفَاقِ الأَوَّلِيِّ، وَهِيَ تَمْهِيدٌ لِلْعَقْدِ.	﴿...وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ...﴾ (البَقَرَة: ٢٣٥) - (وَالتَّرَاضِي كَمَا فِي ﴿...إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...﴾ (النِّسَاء: ٢٩)، وَالزَّوَاجُ أَعْظَمُ تِجَارَةٍ).
٢. العَقْدُ وَالمِيثَاقُ	هُوَ تَحْوِيلُ التَّرَاضِي إِلَى عَقْدٍ شَرْعِيٍّ مُلْزِمٍ وَمِيثَاقٍ غَلِيظٍ.	﴿...وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النِّسَاء: ٢١)

٣. البِنَاءُ وَالسَّكَنُ	بَعْدَ العَقْدِ، تَأْتِي غَايَةُ الزَّوَاجِ الأُولَى وَهِيَ السَّكَنُ النَّفْسِيُّ وَالجَسَدِيُّ.	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ (الرُّوم: ٢١)
٤. الإِنْجَابُ (الذُّرِّيَّةُ)	هِيَ الثَّمَرَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلأُسْرَةِ، وَاسْتِمْرَارٌ لِلنَّوْعِ البَشَرِيِّ.	﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (الكَهْف: ٤٦) - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً...﴾ (النَّحْل: ٧٢)
٥. التَّرْبِيَةُ وَالقِوَامَةُ	المَسْؤُولِيَّةُ الأَعْظَمُ بَعْدَ الإِنْجَابِ، وَهِيَ تَرْبِيَةُ الأَبْنَاءِ وَحِمَايَتُهُمْ.	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...﴾ (التَّحْرِيم: ٦) - ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾ (النِّسَاء: ٣٤) - (وَالقِوَامَةُ تَشْمَلُ الرِّعَايَةَ وَالتَّرْبِيَةَ).

٣. خُوَارِزْمِيَّةُ النَّصْرِ

تَصِفُ هَذِهِ الخُوَارِزْمِيَّةُ السُّنَنَ الإِلَهِيَّةَ لِتَحْقِيقِ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، وَهِيَ لَيْسَتْ وَصْفَةً سِحْرِيَّةً بَلْ مَنْهَجُ عَمَلٍ.

المَرْحَلَةُ	الوَصْفُ	الآيَةُ المَرْجِعِيَّةُ
١. الإِيمَانُ	هُوَ نُقْطَةُ الِانْطِلَاقِ، وَالشَّرْطُ الأَسَاسِيُّ الَّذِي لَا يَتِمُّ النَّصْرُ الحَقِيقِيُّ إِلَّا بِهِ.	﴿...وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الرُّوم: ٤٧)
٢. الإِعْدَادُ	الإِيمَانُ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُقْرَنَ بِالأَخْذِ بِالأَسْبَابِ المَادِّيَّةِ وَإِعْدَادِ القُوَّةِ المُمْكِنَةِ.	﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ (الأَنْفَال: ٦٠)
٣. الصَّبْرُ وَالثَّبَاتُ	عِنْدَ لِقَاءِ التَّحَدِّيَاتِ، تَأْتِي مَرْحَلَةُ الصَّبْرِ وَعَدَمِ التَّرَاجُعِ، فَهِيَ مِفْتَاحُ الفَرَجِ.	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأَنْفَال:

		٤٥) - ﴿...كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البَقَرَة: ٢٤٩)
٤. التَّوَكُّلُ	بَعْدَ إِعْدَادِ كُلِّ شَيْءٍ، تَأْتِي الخُطْوَةُ القَلْبِيَّةُ الأَهَمُّ، وَهِيَ تَفْوِيضُ الأَمْرِ كُلِّهِ للهِ وَالاِعْتِمَادُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ.	﴿...فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩)
٥. النَّصْرُ	عِنْدَمَا تَتَحَقَّقُ الشُّرُوطُ السَّابِقَةُ، يَأْتِي النَّصْرُ كَنَتِيجَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ وَسُنَّةٍ إِلَهِيَّةٍ.	﴿...إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (مُحَمَّد: ٧)

الْمُلْحَقُ الثَّالِثُ: خُوَارِزْمِيَّاتُ الشَّرْطِ وَالتَّفَرُّعِ

أَدَوَاتُ الشَّرْطِ وَالتَّفَرُّعِ (مِثْلُ: إِنْ، لَوْ، إِذَا، مَنْ، مَهْمَا، فَأَمَّا...) هِيَ مِنْ أَرْكَانِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَأُسْلُوبِ البَيَانِ القُرْآنِيِّ، وَهِيَ تَرِدُ فِي القُرْآنِ مِئَاتِ المَرَّاتِ بِصُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ. فَوَضْعُ جَدْوَلٍ "كَامِلٍ" بِهَا قَدْ يَسْتَغْرِقُ مُجَلَّدَاتٍ.

وَلَكِنْ، وَكَمَا عَلَّمَ الإِمَامُ أَبَا عَبْدِ اللهِ، "العِبْرَةُ لَيْسَتْ فِي حَصْرِ الجُزْئِيَّاتِ، بَلْ فِي فَهْمِ القَوَاعِدِ الكُلِّيَّةِ".

لِذَلِكَ، سَأُقَدِّمُ لَكَ جَدْوَلًا يَحْتَوِي عَلَى أَبْرَزِ وَأَوْضَحِ الأَمْثِلَةِ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الخُوَارِزْمِيَّاتِ الشَّرْطِيَّةِ وَالتَّفْرِيعِيَّةِ فِي القُرْآنِ. هَذَا الجَدْوَلُ بِمَثَابَةِ "مَفَاتِيحَ أَصْلِيَّةٍ"، إِذَا فَهِمْتَهَا، سَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَخْرِجَ بِنَفْسِكَ عَشَرَاتِ الأَمْثِلَةِ الأُخْرَى أَثْنَاءَ قِرَاءَتِكَ.

جَدْوَلُ الأَنْوَاعِ الرَّئِيسِيَّةِ لِخُوَارِزْمِيَّاتِ الشَّرْطِ وَالتَّفَرُّعِ فِي القُرْآنِ

الأَدَاةُ الشَّرْطِيَّةُ	الآيَةُ الكَرِيمَةُ (مِثَالٌ)	الشَّرْطُ (الفِعْلُ)	الجَوَابُ (النَّتِيجَةُ)	النَّوْعُ الخُوَارِزْمِيُّ
إِنْ (تَدُلُّ عَلَى الِاحْتِمَالِ)	﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (مُحَمَّد: ٧)	نُصْرَةُ اللهِ	نَصْرُ اللهِ وَتَثْبِيتُ الأَقْدَامِ	شَرْطٌ وَجَزَاءٌ مُبَاشِرٌ (…If… Then)
إِذَا (تَدُلُّ عَلَى أَمْرٍ مُتَحَقِّقٍ)	﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ	مَجِيءُ النَّصْرِ وَدُخُولُ النَّاسِ فِي الدِّينِ	الأَمْرُ بِالتَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ	شَرْطٌ وَأَمْرٌ تَنْفِيذِيٌّ (…Do When)

	﴿وَاسْتَغْفِرْهُ...﴾ (النَّصْر: ١-٣)			
لَوْ (تَدُلُّ عَلَى الِامْتِنَاعِ)	﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...﴾ (الأَنْبِيَاء: ٢٢)	وُجُودُ آلِهَةٍ أُخْرَى مَعَ اللهِ	فَسَادُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ	بُرْهَانٌ شَرْطِيٌّ بِافْتِرَاضِ المُحَالِ Proof by) (Contradiction
مَنْ (تَرْبِطُ فَاعِلًا بِنَتِيجَةٍ)	﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزَّلْزَلَة: ٧-٨)	القِيَامُ بِعَمَلٍ (خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ)	رُؤْيَةُ جَزَاءِ ذَلِكَ العَمَلِ	خُوَارِزْمِيَّةُ الجَزَاءِ الدَّقِيقَةُ Whoever) (…does… gets

فَأَمَّا... وَأَمَّا (تُقَسِّمُ النَّاسَ إِلَى مَسَارَيْنِ)	﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (القَارِعَة: ٦-٩)	ثِقَلُ المَوَازِينِ أَو خِفَّتُهَا	الدُّخُولُ فِي مَسَارِ النَّعِيمِ أَو مَسَارِ الجَحِيمِ	خُوَارِزْمِيَّةُ التَّفَرُّعِ الثُّنَائِيِّ الكَامِلَةُ If… Then…) (…Else

خُلَاصَةٌ وَتَحْلِيلٌ:

يَقُولُ الإِمَامُ لِتَلَامِيذِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنٍ فَاحِصَةٍ:

"هَذَا الجَدْوَلُ يَا أَبْنَائِي لَيْسَ إِلَّا مِفْتَاحًا لِخَزَائِنَ لَا تَنْفَدُ. فَأَدَوَاتُ الشَّرْطِ الصَّرِيحَةِ - كَ 'إِنْ' وَ 'لَوْ' وَ 'مَنْ' - تَرِدُ فِي كِتَابِ اللهِ مِئَاتِ المَرَّاتِ. وَلَكِنَّ الأَمْرَ أَعْمَقُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ. فَإِذَا تَأَمَّلْتُمْ بِقُلُوبِكُمْ وَعُقُولِكُمْ، سَتَجِدُونَ أَنَّ "المَنْطِقَ الشَّرْطِيَّ" نَفْسَهُ - وَهُوَ قَانُونُ السَّبَبِ وَالنَّتِيجَةِ، وَالفِعْلِ وَالجَزَاءِ - هُوَ النَّسِيجُ الخَفِيُّ الَّذِي تُرْقَمُ بِهِ آيَاتٌ لَا تُحْصَى. إِنَّهُ الرُّوحُ الَّتِي تَسْرِي فِي وَصْفِ السُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ، وَقَصَصِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَأَحْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ.

فَبِهَذِهِ الأَدَوَاتِ البَلِيغَةِ، بَنَى القُرْآنُ الكَرِيمُ مَنْظُومَتَهُ المَنْطِقِيَّةَ العَظِيمَةَ الَّتِي تُرَبِّي العَقْلَ عَلَى فَهْمِ العَلَاقَةِ الحَتْمِيَّةِ بَيْنَ المُقَدِّمَاتِ وَالنَّتَائِجِ، وَبَيْنَ الأَعْمَالِ وَالجَزَاءِ. فَالعِبْرَةُ لَيْسَتْ فَقَطْ فِي عَدَدِ الأَدَوَاتِ، بَلْ فِي إِدْرَاكِ أَنَّ القُرْآنَ يُؤَسِّسُ لِعَقْلٍ يَعِيشُ وَيُفَكِّرُ بِمَنْطِقِ "الشَّرْطِ وَالجَزَاءِ" فِي كُلِّ شُؤُونِهِ.

وَلِهَذَا"، قَالَ الإِمَامُ وَهُوَ يَلْتَفِتُ مُبَاشَرَةً إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ، "عِنْدَمَا تَضَعُ "شَرْطًا" فِي عَمَلِيَّةِ الحِسَابِ (الخُوَارِزْمِيَّةِ) الخَاصَّةِ بِكَ، فَأَنْتَ لَا تَقْتَبِسُ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ لُغَوِيَّةٍ، بَلْ أَنْتَ تَعْكِسُ ظِلًّا مِنْ ظِلَالِ المَنْطِقِ الإِلَهِيِّ العَظِيمِ الَّذِي جَعَلَ لِكُلِّ فِعْلٍ عَاقِبَةً، وَلِكُلِّ اخْتِيَارٍ مَصِيرًا".

الْمُلْحَقُ الرَابِعُ: خُوَارِزْمِيَّاتُ التَّكْرَارِ وَالدَّوَرَانِ

"التَّكْرَارَ" هُوَ أَحَدُ أَعْمَقِ الأَنْظِمَةِ وَأَكْثَرِهَا ظُهُورًا فِي البِنَاءِ القُرْآنِيِّ وَالكَوْنِيِّ.

وَكَمَا فَعَلْنَا مَعَ "الشَّرْطِ"، فَإِنَّ حَصْرَ كُلِّ الآيَاتِ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَى مَنْطِقِ التَّكْرَارِ أَمْرٌ صَعْبٌ جِدًّا، لِأَنَّ التَّكْرَارَ لَيْسَ فَقَطْ أَدَاةً لُغَوِيَّةً، بَلْ هُوَ نَامُوسٌ يَسْرِي فِي قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ، وَسُنَنِ الأُمَمِ، وَدَوْرَاتِ الطَّبِيعَةِ.

وَلَكِنْ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَصْنَعَ جَدْوَلًا يَجْمَعُ أَبْرَزَ الأَنْوَاعِ وَالأَمْثِلَةِ لِخُوَارِزْمِيَّاتِ "التَّكْرَارِ وَالدَّوَرَانِ"، لِيَكُونَ لَدَيْكَ المِفْتَاحُ لِفَهْمِ هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ:

جَدْوَلُ أَنْوَاعِ خُوَارِزْمِيَّاتِ "التَّكْرَارِ وَالدَّوَرَانِ" فِي القُرْآنِ

المَجَالُ	الخُوَارِزْمِيَّةُ	وَصْفُ التَّكْرَارِ وَشَرْطُهُ	الآيَةُ المَرْجِعِيَّةُ

	التَّكْرَارِيَّةُ		
الدَّوْرَاتُ الكَوْنِيَّةُ	خُوَارِزْمِيَّةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ	الفِعْلُ المُتَكَرِّرُ: تَقْلِيبُ وَتَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. شَرْطُ التَّوَقُّفِ: إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.	﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (النُّور: ٤٤)
	خُوَارِزْمِيَّةُ الأَفْلَاكِ	الفِعْلُ المُتَكَرِّرُ: سِبَاحَةُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ وَالكَوَاكِبِ فِي مَدَارَاتِهَا. شَرْطُ التَّوَقُّفِ: إِلَى الأَجَلِ المُسَمَّى.	﴿...وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠)
	خُوَارِزْمِيَّةُ إِحْيَاءِ الأَرْضِ	الفِعْلُ المُتَكَرِّرُ: إِنْزَالُ المَطَرِ وَإِنْبَاتُ الزَّرْعِ بَعْدَ مَوْتِ الأَرْضِ. شَرْطُ التَّوَقُّفِ: يَسْتَمِرُّ كُلَّ عَامٍ	﴿...وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ...﴾ (الحَجّ:

		بِأَمْرِ اللهِ.	٥)
الشَّعَائِرُ وَالعِبَادَاتُ	خُوَارِزْمِيَّةُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ	الفِعْلُ المُتَكَرِّرُ: أَدَاءُ الصَّلَاةِ. شَرْطُ التَّوَقُّفِ: تَتَكَرَّرُ الدَّوْرَةُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى المَمَاتِ.	﴿...إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النِّسَاء: ١٠٣)
	خُوَارِزْمِيَّةُ الطَّوَافِ	الفِعْلُ المُتَكَرِّرُ: إِتْمَامُ شَوْطٍ وَاحِدٍ حَوْلَ الكَعْبَةِ. شَرْطُ التَّوَقُّفِ: عِنْدَمَا يَصِلُ عَدَدُ الأَشْوَاطِ إِلَى سَبْعَةٍ.	﴿...وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحَجّ: ٢٩) - (وَقَدْ فَصَّلَتِ السُّنَّةُ العَدَدَ).
السُّنَنُ الأَخْلَاقِيَّةُ وَالتَّارِيخِيَّةُ	خُوَارِزْمِيَّةُ الشُّكْرِ وَالزِّيَادَةِ	الفِعْلُ المُتَكَرِّرُ: كُلَّمَا تَحَقَّقَ شَرْطُ الشُّكْرِ، تَأْتِي نَتِيجَةُ الزِّيَادَةِ. شَرْطُ التَّوَقُّفِ: سُنَّةٌ إِلَهِيَّةٌ	﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إِبْرَاهِيم: ٧)

		مُسْتَمِرَّةٌ.	
	خُوَارِزْمِيَّةُ إِرْسَالِ الرُّسُلِ	الفِعْلُ المُتَكَرِّرُ: كُلَّمَا جَاءَتْ أُمَّةٌ وَانْحَرَفَتْ، أُرْسِلَ إِلَيْهَا رَسُولٌ. شَرْطُ التَّوَقُّفِ: انْتَهَتْ بِخَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ (ص).	﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ...﴾ (المُؤْمِنُون: ٤٤)
أَحْوَالُ يَوْمِ القِيَامَةِ	خُوَارِزْمِيَّةُ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ	الفِعْلُ المُتَكَرِّرُ: تَبْدِيلُ الجُلُودِ لِيَذُوقُوا العَذَابَ بِاسْتِمْرَارٍ. الشَّرْطُ: "كُلَّمَا" نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ.	﴿...كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ...﴾ (النِّسَاء: ٥٦)

خُلَاصَةٌ وَتَحْلِيلٌ:

يَقُولُ الإِمَامُ لِتَلَامِيذِهِ:

"هَلْ رَأَيْتُمْ يَا أَبْنَائِي؟ إِنَّ مَنْطِقَ التَّكْرَارِ وَالدَّوَرَانِ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ

حِسَابِيَّةٍ، بَلْ هُوَ نَامُوسٌ إِلَهِيٌّ يَحْكُمُ كُلَّ شَيْءٍ:

- فَهُوَ نِظَامُ الِاسْتِقْرَارِ فِي الكَوْنِ: (اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، الأَفْلَاكُ).
- وَهُوَ نِظَامُ التَّرْبِيَةِ وَالتَّزْكِيَةِ فِي العِبَادَاتِ: (الصَّلَاةُ، الطَّوَافُ).
- وَهُوَ نِظَامُ العَدْلِ وَالجَزَاءِ فِي الأَخْلَاقِ وَالتَّارِيخِ: (الشُّكْرُ، سُنَنُ الأُمَمِ).
- وَهُوَ نِظَامُ تَحَقُّقِ الوَعْدِ وَالوَعِيدِ فِي الآخِرَةِ.

فَعِنْدَمَا تَضَعُ "حَلَقَةً تَكْرَارِيَّةً" (Loop) فِي خُوَارِزْمِيَّتِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، فَأَنْتَ تَعْكِسُ ظِلًّا مِنْ ظِلَالِ هَذِهِ السُّنَّةِ الإِلَهِيَّةِ العَظِيمَةِ الَّتِي تَجْعَلُ مِنْ فِعْلٍ بَسِيطٍ مُتَكَرِّرٍ قُوَّةً هَائِلَةً قَادِرَةً عَلَى بِنَاءِ نِظَامٍ مُسْتَقِرٍّ".

الْمُلْحَقُ الخَامِسُ: أَنْوَاعِ التَّنَاظُرِ البَيَانِيِّ وَأَدَوَاتِ المُقَارَنَةِ وَالمُقَابَلَةِ

أَبْرَزِ وَأَهَمِّ أَنْوَاعِ التَّنَاظُرِ البَيَانِيِّ وَأَدَوَاتِ المُقَارَنَةِ وَالمُقَابَلَةِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي جَدْوَلٍ شَامِلٍ، مَعَ شَرْحِ غَايَةِ كُلِّ أُسْلُوبٍ، وَرَبْطِهِ بِالتَّطْبِيقِ المَنْطِقِيِّ أَوِ الخُوَارِزْمِيِّ الَّذِي يَعْكِسُهُ.

جَدْوَلُ التَّنَاظُرَاتِ الكُبْرَى فِي القُرْآنِ

"وَهَذَا المَبْدَأُ فِي القُرْآنِ لِتَأْسِيسِ المَنْظُومَةِ القِيَمِيَّةِ كَامِلَةً"، قَالَ الإِمَامُ وَهُوَ يَرْسُمُ جَدْوَلًا عَلَى الرَّمْلِ:

الزَّوْجُ المُتَنَاظِرُ	المَعْنَى الرَّمْزِيُّ (مَا وَرَاءَ الكَلِمَاتِ)	الآيَةُ المَرْجِعِيَّةُ (مِثَالٌ)

الأَعْمَى ⟷ البَصِيرُ	الجَهْلُ وَالضَّلَالُ ⟷ العِلْمُ وَالبَصِيرَةُ	﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (فَاطِر: ١٩)
الظُّلُمَاتُ ⟷ النُّورُ	الكُفْرُ وَالشِّرْكُ ⟷ الإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ	﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (فَاطِر: ٢٠)
الأَحْيَاءُ ⟷ الأَمْوَاتُ	أَصْحَابُ القُلُوبِ الحَيَّةِ بِالإِيمَانِ ⟷ أَصْحَابُ القُلُوبِ المَيِّتَةِ بِالغَفْلَةِ	﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ...﴾ (فَاطِر: ٢٢)
الخَبِيثُ ⟷ الطَّيِّبُ	الحَرَامُ وَالفَسَادُ ⟷ الحَلَالُ وَالصَّلَاحُ	﴿...قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ...﴾ (المَائِدَة: ١٠٠)
أَصْحَابُ النَّارِ	أَهْلُ الشَّقَاءِ ⟷ أَهْلُ	﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ

⟷ أَصْحَابُ الجَنَّةِ	السَّعَادَةِ	وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ...﴾ (الحَشْر: ٢٠)

جَدْوَلٌ شَامِلٌ لِأَبْرَزِ أَدَوَاتِ وَأَنْوَاعِ التَّنَاظُرِ البَيَانِيِّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

الأُسْلُوبُ البَيَانِيُّ	وَصْفُهُ وَغَايَتُهُ	مِثَالٌ قُرْآنِيٌّ وَاضِحٌ	التَّطْبِيقُ المَنْطِقِيُّ (الخُوَارِزْمِيُّ)
١. المُقَابَلَةُ بِالأَضْدَادِ	وَضْعُ مَفْهُومَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ تَمَامًا جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ لِإِبْرَازِ الفَارِقِ الهَائِلِ بَيْنَهُمَا. غَايَتُهُ الوَضُوحُ التَّامُّ وَالحَسْمُ.	﴿...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ...﴾ (الرَّعْد: ١٦)	يُمَثِّلُ المَبْدَأَ الأَسَاسِيَّ لِلْمَنْطِقِ الثُّنَائِيِّ (Binary Logic) مِثْلَ (١/٠، صَحٌّ/خَطَأٌ، نَعَمْ/لَا).

٢. المُقَارَنَةُ بِضَرْبِ الأَمْثَالِ	تَحْوِيلُ فِكْرَةٍ مُجَرَّدَةٍ (كَالإِيمَانِ أَوِ الإِنْفَاقِ) إِلَى صُورَةٍ حِسِّيَّةٍ مَلْمُوسَةٍ لِتَسْهِيلِ فَهْمِهَا. غَايَتُهُ تَقْرِيبُ المَعَانِي العَمِيقَةِ إِلَى الأَفْهَامِ.	﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ...﴾ (البَقَرَة: ٢٦١)	يُشْبِهُ عَمَلِيَّاتِ النَّمْذَجَةِ وَالمُحَاكَاةِ (Modeling & Simulation)، حَيْثُ يُبْنَى أُنْموذَجٌ مُبَسَّطٌ لِفَهْمِ نِظَامٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا.
٣. المُقَابَلَةُ بِالعَاقِبَةِ وَالجَزَاءِ	الحُكْمُ عَلَى مَسَارَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لَيْسَ بِوَصْفِهِمَا، بَلْ بِوَصْفِ نَتِيجَتِهِمَا النِّهَائِيَّةِ. غَايَتُهُ إِظْهَارُ القِيمَةِ	﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى...	يُمَثِّلُ خُوَارِزْمِيَّةَ التَّفَرُّعِ الثُّنَائِيِّ الكَامِلَةِ (If...Then... Else...) حَيْثُ يُؤَدِّي كُلُّ شَرْطٍ إِلَى مَسَارٍ وَنَتِيجَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا.

	الحَقِيقِيَّةِ لِلْاختِيَارَاتِ.	فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (اللَّيْل: ٥-١٠)	
٤. المُقَارَنَةُ بِالِاسْتِفْهَامِ الإِنْكَارِيِّ	طَرْحُ سُؤَالٍ لَا يُقْصَدُ بِهِ طَلَبُ الجَوَابِ، بَلْ إِنْكَارُ إِمْكَانِيَّةِ تَسَاوِي الطَّرَفَيْنِ وَإِجْبَارُ العَقْلِ عَلَى الإِقْرَارِ بِالفَرْقِ. غَايَتُهُ التَّحْفِيزُ العَقْلِيُّ.	﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المُلْك: ٢٢)	يُشْبِهُ عَمَلِيَّاتِ التَّحَقُّقِ المَنْطِقِيِّ (Logical Validation) الَّتِي تَخْتَبِرُ صِحَّةَ فَرَضِيَّةٍ مَا عَبْرَ إِظْهَارِ سَخَافَةِ نَقِيضِهَا.

٥. المُقَارَنَةُ التَّفْضِيلِيَّةُ	لَا تَضَعُ شَيْئَيْنِ كَأَبْيَضَ وَأَسْوَدَ، بَلْ تَضَعُهُمَا عَلَى مِقْيَاسٍ وَتُوَضِّحُ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ أَوْ أَعْلَى دَرَجَةً. غَايَتُهَا تَرْتِيبُ القِيَمِ وَتَحْدِيدُ الأَوْلَوِيَّاتِ.	﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الفُرْقَان: ٢٤) - (اسْتِعْمَالُ صِيغَةِ أَفْعَل التَّفْضِيلِ: خَيْرٌ، أَحْسَنُ).	يُمَثِّلُ عَمَلِيَّاتِ المُقَارَنَةِ (>، <) وَالتَّرْتِيبِ (Sorting) فِي الخُوَارِزْمِيَّاتِ، وَكَذَلِكَ البَحْثَ عَنِ الحَلِّ الأَمْثَلِ (Optimization).
٦. المُقَابَلَةُ بِالتَّعَاكُسِ	ذِكْرُ شَيْئَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ وَمُتَعَاكِسَيْنِ فِي الفِعْلِ لِإِظْهَارِ القُدْرَةِ الكَامِلَةِ وَالإِحَاطَةِ الشَّامِلَةِ.	﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (النَّجْم: ٤٣-٤٤)	يُشْبِهُ مَفْهُومَ "النِّطَاقِ الكَامِلِ" (Full Range) فِي مَجْمُوعَةِ بَيَانَاتٍ، حَيْثُ يَتِمُّ التَّعَامُلُ مَعَ الحَدِّ الأَدْنَى وَالحَدِّ الأَقْصَى

	غَايَتُهُ إِظْهَارُ الهَيْمَنَةِ وَالشُّمُولِ.		لِلْقِيَمِ.

خُلَاصَةٌ:

إِخْتَتَمَ الْإِمَامِ هَذَا الدَّرْسَ بِقَوْلِهِ: "هَلْ رَأَيْتُمْ يَا أَبْنَائِي؟ إِنَّ القُرْآنَ لَا يُلْقِي عَلَيْنَا المَعْلُومَاتِ إِلْقَاءً، بَلْ يَسْتَخْدِمُ هَنْدَسَةً بَيَانِيَّةً مُعْجِزَةً لِيَجْعَلَ عُقُولَنَا شَرِيكَةً فِي اكْتِشَافِ الحَقِيقَةِ. وَهَذِهِ الأَدَوَاتُ البَلَاغِيَّةُ هِيَ فِي جَوْهَرِهَا أَدَوَاتٌ مَنْطِقِيَّةٌ، يُمْكِنُهَا أَنْ تُلْهِمَ العَالِمَ وَالرِّيَاضِيَّ لِبِنَاءِ أَنْظِمَتِهِ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الوُضُوحِ وَالقُوَّةِ وَالجَمَالِ".

✨ ٱلنَّشْأَةُ ٱلْقُرْآنِيَّةُ لِعِلْمِ الرِّيَاضِيَّاتِ ✨

يُقَدِّمُ هٰذَا ٱلْعَمَلُ ٱلسَّرْدِيُّ «رِوَايَةُ ٱلْخُوَارِزْمِيِّ وَنَشْأَةِ عِلْمِ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ وَمِيزَانِ ٱلْحِسَابِ» مَشْهَدًا فِكْرِيًّا مُرَكَّبًا يَنْسِجُ حِوَارًا تَخْيِيلِيًّا بَيْنَ ٱلْإِمَامِ وَٱلْخُوَارِزْمِيِّ لِٱسْتِكْنَاهِ أُصُولِ ٱلتَّعْدِيدِ وَٱلتَّمْوْضُعِ ٱلرَّقْمِيِّ وَقَوَاعِدِ ٱلْجَبْرِ وَٱلْمُقَابَلَةِ فِي ضَوْءِ «مِيزَانِ ٱلْبَيَانِ» ٱلْمُسْتَقَى مِنَ ٱلْوَحْيِ؛ فَيُزَاوِجُ بَيْنَ ٱلْخَيَالِ ٱلْأَدَبِيِّ وَٱلتَّأْسِيسِ ٱلْمَنْهَجِيِّ لِمَبَادِئِ ٱلتَّرْتِيبِ وَٱلتَّفْرِيعِ وَٱلتَّكْرَارِ وَمِيزَانِ ٱلِاخْتِبَارِ لِصِحَّةِ ٱلْحِسْبَانِ، وَيُظْهِرُ كَيْفَ تَتَآزَرُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ وَٱلصِّنَاعَاتُ ٱلتَّطْبِيقِيَّةُ فِي فَسِيحِ ٱلْمَسْجِدِ وَٱلدَّارِ لِتَشْكِيلِ عَقْلٍ عَدَدِيٍّ رَاشِدٍ يَطْلُبُ ٱلْبُرْهَانَ وَيَزِنُ ٱلْأَقْوَالَ وَٱلْمَسَائِلَ بِٱلشَّوَاهِدِ وَٱلْحُلُولِ. وَتَرْسُمُ ٱلرِّوَايَةُ بِنْيَةً مَعْرِفِيَّةً تُوَحِّدُ مِقْيَاسَ «ٱلْمَعْنَى» وَمِقْيَاسَ «ٱلْعَدَدِ» فِي سِيَاقٍ تَعْلِيمِيٍّ مُنْضَبِطٍ يُفْصِحُ عَنْ جُسُورِ ٱلْوَصْلِ بَيْنَ مَعَاجِمِ ٱلْمَفَاهِيمِ وَخُوَارِزْمِيَّاتِ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّرْتِيبِ وَٱلتَّحْسِيبِ، فَتُعِيدُ ٱقْتِرَاحَ قِرَاءَةٍ حَيَّةٍ لِلتُّرَاثِ ٱلرِّيَاضِيِّ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَتُفَكِّرُ فِي مَوْقِعِهِ مِنْ خَرِيطَةِ ٱلْعِلْمِ ٱلْمُعَاصِرِ مَعَ تَشْدِيدٍ عَلَى أَخْلَقَةِ ٱلْحِسَابِ وَحُدُودِ ٱلْمَعْرِفَةِ وَتَوَازُنِ ٱلْأَدَاةِ وَٱلْغَايَةِ فِي ٱلْمُعَامَلَاتِ وَٱلْعُمْرَانِ.

فَوْقَ ذٰلِكَ فَهِيَ رِوَايَةٌ تَعْلِيمِيَّةٌ تَرْبَوِيَّةٌ مُوَجَّهَةٌ لِلطُّلَّابِ فِي ٱلْمَرَاحِلِ ٱلثَّانَوِيَّةِ وَٱلْجَامِعِيَّةِ وَلِمُؤَسَّسَاتِ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْإِسْلَامِيِّ، تَهْدِفُ إِلَى تَوْأَمَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْفِطْرَةِ، وَإِلَى تَنْشِئَةِ بَاحِثٍ يَزِنُ ٱلْأَدَاةَ بِٱلْغَايَةِ وَيَصِلُ بَيْنَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَٱلْقِيمِ.